الموريسكيون الأندلسيون





المشروع القومي للترجمة

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال

ترجمة وتقديم: جمال عبدالرحمن

458









يعد هذا الكتاب مدخلاً لدراسة تاريخ مسلمى الأندلس بعد سقوط غرناطة: فهو يعرض عدداً من الوثائق المهمة التى تتناول مختلف جوانب القضية: اتفاقية تعليم غرناطة، وقرارات حظر اللغة العربية، وزى وعادات المسلمين فى إسبانيا، وعدة قضايا نظرتها محاكم التفتيش ضد من يمارسون شعائر الإسلام، ورسالة مفتى وهران التى يجيز فيها ممارسة شعائر الإسلام سراً وإخفاء ذلك فى العلن، ونموذج للكتابات التى خلفها مسلمو الأندلس التى تختلط فيها المعلومات الصحيحة بالخاطئة، وقرار طرد المسلمين من إسبانيا، هذا بالإضافة إلى وثائق تتحدث عن وضع المسلمين فى البلاد التى هاجروا إليها. والكتاب يضع أمام الباحث العربى عدة وثائق تمكنه من التصدى بموضوعية لقضية بالغة الأهمية هى قضية الأندلس.

الغلاف/ أمين الصيرفى

المشروع القومى للترجمة

الموريسكيون الأندلسيون

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال

ترجمة : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٥٨
- الموريسكيون الأندلسيون
- مرثيديس غارثيا أرينال
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

Los Moriscos

Autora : Mercedes García Arenal

Editorial : Siglo XXI

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

مقدمة المترجم 7
تقديم ميغيل أنخيل بونيس 13
مقدمة المؤلفة 27
تطورات القضية الموريسكية 29
اتفاقية تسليم غرناطة 31
موريسكيو غرناطة 39
القصيدة التى أرسلها مسلمو الأندلس إلى السلطان العثمانى طلبًا لنجدته .. 41
رسالة من فقهاء المغرب إلى إخوانهم من العرب المتنصرين 49
مذكرة السيد فرانثيسكو نونييث مولاى 53
نبوءة موريسكية 63
حرب البشرات 69
موريسكيو قشتالة 73
معركة بدر وحنين 79
شعائر الموريسكيين الدينية 97
الاتهام والحكم فى قضية نظرتها محكمة التفتيش ضد الموريسكى
فرانثيسكو دى اسبينوسا 105
تنصير موريسكيى فالنسيا 113
تعليم موريسكيى فالنسيا العقيدة الكاثوليكية 115

قضية السيد/ سانشو دى كاردونا 137
رأى أسقف سيغوربى فى الموريسكيين 155
قضية نظرتها محكمة التفتيش ضد السيد/ كوسمى بن عامر وهو موريسكى من فالنسيا 167
شكوك حول الموريسكيين 201
قرار محكمة تفتيش أراغون بحظر حمل الموريسكيين الأسلحة النارية.. 207
أوضاع ومعاملات وأزياء ومأكولات الموريسكيين طبقًا لما يرويه مؤلف أراغونى . 211
رسالة السيد مانويل بونثى دى ايون إلى صاحب الجلالة بتاريخ ٢٨ أغسطس عام ١٦٠٩ 217
مذكرة حول طرد الموريسكيين أرسلها إلى البلاط الملكى الأب سوبرينو فى سبتمبر ١٦٠٩ 225
قرار طرد موريسكيى فالنسيا 229
رسالة ماركيز كاراثينا إلى صاحب الجلالة بتاريخ ٣ أكتوبر ١٦٠٩ .. 233
نسخة من الرسالة الأصلية التى وجهتها بلدية مدينة مرسيه إلى جلالة الملك بتاريخ ١٧ أكتوبر عام ١٦٠٩ 235
رسالة من موريسكى غرناطى أرسلها من الجزائر إلى مواطن من تروخيو.. 237
رسائل من كونت سالاثار إلى الملك يعرب فيها عن قلقه إزاء أعداد الموريسكيين التى تعود إلى مواطنها بعد أن تم طردهم منها 239
نسخة من الرسالة الأصلية التى بعث بها ككونت سالاثار إلى سيادته (سكرتير الملك) 241
موجز ومقتطفات من القضية التى نظرتها محكمة التفتيش ضد دييغو دياث 243

مقدمة المترجم

نتحدث كثيرا عن الأندلس ونصوره كحلم جميل استيقظت أمتنا منه على واقع مؤلم ، لكن هذا الحديث لا يفيد شيئا ، فهو مجرد سرد عاطفى لواقعة هنا أو حدث هناك.

نتحدث كثيرا عن فضل العرب على العجم ، ونقول عن مخترعات الغرب إننا أصحاب الفضل فى وجودها ، إذ لولا علماؤنا ما كان بإمكان أوربا تحقيق التقدم العلمى الذى حققته ، نقول ذلك لكننا لا نشغل أنفسنا بإثبات هذه المعلومة.

ذات مرة كنت أطالع بعض الوثائق فى مكتبة مدريد الوطنية ووجدت بين يدى تقريرا كتبه مفكر إسبانى أوفدته بلاده فى مهمة إلى بعض الدول العربية لعله يعثر فيها على مخطوطات مفيدة أو كتب نادرة تتعلق بتاريخ إسبانيا. عاد الرجل بعد أن أنجز مهمته ، وجاء فى التقرير الذى قدمه إلى حكومته: " لاحظت أمرين فى العرب: أولا حرصهم الشديد على اقتناء الكتب ، ثانيا: إن أحدا منهم لا يقرأ الكتب التى أجهد نفسه فى اقتنائها".

لعل هذا ما يفسر أننا نتحدث عن تاريخنا المجيد فى الأندلس أو حقوقنا السليبة فى مكان ما من العالم دون أن نقدم دليلا على ما نقول.

إن على من يريد التصدى لقضية ما أن يتسلح بالوثائق أولا ، ثم يقوم باستخلاص النتائج بعد ذلك. الوثائق: هنا بالضبط تكمن أهمية الكتاب الذى بين يدينا.

لا نظن أن هناك مبالغة إذا قلنا إن هذا الكتاب -بما يتضمنه من وثائق- يشكل الخطوة الأولى التى يجب أن يخطوها من يريد دراسة تاريخ الأندلس بعد سقوط غرناطة. هذا هو الدرس الأول الذى يقدمه لنا الكتاب ، فهو يعرض الاتفاقية التى وقعها أبو عبد الله الصغير و فيرناندو الكاثوليكى لتسليم غرناطة (إن اتفاقية تسليم غرناطة ،

بصيغتها التى يعرضها الكتاب، تشير إلى القوى الفاعلة الموجودة فى ذلك الحين ، وتوضح – بما لا يدع مجالاً للشك – أن المفاوض المسلم كان مفاوضا ناجحا ولم يفرط أبدا فى حقوق المسلمين الإسبان ، بل ولم يفته كذلك أن يدافع عن حقوق رعايا الدولة الإسلامية من اليهود . ربما يمكن أن نستخلص من التجربة الأندلسية هنا أن مستقبل أمة ما لا تضمنه مجرد اتفاقيات موقعة ، بل تماسك الأمة واستمرارها فى امتلاك أسباب القوة.) كما يعرض الكتاب نماذج للقضايا التى نظرتها محاكم التفتيش (مما يساعدنا على إدراك أبعاد ملحمة صمود شعب الأندلس المسلم فى وجه المحاولات الرامية إلى طمس هويته، ويبين أن عناصر المقاومة كانت تشمل الفقراء والأغنياء، والرجال والنساء) . كما يعرض مواقف المجتمع الإسبانى من القضية ، وكيف أن بعض القادة كانوا يرون إمكانية التعايش بين أفراد المجتمع على الرغم من اختلاف الأديان (رأينا وثيقة تبين الدفاع المستميت عن المسلمين الذى أبداه بعض النبلاء الإسبان ، لدرجة أن يتطوع أحدهم بتشييد مسجد تقام فيه الصلاة) ، وكيف أن تركيا ومصر لم تكونا بعيدتين عن مجريات الأحداث (القصيدة التى أرسلها الموريسكيون إلى السلطان بايزيد الثانى تشير إلى تدخل مصر المملوكية لصالحهم). يبين الكتاب أيضا الدرس العظيم الذى قدمه مفتى وهران: إن الفتوى التى أرسلها إلى أبناء الأندلس – وهى بعيدة كل البعد عن الجمود– يجب أن تدرس بعناية. تلك الفتوى الشهيرة أحدثت تاريخا ، ويستحق صاحبها أن يسجل اسمه بين رجال الدين المتميزين. لقد أدت – ببساطة – إلى استمرار الإسلام فى إسبانيا ما يربو على قرن من الزمان.

النتيجة الثانية التى نخلص إليها من قراءة الكتاب ربما تتمثل فى إدراك أن جوانب قضية الأندلس متعددة ولا ينبغى تبسيطها. يخطئ المسلمون والمسيحيون على السواء إن هم ظنوا أن تاريخ الأندلس كان مجرد فترة صراعات انتهت لصالح أحد الفريقين ، وأن كل المسلمين كانوا يريدون الرحيل وأن كل المسيحيين كانوا سعداء بترحيل الموريسكيين. إن الوثائق التى يعرضها الكتاب تبين أن بعض المطرودين قد وجدوا راحتهم فى البلاد التى نزحوا إليها ، أما البعض الآخر فقد صدم حين وقعت عيناه على واقع مر ، حين أدرك البون الشاسع بين الإسلام بتعاليمه السمحة وبين بعض المسلمين الذين راحوا يفسرون الدين على غير أساس من علم ضرورى لفهم

الدين فهمًا صحيحًا. إذن فقد عاد بعض المسلمين إلى إسبانيا بعد طردهم منها ، وهذا معناه إما ضعف الوازع الدينى وإما أن المعاملة التى لقوها لم تكن مشجعة على الحياة فى بلد المهجر. يبقى أن نحدد نسبة هذا الفريق. تبين الوثائق كذلك أن بعضا من عامة الشعب فى إسبانيا كانوا يتسترون على المسلمين العائدين.

الحديث عن سقوط دولة الإسلام فى الأندلس وما أعقب ذلك من عمليات تنصير إجبارى للمسلمين وكفاح المسلمين من أجل الحفاظ على دينهم ، ثم نزوح المسلمين إلى دول إسلامية وغير إسلامية..... هو مجرد معلومات ناقصة يجب علينا أن نكملها بمعلومات أخرى تضع الأمور فى نصابها الصحيح. الكتاب إذن يوضح أن قضية الموريسكيين أكثر تعقيدا مما يظن أحدنا ، إنها ليست مجرد قضية شعب طرد من أرضه بعد أن أجبر على اعتناق دين لا يؤمن به. لقد تجرأ البعض واتهم الموريسكيين بالتفريط ! ولو فرط هؤلاء فى دينهم ما تعين عليهم أن يتحملوا الأهوال التى مروا بها.

الكتاب يوضح أيضا أن نسبة غير قليلة من الوثائق الرئيسية للقضية الموريسكية مكتوبة باللغة العربية ، وهذا يلقى باللوم على الباحث العربى إن هو تخلف عن البحث فى هذه الوثائق والمشاركة الفعالة فى تحليل ما حدث فى الأندلس واستخلاص العبر.

إحدى الوثائق التى يعرضها الكتاب تبين إلى أى مدى تأثر المسلمون فى الأندلس بالمسيحيين ، لدرجة أن بإمكاننا أن نتحدث عن وجود مؤثرات غير إسلامية فى إسلام الموريسكيين.الحديث عن نبوءات تشير إلى مستقبل الأندلس يقودنا إلى الحديث عن نبوءات مشابهة زعم القوط وجودها وقالوا إنها تتوقع قدوم المسلمين إلى شبه الجزيرة. ونضيف هنا أن الرسالة التى يقول صاحبها إنه الشيخ أحمد وإنه خادم الروضة الشريفة وإنه رأى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المنام وإنه كلفه بإبلاغ رسالة إلى الناس.....هذه الرسالة وضعها المسلمون فى إسبانيا بعد سقوط الأندلس ، وما هى إلا تقليد لرسالة زعم المسيحيون فى أوربا خلال العصور الوسطى أنها هبطت عليهم من السماء [١] .

بعد هذا الاستعراض للوثائق التى يقدمها الكتاب أكاد أجزم بأنه يلخص كل أبعاد القضية الموريسكية ، وإن كنت -إحقاقا للحق- أشير إلى جانبين هامين من

جوانب القضية لا يتعرض لهما الكتاب ولم يتم تناولهما إلا مؤخرا: الموضوع الأول يتعلق بمسألة الوجود الإسلامى فى أمريكا الجنوبية بعد نزوح عدد من الموريسكيين إليها .إن العثور على مخطوطات ذات موضوعات إسلامية ، وتوافر معلومات عن عدة قضايا نظرتها محاكم التفتيش فى أمريكا الجنوبية، بالإضافة إلى تعاقب الأوامر الملكية بحظر سفر المسلمين إلى العالم الجديد...كل ذلك يؤكد أن الإسلام كان موجودا فى أمريكا الجنوبية منذ لحظة اكتشافها. ولنا أن نشير إلى أن الأبحاث التى تنشر حاليا تعضد ما نقول [٢] . أما الموضوع الثانى فهو خاص بالجدل بين المسلمين والمسيحيين من عامة الشعب ، وكان الجدل يدور أحياناً داخل السجن بين المسلمين والبروتستانت (لم يكن مسموحا حينذاك إلا المذهب الكاثوليكى) . وقد خلف الموريسكيون عدة مخطوطات تعالج هذا الموضوع ، وبرز منهم كثيرون فى هذا المجال. [٣] .

يبقى أن نتعرف على مؤلفة الكتاب. لقد اكتفت بجمع الوثائق وكتابة بضعة سطور عن كل وثيقة ، وكان بوسعها أن تكتب الكثير ، فهى أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بإسبانيا وواحدة من أبرز المتخصصين فى موضوع الموريسكيين [٤] الذى يدخل فى نطاق اهتمامها بتاريخ الإسلام الأندلسى والعلاقة بين المغرب وإسبانيا ، وقد حاضرت فى هذه الموضوعات بجامعة مدريد المركزية وأشرفت على العديد من رسائل الدكتوراه.

لا أستطيع أن أنهى التقديم لهذا الكتاب دون توجيه شكر خاص إلى الباحثة مرثيديس غارثيا أرينال التى أشرف بالتعاون معها منذ سنوات ، فبمجرد أن عرضتُ فكرة ترجمة الكتاب إلى العربية أبدت حماسا شديدا ، وقدمت لى كل أنواع المساعدة ، وتابعت عملية الترجمة أولا بأول ، وكنت أعود إليها لكى تشرح لى فقرة غامضة أو تعبيراً لم يعد مستعملاً فى اللغة الإسبانية الحديثة .

الهوامش

(١) لدينا صورة من المخطوطة التى خلفها الموريسكيون وتحدثوا فيها عن رؤيا الشيخ أحمد المزعومة ، و نرى أن المخطوطة تعود إلى عام ١٥٩٧ ، وقدمنا بحثا عن هذا الموضوع بعنوان "رسالة موريسكية إلى العالم: قراءة فى مخطوطتين بالمكتبة الوطنية بمدريد" ، فى المؤتمر العاشر للدراسات الموريسكية (تونس) انظر أعمال المؤتمر العاشر .... ، زغوان ، تونس ، ٢٠٠٣ ، ص ٥٢ - ٦١

(٢) فى السنوات الأخيرة عثر على مخطوطات موريسكية فى عدة أماكن بأمريكا الجنوبية : على سبيل المثال: مختصر الأوامر والنواهى فى السنة النبوية ، لعيسى بن جابر مفتى سيغوبيا ، الذى عثر عليه فى المكسيك..راجع كذلك ترجمة د.عبد الجليل التميمى لكتاب لوى كارداياك " الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية (١٤٩٢ - ١٦٤٠)» ، والكتاب يتضمن ملحقا عن الموريسكيين فى أمريكا الجنوبية. أنظر أيضا:

د. جمال عبد الرحمن: "الثقافة العربية الإسلامية فى أداب أمريكا الجنوبية"، كتاب تكريم الدكتورة سوليداد كراسكو دى أورغويتى ، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات، تونس، ١٩٩٩، الجزء الثانى ، ص. ٣١ - ٥٧

Garcia Arenal: 'Moriscos e indios. Para un estudio comparado de medios de conquista y evangelizacion.", *Chronica Nova*, Num. 2, 1992, .Universidad de Granada.

(٣) راجع كتاب لوى كارداياك المذكور. انظر على سبيل المثال أيضا أشعار خوان ألونسو أراغونيس (المخطوطة ٩٠٦٧ بالمكتبة الوطنية بمدريد والتى أشار إليها د. رضا مامى ، أعمال المؤتمر الخامس للدراسات الموريسكية ، المجلد الأول، ص. ٤٦٧ - ٤٧٥) .

(٤) نذكر من دراسات المؤلفة : *Inquisicion y moriscos.:Los procesos del Tribunal de Cuenca*, Madrid, Siglo XXI, 1978.

Moros y judios en Navarra en la Baja Edad Media,, Madrid, Hisperion, 1984.

Los españoles y el Magreb en los siglos XV a XVIII,Madrid, Mapfre, 1992.

Entre el Islam y Occidente, vida de Samuel Pallache, judio de Fez, Madrid, Siglo XXI, 1999.

تقديم

مغيل أنخيل بونيس
(المجلس الأعلى للبحث العلمى - مدريد)

استخدم الموريسكيون على مدى القرون الماضية - خاصة فى العقود الأخيرة - كمادة لدراسة الخواص السياسية والاجتماعية والثقافية لإسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بالإضافة إلى كتابة تاريخ حياتهم ومأساتهم. إن دراسة أوضاع هذه الأقلية تمكننا من تحديد خواص مجتمع ما من وجهة نظر المختلفين معه، من وجهة نظر منْ هم أقل أو من وجهة نظر المهمشين. إن وجود مجموعة من البشر مختلفة بسبب الدين والعادات اليومية - بين مجتمع يقول بوضوح إنه يتميز بخواصه الثقافية والعقائدية - يمثل فرصة للمؤرخين ولعلماء اللغة وللباحثين فى مجال الدين أو فى عالم الفكر، هذا التواجد يجعل من الممكن وضع حد بين ما هو أصلى وما هو غريب، بين ما نراه يتمشى مع القاعدة - أى ما هو شرعى - وما هو غير شرعى. بغض النظر عن مصير الموريسكيون التعيس ، وبغض النظر عن اختفائهم كموضوع بحث بعد نفيهم الإجبارى فإننا مدينون لهم بوجود نقاش بناء ومثمر حول الواقع التاريخى لإسبانيا فى الفترة التى كان فيها ذلك الواقع يتخذ شكله النهائى الذى اتصفنا به ، والذى وصفنا الآخرون به. إن عدم وجود مشكلة واحدة لأولئك الموريسكيين - بل عدد من المشاكل يماثل عدد الممالك والمناطق والأقاليم التى استقروا فيها أو رُحلوا إليها - يمكن اعتباره ضربة قاصمة موجهة إلى منْ يقولون بوجود مملكة إسبانية واحدة مترابطة شديدة التماسك. وحتى وقت قريب - بل وفى دراسات معاصرة - كان المنصرون قسراً يستخدمون كأداة لمطالبات ومراجعات تتعلق بمجموعة ما ، وليست لها علاقة بالقضية الموريسكية.

ورغم أن " القضية الموريسكية" تقدم فى كتب التاريخ الإسبانى الحديث على أنها مشكلة هامشية ، إلا أن الكتابات التاريخية حول هذا الموضوع تميزت بوجود عدة

اتجاهات وبالدفاع عن مواقف سياسية ، وبتحديد الشخصية الوطنية لإسبانيا ، بل وبتقديم مبررات دينية واجتماعية وسياسية. إن هذه المجموعة البشرية كانت -إلى حد ما- أداة استخدمت فى تأملات خاصة بهذا العصر ، ولا علاقة لها بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر. إن الموريسكيين - كآثر أخير من الأندلس الزائل - كانوا كرماء مع الباحثين الذين اقتربوا منهم ، كما تدل على ذلك كمية الأبحاث الكبيرة التى نُشرت فى الوقت الحاضر. إن ما يربو على قرن من الزمان من التعايُش مع الموريسكيين قد أدى إلى وجود كم هائل من الأبحاث المنشورة والمخطوطة كتب معظمها " مسيحيون قُدامى" باللغات الأوروبية ، وتوجد هذه الأبحاث فى المكتبات والأرشيفات. وللأسف فإن المدجنين لم يحظوا بهذا القدر من الاهتمام، وهذا يرجع إلى قلة الوثائق المتعلقة بهم ، وإلى صعوبات لغوية أو إلى قلة جاذبية الموضوع : فتاريخ المدجنين ليست فيه مفاجآت، ولا ينتهى تلك النهاية المثيرة. نستطيع أن نؤكد - دون مبالغة - أن القائمة الطويلة من الأبحاث عن الموريسكيين قد حولتهم إلى مخلوقات ليس لها وجه : فنحن نعرف كيف كانت ملابسهم ، وما هى الحرف التى كانوا يمارسونها ، ومحتوى أوانى طبخهم ، ولهجاتهم العربية والأيبيرية ، وبعضًا من أسمائهم. إن الظلم الذى تعرض له الموريسكيون تصوره كمية ضخمة من الأبحاث، هذه الأبحاث تحول معها المسيحيون القُدامى - عدا أصحاب السلطة الرسمية - إلى شخصيات مجهولة مقارنة بالموريسكيين الذين نعرف عنهم أدق التفاصيل. هذا لا يعنى أن ضحايا الأمس قد تحولوا إلى جُناة اليوم ؛ بل يؤكد أن جاذبية الأقلية المضطهدة قد حركت فضول الباحثين.

يمكن تناول القضية الموريسكية من عدة جوانب ، بعضها قديم والآخر حديث، مثل تاريخ الأقاليم ، والتاريخ المحلى الذى يستند إلى تحليل آليات السلطة ، وكيفية اتخاذ القرار فى العهد القديم، ويمكن أن يفيد ذلك فى إعداد كتاب عن العادات أو قصة رعب أو عن مراجعة المفاهيم المسيحية الإسلامية أو عن وصفات لكيفية إعداد أكلات . إننا إزاء مجموعة من الناس تشكل جزءًا من المجتمع الإسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولسنا إزاء مجموعة سياسية أو عدو عسكرى ، أو مجموعة تشكل تهديدًا مباشرًا لحكم عائلة أوستريياس. إن عظمة الموريسكيين - فى إطار أهميتهم المحدودة - تكمن أيضًا فى أنه من الممكن اعتبارهم جزءًا مرفوضًا من المجتمع الذين كانوا يعيشون فيه ، على أنهم مجموعة بشرية تدافع عن

الإمبراطورية المعادية للإمبراطورية الإسبانية فى البحر المتوسط ، فى كونهم خصما محتملا فى حالة زحف الإسلام إلى أوربا ، فى أنهم عامل يقوض الأسس الاقتصادية وأسس تقسيم السُلطة فى شبه الجزيرة. لهذا كله نؤكد أهميتهم فى إطار تاريخ إسبانيا.

الموريسكيون أقلية ليس لها تاريخ قومى بعد اختفاء السُلطة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، ذلك لأن تلك الأقلية عاشت بين وطن استوعبها، و على مدى عقود قليلة فقط كانت لهذه المجموعة مميزات خاصة وجدت فى جبال البشرات ، ولم توجد فى حى البيازين الغرناطى . خلال تلك السنوات التى اختفى فيها ضغط الأغلبية ، لعدم جدوى تلك الضغوط، كان تاريخ الموريسكيين عبارة عن تاريخ مجتمع ريفى يسير وفق فصول السنة الزراعية أكثر مما يسير وفق أفكار الثورة أو وفق التعاليم الدينية ، ولم يكن للصفة الدينية دور واضح إلا خلال ثورة عام ١٥٧٠ . فيما عدا هذا الفاصل الزمنى الذى برزت فيه زعامات للأقلية الموريسكية فى أماكن محددة ، كانت الأقلية بلا قيادة، وكانت لها خواص إقليمية محددة، وهذا ما يجعل من الممكن إجراء دراسة اجتماعية ونفسية عنهم. هذه الدراسة لا يجب أن تستند فقط إلى تاريخ السلطات المسيحية والسياسية باعتبارها المرجع الوحيد؛ لأن ذلك سيؤدى إلى وجود أحكام جزئية ناقصة.

إن واقع الموريسكيين لابد أن يدرس عبر تحليل وثائقهم. إن إعادة طبع كتابٍ هدفه الوحيد " إعطاء كل من يهتم بالقضية الموريسكية – أو يحاول إعداد دراسة حول جانب منها – قاعدة بيانات ووثائق تتيح له الإلمام بالجوانب الرئيسية للمشكلة وتساعده على البدء فى العمل" ، إعادة طبع كتاب هذا هدفه ليست عملاً هزليًا ، إنما هو عمل لا غنى عنه حتى لا نتجاهل المصادر الحقيقية للبحث. إن إعداد طبعة حديثة لنصوص رمزية تتضمن وثائق هو شكل من أشكال تدعيم الدراسات الموريسكية. وكتاب مرثيديس غارثيا أرينال الذى نُشر عام ١٩٧٤ هو واحد من الكتب التى أتذكرها بشوق، وأشعر نحوها بالامتنان ، فقد بدأنا – نحن الباحثين الشبان – من خلال صفحاته دراسة الأقلية الموريسكية : إذ بيَّن لنا الكتاب تعدد جوانب المشكلة التى كنا نظنها مشكلة سهلة حدثت فى إسبانيا أيام حكم أسرة أوسترياس. عادةً تأتى الوثائق والمراجع لكى تدعم بحثًا ، وتحتل المرتبة الثانية بالنسبة للأشخاص الذين لم يعتادوا

إعداد موضوع استناداً إلى الوثائق. ومع ذلك ففى هذا النوع من الكتب تظهر موهبة الباحث. إن تلخيص تاريخ قرن كامل استناداً إلى ثمانية وعشرين وثيقة دليل على دراية الباحثة بالمشكلة التى تتعرض لها ، وبالفعل نحن أمام واحدة من أكثر الباحثين تخصصاً فى هذا الموضوع. والخطة التى وضعتها الباحثة منطقية جداً، فهذا ما تتطلبه الوثائق المعروضة ، وهذا ما قام به بعد ذلك كل من أنطونيو دومينغو أورتيث ، وبيرنارد ڤينثينت (*) فى كتابهما " تاريخ الموريسكيين. حياة ومأساة أقلية". إن دراسات الباحثين المذكورين فى هذه الفقرة - بالإضافة إلى باحثين آخرين فى هذا العقد - قد حددت الاتجاهات الحالية فى دراسة القضية الموريسكية. وفى الوقت الذى كانت تهمل فيه المهارات الشخصية ظهرت أبحاث كتبها الجيل الجديد ، تعلمنا منها وعوضنا بها نقصنا. قد يبدو هذا الوصف مبالغاً فيه؛ لأننى أتحدث عن الكتاب الذى يكتفى بعرض وثائق ، ولا أذكر مؤلفات الباحثة فى هذا المجال، لكن هذه المبالغة لها ما يبررها بالنظر إلى الصفحات التالية .

رغم أن فهرس الكتاب والمقدمة الموجزة التى تسبقه لا يشيران إلى تصنيف للوثائق حسب الموضوعات إلا أن الوثائق يمكن تقسيمها جغرافياً أو زمنياً. الفصل الأول هو بداية المشكلة الموريسكية ومحله هو الأراضى التى كانت المشكلة فيها بسيطة. إن المجتمع الاستعمارى الذى استقر فى غرناطة - وفق رأى خوليو كارو باروخا - كان يحول بين الوفاء بمعاهدة تمت وفق مفاهيم عصور أخرى. كان المجتمع الموريسكى يشعر بضغوط جماعة مسيطرة ، وكان يبحث لنفسه عن مخرج. إن استمرار عقائد وعادات الموريسكيين كان فى نظر السلطات السياسية والدينية أمراً محالاً ؛ ولهذا فقد أدانت تلك السلطات الحياة الموريسكية بما فيها من ممارسة للشعائر الإسلامية سراً ، وبما فيها من نبوءات وأساطير ، واتصال سياسى بسلطة إسلامية كانت مرشحة لتكون قوة أوربية ومتوسطية. إن ثورات الموريسكيين وحروبهم واتصالهم بالعثمانيين والمغاربة كان امتداداً للحياة تحت حكم بنى نصر.

المشكلة الثانية حول الموريسكيين والتى يجب مناقشتها - وهى مشكلة لم تحل بعد كلياً - هى صفتهم كمسلمين. هذا الموضوع - مثله كمثل القمع الذى تعرضوا له - قد

(*) توجد ترجمة عربية للكتاب قام بها د. عبد العال صالح (تقديم وتنقيح محمد محى الدين الأصفر) ونشرت فى دار الإشراق (قطر) عام ١٩٨٩ (المترجم) .

نوقش استنادا إلى وثائق محكمة التفتيش ، وإلى النصوص الالخميادية القليلة المحفوظة حاليًا. إن نوع المصادر المستعملة - خاصة ملفات محكمة التفتيش- قد جعل بعض الباحثين يبدون قلقهم إزاء " تسميم المصادر" التى تدرس المجتمع الموريسكى وعلاقته بالمسيحيين. ويكمن أساس المشكلة في تقدير نجاح سياسة استيعاب الموريسكيين ، والتفرقة بين " الاستيعاب" و " التنصير" ، وتعريف الموريسكيين وفقًا لخصائصهم الثقافية التى تميزوا بها خلال السنوات التى سبقت عملية الطرد من إسبانيا. إن توزيع الموريسكيين بين الأقاليم المختلفة ، واختلاف تطورهم وفقًا للأقاليم ووفقًا لمستوى تفكير السلطات المحلية ....إلخ ؛ كل ذلك يجعل عملية تحديد المشكلة مسألة معقدة تمامًا كمسألة تحديد عدد الذين طردوا ومصيرهم فى المنفى، ويشكل الموريسكيون لغزًا مرة أخرى؛ لأنهم ليسوا مجموعة ذات صفات متشابهة ، بل هم مجموعات مختلفة : اجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا ودينيًا وجغرافيًا وحرفيًا وعسكريًا وعنصريًا وسياسيًا.

هذه الاختلافات لا يتصف بها الموريسكيون فقط ، بل تتصف بها كذلك المجتمعات التى عاشوا فيها ، والتى شكلوا جزءًا منها. ويمكن النظر إلى القضية الموريسكية على أنها مشكلة إسبانية بحتة كامتداد فى العصر الحديث لأوضاع العصور الوسطى ، ويمكن النظر إلى الموريسكيين على أنهم أكبر خطر هدد قيام الدولة الإسبانية وحكم أسرة أوستورياس ، وعلى أنهم أحد عناصر الصراعات الدينية فى أوربا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وعلى أنهم نموذج لصراع الحضارات وللصدام بين المسيحية والإسلام. كل تصور من التصورات السابقة يمثل رؤية صحيحة ومفيدة ، هذا ما تؤكده الأبحاث الرائعة الموجودة لدينا حاليًا. المهم ألا نعمم النتائج استنادًا إلى وثائق جزئية.

النقطة الثالثة التى تتعرض لها وثائق مرثيديس غارثيا أرينال هى موريسكيو فالنسيا، وهؤلاء يشكلون مجموعة لها خواص مميزة ترجع إلى المعاهدات التى وقعت فى العصور الوسطى، وإذا كانت مشكلة مسلمى غرناطة قد نشأت عام ١٤٩٢ فإن مشكلة أهل فالنسيا يعود أصلها إلى الفترة التى كانت فيها هذه الأراضى تابعة لتاج أراغون. إن دراسة الأقليات فى قطالونيا وأراغون وفالنسيا وفى بعض مناطق قشتالة

يتيح لنا التعرف على تاريخ النصارى المقيمين فى بلاد المسلمين وتاريخ المسلمين المقيمين فى بلاد النصارى؛ ويتيح لنا بذلك التعرف على الملامح الأندلسية التى انتقلت إلى الممالك المسيحية ، كما يتيح لنا معرفة نُظُم الإنتاج فى العهد القديم والتعرف على خواص أقلية تعيش وسط أغلبية ترتبط بها .

فالنسيا هى المكان الذى يمكن أن نتعرف فيه بشكل أوضح على صروف الدهر وتقلباته مع الأقلية المسلمة ، وعلى المجهود الذى بذلته الكنيسة من أجل تنصير المسلمين هناك، وذلك بفضل وجود مدرسة بدأها خوان ريغلا. إن مراجعة الكتابات التاريخية عن فالنسيا وقطالونيا وأراغون ربما تمكننا من الحديث عن تدخل العناية الإلهية ، وعن النقاش حول اندماج الأقلية فى ثقافة الأغلبية، وعن دراسة طبقة النبلاء ، وعن الخواص الاقتصادية للنظام القديم ، وعن الهوية الثقافية للأقلية المسلمة ، وعن دراسة لغة وعادات الموريسكيين.

تشكل كل من غرناطة وفالنسيا أساس القضية الموريسكية ؛ فهما المملكتان اللتان عاش فيهما عدد كبير من الموريسكيين ، ومن ثم استطاع الموريسكيون فى كل منهما الحفاظ على عاداتهم ولغتهم ، وهذا قد سمح بصياغة نظريات مختلفة ، بل ومتناقضة. هذا الجدل وهذه المواقف – التى كانت تبدو متناقضة – قد أدت إلى وجود تأملات حول الثقافة والمجتمع والاقتصاد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، هذه التأملات تجاوزت حدود الأقلية الموريسكية لتشمل المجتمع بأسره، وقد دفع هذا التشبث بالرأى والدفاع عن مواقف مسبقة حول الواقع التاريخى ؛ أدى ذلك إلى تأملات كان من شأنها تغيير الأسس التى بنيت عليها الكتابات التاريخية الإسبانية. إن الموريسكيين يشكلون أقلية ومجموعة بشرية مهمشة ؛ لكن دراستهم أدت إلى قيام ثورة فى الجدل العلمى حول الدراسات الإنسانية. إن ظهور دراسات تحمل كل منهما عنوان " الوضع الحالى للقضية " ، وظهور قوائم مراجع ووثائق فى هذا المجال معناه أننا بحاجة إلى ملء فراغ واضح فى الوعى المعاصر. هذه الأهمية لم يشعر بها أحد للأسف ، إذ ركز بعضهم اهتمامه على الموضوع الأصغر دون أن يدرك أن كثيراً من الباحثين حول الموضوع – مؤلفة الكتاب على سبيل المثال – قد فتحوا مجالات جديدة فى قضايا أكثر اتساعاً. لقد استحوذ الموريسكيون فى القرون الأخيرة على اهتمام

كثير من الشخصيات التى اهتمت برسم الخطوط العريضة لتطور العلوم التاريخية والسياسية فى إسبانيا ؛ وعليه فإن التعرض لهذا الموضوع يشكل اقترابًا من ماضينا.

يتضح ذلك تمامًا عندما نتحدث عن الوثائق التى جمعتها المؤلفة – والتى تتحدث عن المشاكل التى تحدث يوميًا بين جماعتين، ثم الحل النهائى الذى فرضته الأغلبية على الأقلية – وهذا يتيح لنا أن نسجل وقائع الفشل أو عدم التفاهم أو عدم وجود اتجاهات واضحة أو التبريرات السياسية والدينية لقرار لم يُبرر بعد، ويتيح لنا دراسة التغيرات الاقتصادية والديموغرافية التى حدثت فى بعض الأقاليم الإسبانية فى القرن السابع عشر. ما ذكرناه سابقًا يتعلق بمأساة الأقلية ومأساة الأغلبية على السواء ؛ لكنه أدى أيضًا إلى أن يقوم المستعربون والمستشرقون وعلماء اللغة والمؤرخون الأوربيون والمغاربة وعلماء الدين الإسلامى وعلماء الاقتصاد – أن يقوم كل هؤلاء بتوسيع مجال الدراسة. وكما أن بعض الكتابات التاريخية المتعلقة بالموريسكيين تعرضت للفشل فإن الاتجاهات الجديدة أيضًا تضمنت – أحيانًا – تصورات جزئية للمشكلة ، لكن هذا كله لا ينفى التقدم الذى منحه الموريسكيون لمجالات الدراسة.

الموضوع الأخير الذى تتعرض له الوثائق هو المنفى ومصير الموريسكيين عندما أجبرهم قرار الطرد على الحياة فى بلاد الإسلام. يتحول الموريسكيون مرة أخرى إلى أداة لدراسة تاريخ الأمم الأخرى ، وإلى دراسة عالم البحر المتوسط فى العصر الحديث. إن تعريف ما حدث فى هذا البحر المشترك على أنه صراع حضارات يروق للبعض ؛ إذ يبدو أنه بعد معركة ليبانتو ، ونهاية توسعات الإمبراطوريات ظل المجال خاليًا . إن الموريسكيين يمثلون إحدى القضايا التى تجعلنا نؤكد أن القول السابق لا يتفق تمامًا مع الحقيقة. إن تغيير المسارات التجارية والطرق الجديدة التى كانت تسلكها القوات العسكرية لا تعنى نهاية عصر أو نهاية حياة منطقة جغرافية. إن الموريسكيين يمثلون دليلاً على عدم صواب هذا الحكم.

عاد الموريسكيون إلى احتلال موقع الريادة ، ففى السنوات الأخيرة أعادت دار النشر هذه طبع عدة كتب قديمة صدرت حول القضية الموريسكية. إن كتب باسكوال برونات وفلورينثيو خانير وغيرهما قد تجاوزتها الأبحاث الحديثة ، وإن كنا لا يجب أن نغفل آراء المؤلفين السابقين أو المعلومات التى وردت فى كتبهم، أما كتاب مرثيديس

غارثيا أرينال فهو كتاب يبين لنا أهمية الأحداث من خلال الوثائق ، وهنا تكمن عظمته. إن كثيراً من المخطوطات التى نقلتها المؤلفة فى كتابها لا تزال إلى اليوم تخرج إلى النور كإسهامات جديدة فى مقالات وأبحاث تُلقى فى المؤتمرات ، وهذا هو وضع " القصيدة الموريسكية التى أُرسلت إلى السلطان العثمانى " على سبيل المثال ، وهذا دليل على أن بعض الكتابات لا تزال بعيدة عن إدراك ما نُشر حول الموريسكيين . إن القضية الموريسكية – شأنها فى ذلك شأن قضايا أخرى – ربما تسمح ببناء قصور فى الهواء ، لكن هذه القصور يهدمها الواقع ، وتدحضها الوثائق. وإذا كانت الوثائق معبرة عن الموضوع الذى سندرسه ؛ فإننا نكون بذلك أمام أداة بحث لا غنى عنها. هذه الوثائق يمكن أن تكون نواة لأبحاث أخرى. إن تلخيص تاريخ الموريسكيين كله فى عشرين وثيقة يمكن اعتباره مخاطرة ، إذا وضعنا فى الاعتبار مئات الدراسات المنشورة حول الموضوع. وعلى العكس من ذلك فإذا قرأنا الوثائق المعروضة قراءة متأنية فإن بإمكاننا أن نتبين وجود تيارات مختلفة فى ذلك العصر هى التى أدت إلى نشأة التيارات الحديثة فى التأريخ الموريسكى. لا يزال تاريخ الموريسكيين موجوداً فى الأرشيفات والمكتبات ، ومن ثم فإن جمع الوثائق فى كتاب يجعل الاهتمام بهذا الموضوع مستمراً.

إن الوثائق التى يتضمنها كتاب غارثيا أرينال تسمح لنا أيضًا بالاقتراب من الفترات والاتجاهات التى تميزت بها الكتابات التاريخية عن الموريسكيين. من الطبيعى أن يهتم الكتاب بتلك الوثائق الأصلية التى تتناول الأحداث الأولى والنزاعات بين الجماعات الإسبانية بدءاً بثورة البشرات (دييغو أورتادو دى مندوثا : " حرب غرناطة التى قادها ملك إسبانيا ضد موريسكيى تلك المملكة" ، لشبونة عام ١٦٢٧ ، ولويس ديل مارمول كارباخال:" ثورة موريسكيى غرناطة وعقابهم" ، ملقة عام ١٦٠٠ ، وخنيس بيريث دى إيتا" الجزء الثانى من الحروب الأهلية فى غرناطة" كوينكا عام ١٦١٤). هذه الكتب الثلاثة تحكى لنا قصة الحرب من وجهات نظر مختلفة، وجهة نظر شخص قريب من السلطة ، ووجهة نظر شخص قريب من الجانب المسيحى ، وهو الجانب القوى فى النزاع ، ووجهة نظر جندى عاش فترة من الأسر فى المغرب، ووجهة نظر أديب وظَّف الواقع لكى يكتب لنا رواية موريسكية.

إن وصف النزاع – الذى يمكن أن يُسمى حرباً أهلية فى إسبانيا فى نهاية القرن السادس عشر – لن يكون دفاعًا عن مواقف متباينة ؛ بل سيحدد الأطراف والجزئيات. إن تعثر عملية التعايُش بين الجماعتين – على الأقل من وجهة نظر دعائية – سيكون موضوع دراسات ظهرت إبان السنوات القريبة من قرار الطرد. هناك – بالإضافة إلى وثائق محاكم التفتيش– كتب تتبنى وجهة نظر " المسيحيين القُدامى" مثل كتابى خايمى بليدا Defensio Jidei in causa neophytorum(فالنسيا ١٦١٠) ،" تاريخ مسلمى إسبانيا" (فالنسيا ١٦١٨) ، وكتاب بدرو أثنار كاردونا " الطرد العادل لموريسكيي إسبانيا " (اويسكا ١٦١٢) ، وكتاب داميان فونيسكا " الطرد العادل لموريسكيي إسبانيا" (روما ١٦١٢) ، وكتاب ماركوس دى غوادالاخارا " طرد ونفى موريسكيي إسبانيا " (بمبلونه ١٦١٣) ، وكتاب " نفى موريسكيى قشتالة " (بمبلونه ١٦١٤) وكتاب خوان دى ريبيرا " طلب لطرد الموريسكيين" (١٦١٢) ، وكتاب خوان لويس روخاس " العلاقة بين بعض الأحداث الأخيرة فى بلاد البربر، وخروج الموريسكيين من إسبانيا " (لشبونة ١٦١٣) . عبر صفحات هذه الكتب نجد دفاعًا عن قيم المسيحيين القُدامى فى مواجهة أولئك الذين يدعمون جيوشًا قادمة من شواطئ البسفور. إنه أدب دعائى يحاول أن يثبت أن قرار الطرد عادل، رغم أن هذا القرار لم تتفهمه الأجيال الحالية حتى الآن. أولئك الرجال – ومعظمهم من رجال الدين – يقدمون وجهة النظر الرسمية ، ويُلبسون قرار الطرد ثوبًا فكريًا ؛ لكنهم لا يفسرون لنا الدوافع التى أدت إلى اتخاذ القرار. هنا يكمن السر فى أن الموضوع الموريسكى لا يزال مستمراً بعد أن كُتبت عنه آلاف الصفحات: إن التساؤلات المطروحة لم يُجب عنها أحد بشكل يُرضى.

هذه التساؤلات التى لم يجب عنها أحد قد طرحها التأريخ الإسبانى فى القرن التاسع عشر. كان المعتاد فى الماضى – حتى سنوات قليلة – هو تعريف ذلك العصر وفقًا للتوجهات الفكرية للمؤرخين الذين تناولوا القضية الموريسكية. يمكننا إذن أن نتحدث عن التقدميين أمثال : خانير، وليا، ومونيوث، وغابيرا، وموديستو لافوينتى ، وعن المحافظين أمثال : منينديث بيلايو، وباسكوال برونات ، ومانويل دانبيلا ، وكانوباس ديل كاستيو. وقد تحدث عن هذا التصنيف كل من رفائيل بنيتيث سانشيث (فى مقدمة

كتاب ليا: " الموريسكيون الإسبان. تنصيرهم وطردهم" ، اليكانتى ١٩٩٠)، وريكاردو غارثيا كارثيل (فى مقدمة كتاب باسكوال برونات " الموريسكيون الإسبان وطردهم" ، جامعة غرناطة ١٩٩٢) . وقد تركز الجدل فى هذه السنوات حول موضوع تقبل المسيحيين القُدامى للمسلمين ، وقد أدى هذا الجدل إلى مراجعة أسس وصفات المجتمع الإسبانى فى العصور الوسطى ، وخاصة إبان حكم أسرة أستورياس. إن الوثائق التى جُمعت تمكننا من دراسة النظام السياسى الذى أرسته الملكية ، وتمكننا من تحليل دور الكنيسة و محكمة التفتيش فى المجتمع الإسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد بدأ القرن بنشر دراسات وجهت انتقادات شديدة إلى تصرفات فيليبى الثالث ودوق ليرما ، وانتهى برد فعل جيل الإصلاح ، وهذا يشير إلى التغييرات التى طرأت على النظام الليبرالى الإسبانى خلال قرن من الزمان.

يجب أن نذكر - بشكل خاص - تلك الدراسات التى صدرت فى العقد الذى يبدأ عام ١٩١٠ . إن اكتشاف مكتبة موريسكية كاملة مكتوبة بالألخميادو فى إحدى قرى سرقسطة جعل المستعربين يدرسون الموريسكيين . إن فهرسة محتوى مكتبة المجموعة - وهو عمل قام به خوليان ريبيرا وأسين بلاثيوس - يُعد بداية لدراسة ثقافة الأقلية من خلال ما كتبه مؤلفو الأقلية أنفسهم. من المهم هنا أن نذكر ذلك الكتاب الذى وضعه بدرو لونغاس عن الشعائر الإسلامية تحت عنوان " حياة الموريسكيين الدينية" (*) (مدريد ١٩١٥) ، ومن المهم كذلك أن نبرز اهتمام علماء اللغة بجماعة وصفت قديماً بخلوها من الثقافة والأدب.

إن عصر تجديد الدراسات الموريسكية - أو بداية التأريخ الحديث للموريسكيين - يدين بالفضل لذلك الجدل الذى دار بين أميريكو كاسترو وسانشيث ألبورنوث حول الواقع التاريخى لإسبانيا ، ومدين لجهود أعضاء مدرسة مجلة Annales الفرنسية مثل فيرناند براوديل صاحب كتاب " حوض البحر المتوسط فى عصر فيليبى الثانى" ، وهنرى لابير صاحب كتاب "جغرافية إسبانيا الموريسكية" (باريس ١٩٥٩) ، ومدين كذلك للتأثيرات

(*) ترجمنا الكتاب إلى اللغة العربية وقد نَشرهُ مركز الدراسات الموريسكية (زغوان - تونس) عام ١٩٩٣ (المترجم) .

(**) نعد الآن ترجمة لهذا الكتاب الهام نأمل أن ترى النور قريبًا ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة (المترجم) .

التى أحدثتها مقالات خوان ريغلا التى جمعت فى كتاب " دراسات حول الموريسكيين" (برشلونة ١٩٧٠) ، وكتاب "موريسكيو مملكة غرناطة" لخوليو كارو باروخا (**) .

بدأت دراسة القضية الموريسكية من قبل باحثين ذوى اتجاهات مختلفة، فقد درس المستعربون الأدب الألخميادو ، وكان على رأسهم البارو غاليس دى فوينتيس ، وبدأ دارسو الأدب واللغة الإسبانية فى تحليل الجدل الدينى بين الجماعتين ، وكان على رأس هؤلاء لوى كارداياك ("الموريسكيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية ١٤٩٢ - ١٦٤٠")، أما المستعرب ميكيل دى ايبالثا؛ فقد كرس جهده للبحث عن آثار الموريسكيين فى المغرب فى " دراسات حول الموريسكيين الأندلسيين فى تونس" بالاشتراك مع رامون بتيت (مدريد ١٩٧٣) كما قامت مرثيدس غارثيا أرينال بدراسة مجموعة محلية من خلال وثائق محكمة التفتيش فى كوينكا ، وذلك فى كتاب " محكمة التفتيش والموريسكيون : قضايا محكمة كوينكا" (مدريد ١٩٧٨).

إن أسماء الشخصيات والكتب المتعلقة بالموريسكيين كبيرة لدرجة أصبح معها من الضرورى وجود منهج لجمع كل ما كتب حول القضية. هناك قائمة لمراجع عامة حول الموضوع ، منذ البداية وحتى عام ١٩٧٨ ، نشرها مارتين رافيارد فى الجزائر عام ١٩٧٩ ، وهناك دراسات عن الموريسكيين فى مجلة "شرق الأندلس" أعدها ميكيل دى إيبالثا وغيره ، ونُشرت فى اليكانتى عام ١٩٨٣ ، وهناك دراسة عن الموريسكيين فى بلاد البربر أعدها مارتين رافيارد، ونُشرت عام ١٩٨١ . وقد أصبح من الضرورى إعداد دراسة عن الكتابات التاريخية المتعلقة بالموريسكيين ؛ هذه الدراسات التى يوضح كل منها الوضع " الحالى" للقضية قام بإعدادها كل من ريكاردو غارثيا كارثيل (١٩٧٧) وميغيل انخيل بونيس إيبارا (١٩٨٣)، وهى دراسات يجب أن يُضاف إليها ما كُتب خلال السنوات الأخيرة.

إن حجم الدراسات الموجودة حاليًا حول القضية الموريسكية دفع بعض الباحثين إلى المناداة بوضع اسم جديد لهذا النوع من العلوم ، واقترحوا أن يكون الاسم " موريسكولوجى". لا أريد الدخول فى تفاصيل ، لكن من الواضح أن القضية شدت انتباه باحثين لهم آراء ومواقف متباينة تشكل فيما بينها صرحًا ثريًا .

في عـام ١٩٧٩ ظهـر كـتـاب يوجـز تـاريخ الموريسكيين (دومـينغـيث أورتيث ب. فينثينت "تاريخ الموريسكيين : حـياة ومـأسـاة أقليـة" مـدريد) ، وقـد حـفـز هذا الكتاب الدارسات اللاحقة، بعد ذلك عقدت لقاءات بين المتخصصين لمناقشة موضوعات محددة في أوبييدو عام ١٨٩١ ، وفي مونبلييه عام ١٩٨١ ، وفي تونس أعوام ١٩٨٣ ، ١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٩٠ (*) وفي بلدة سان كارلوس دي لا رابيتا عام ١٩٩٠ ، وقد نُشرت أعمال هذه الملتقيات بعد ذلك ، وقد أسـهمت اللـقـاءات بين المتـخـصـصين في تـقـريب وجهات النظر.

إن محاولة تحديد اتجاهات الكتابة التاريخية حول الموريسكيين حاليًا مهمة تتجاوز الهدف من هذه المقدمة ، وتجعلني أجحف حق بعضٍ من الذين لا أذكر أسماءهم مع وجوب ذكرها ؛ لذلك فإنني سأكتفي بذكر عناوين الدراسات الأخيرة التي تشكل اتجاهًا جديدًا في هذا المجال. ومن بين الأقاليم التي عاش فيها الموريسكيون وكان لهم وزن ديموغرافي تبرز أندلوثيا (وقد اهتم بدراستها كل من فنينثنت ، و م. بايوس أغيليرا ، و م. بيرييل، م. و أثيين ألمانسا ، و أ. غالان، اراندا دونثيل ، و خيل سان خوان ، و ن. كابريانا ، و ف. برنابي ، و ر. بنيتيث ، و سانشيث بلانكو) وفالنسيا وقطالونيا (وقد اهتم بدراستها كل من ب. فيرير، و ثيسكار ، و م. أرديت ، و ر. لوبيث كيليس ، و أولوس تاماريث ، و دولوريس برامون ، و ميكيل دي ايـبالثـا ، و برنابي ، و غارثيا كارثيل ، و فيرير، و بنيتيث) وقشتالة (وقد اهتم بدراستها كل من ديديو ، وبدراثا، و ر. سانشيث ، وبلاثكيث ، وخ.م. ماغان ، و سيرافين دي تابيا) وأراغون (وقد ظهرت دراسة لمجموعة من الباحثين بعنوان " منفيون من أراغون : يهود وموريسكيون" سرقسطة ١٩٨٨) .

هذا التأريخ المحلي والإقليمي الذي قام به الباحثون بمنهج علمي سليم قد أدى إلى توضيح الأمور في مجالات السكان والاقتصاد والمعتقدات وأنظمة السلطة واللهجات والنظم الاجتماعية وأسماء الموريسكيين ، وهذا ما نجده عند كارمن بارثيلو وأنا لابارتا. ومن بين الكتب الأخيرة التي صدرت يبرز كتاب ماركيث بيانويبا وعنوانه "المشكلة الموريسكية من وجهة نظر أخرى" (مدريد١٩٩١)، وقد فتح مؤتمر أوبييدو

(*) لا تزال مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات تنظم المؤتمرات عن القضية الموريسكية ، وسوف يُعقد المؤتمر الحادي عشر بإذن الله في شهر مايو ٢٠٠٢ بمدينة زغوان (المترجم) .

آفاقًا جديدة فى مجال الأدب الألخميادو ، وبرزت فيه أسماء لوبيث بارالت ولوبيث موريناس. إن دخول باحثين مغاربة مجال الدراسات الموريسكية قد ملأ فراغًا كبيرًا يتعلق بحياة الموريسكيين على الجانب الآخر من البحر المتوسط ومشاكلهم هناك، وهنا تبرز أسماء كل من: محمد رزوق ومصطفى زبيس وعبد الجليل التميمى وعبد الحكيم القفصى.

هذه القائمة يمكن أن تكملها أسماء أخرى لم نذكرها الآن لدواعى الإيجاز ، كما يمكن أن تكملها مجالات أخرى تعكس تعقيدات حياة مجموعة بشرية عاشت على جانبى البحر المتوسط أكثر من قرن من الزمان خلال القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر. هذه المجالات تتدرج من الأزياء وطريقة الطبخ عند الموريسكيين ، وتصل حتى المعتقدات ، مرورًا بالاقتصاد والسكان. إن الموريسكيين يشكلون جزءًا من عالم متعدد ومعقد، والوثائق التى يتضمنها الكتاب يمكن أن تذكرنا بكلام آخر معاد ، لكنها تمثل دعوة إلى تمهيد طرق جديدة يمكن أن تقودنا إلى تحليلات مختلفة. هذا الكتاب خرج إلى النور حينما صدرت كتب أخرى هامة فى التأريخ الموريسكى ، ونأمل أن تواكب هذه الطبعة الجديدة لحظة أخرى من لحظات الازدهار. إذا لم يتحقق هذا الأمل فيكفينا أن نعيش – عبر هذه الوثائق – الظروف التى مر بها الموريسكيون والمسيحيون القدامى.

مقدمة المؤلفة

الهدف الذى أسعى إليه فى هذا الكتاب هو تقديم قاعدة وثائقية وقائمة مراجع لكل منْ يهتم بدراسة القضية الموريسكية [1] أو لمنْ يسعى إلى دراسة جانب من جوانبها، هذه الوثائق وهذه المراجع يمكن أن تمهد له الطريق ، وأن تساعده على البدء فى دراسته .

لهذا الهدف قمت بجمع وثائق (بعضها لم يُنشر بعد، لكن معظمها نُشر فى كتب أخرى) رأيت أنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لجوانب القضية الموريسكية. لم أنشر القرارات التى نظم الملوك بمقتضاها حياة الموريسكيين، أو حاولوا من خلالها معالجة مشكلتهم، بل فضلت تلك الوثائق التى أظهرت عقلية وموقف الناس من الموريسكيين. وقد حاولت أن تقدم مجموعة الوثائق للقارئ صورة لحياة الموريسكيين وجوانبها الاجتماعية والثقافية والسياسية. سعيت كذلك إلى عرض موقف المسيحيين القُدامى (فى محاكم التفتيش ، وفى الإدارة المركزية ، وبين سادة الموريسكيين من رعاياهم) وموقف الموريسكيين ، رغم أن الوثائق الخاصة بموقف هؤلاء الأخيرين ليست كثيرة.

إذا وضعنا فى الاعتبار اتساع الموضوع فلنا أن ندرك أن هذه الوثائق ليست سوى مؤشر لمختلف جوانب القضية الموريسكية ؛ لكنى آمل فى أن تثير هذه الوثائق الاهتمام بأى جانب من جوانب المشكلة التى لا تزال فى حاجة إلى دراسة وتوضيح.

إن كمية المراجع المنشورة حول الموريسكيين هائلة ، لكن معظم هذه المراجع يدور حول مسائل عامة، أو حول كتب ليست موضوعية وذات نزعة جدلية. لا نزال فى حاجة إلى دراسات عن موضوعات محددة تستند إلى وثائق مستخرجة من الأرشيفات ، ولا شك فى أن مثل هذه الدراسات ستمثل إضافات هامة.

(١) نعنى بمصطلح "موريسكيين" أولئك المسلمين الذين عاشوا فى إسبانيا بعد استرداد شبه الجزيرة بالكامل (عام ١٤٩٢) والذين أجبروا على اعتناق المسحية . الوثائق الخاصة بالنصف الأول من القرن السادس عشر تطلق عليهم صفة "المتنصرين الجدد ذوى الأصل المسلم" . وقد اختفت الأقلية الموريسكيه من إسبانيا مع عملية الطرد بين عامى ١٦٠٩ - ١٦١٤ .

تطورات القضية الموريسكية

١٤٩١ توقيع اتفاقية تسليم غرناطة (١٨ نوفمبر) .

١٤٩٢ تنصير المسلمين على يد الكاردينال ثيسنيروس ، وإحراق الكتب العربية فى غرناطة.

١٥٠١ إخضاع المتمردين.

قرار بتنصير موريسكيي غرناطة.

حظر دخول موريسكيي قشتالة مملكة غرناطة (٢٠ يوليه)

١٥٠٢ قرار يخيِّر مسلمي قشتالة بين التعميد والنفى (١١ فبراير)

حظر مغادرة موريسكيي قشتالة لأراضيهم (١٧ فبراير) وبهذا ألغى خيار النفى.

١٥١٦ الكاردينال ثيسنيروس يصدر قرارًا يجبر فيه المسلمين على التخلى عن أزيائهم وعاداتهم ؛ لكن القرار يُجمد.

١٥٢٠ - ١٥٢٢ حروب الجماعات فى فالنسيا. الجماعات تجبر الموريسكيين على التعميد تحت التهديد بقتلهم.

جدل حول ما إذا كان التعميد شرعيًا أم لا

١٥٢٤ البابا كليمنتى السابع يحث كارلوس الخامس على وضع حد لمشكلة المسلمين فى أراغون ، ويسمح له بطرد منْ لم يتم تعميدهم ويحله من وعده أمام المجلس الملكى ، والخاص باحترام عادات الموريسكيين (١٥ مايو)

١٥٢٥ كارلوس الخامس يخير موريسكيي فالنسيا بين التعميد والنفى ، ويتعهد بأن يكون المتعمدون فى مأمن من محاكم التفتيش لمدة ٤٠ عامًا.

١٥٢٦	تعميد موريسكيي أراغون بناءً على قرار بذلك .
	ثورة موريسكيي فالنسيا في بناغواثيل ، وفي سيرا دي اسبادان.
	قرار بحظر لغة وأزياء وعادات موريسكيي غرناطة. تأجيل تنفيذ القرار.
١٥٦٧	قرار بحظر عادات الموريسكيين وحظر استعمال اللغة العربية.
٦٨ – ١٥٧٠	حرب غرناطة.
١٥٧٠	البدء في ترحيل مسلمي غرناطة إلى قشتالة (١ نوفمبر)
١٥٧١	قرار بنزع أسلحة موريسكيي فالنسيا (٢٨ يونيه)
١٥٨٥	حرب في أراغون بين الموريسكيين (من زراع الأراضي) والرعاة
١٦٠٩	نشر قرار طرد موريسكيي فالنسيا (٢٢ سبتمبر)
	حظر بيع موريسكيي قشتالة ممتلكاتهم العقارية (١٤ نوفمبر)
١٦١٠	الإعلان في فالنسيا عن قرار طرد موريسكيي أندلوثيا ومرسيه وأورناتشوس (١٢ يناير)
	السماح بمغادرة قشتالة لمنْ شاء من الموريسكيين (١٨ يناير)
	الأمر بطرد موريسكيي قطالونيا (١٧ أبريل)
	الإعلان في سرقسطة عن قرار طرد موريسكيي أراغون (٢٩ مايو)
	الإعلان عن قرار طرد موريسكيي قشتالة واكستريمادورا ولا مانشا(١٠ يوليه)
١٦١٤	انتهاء عملية طرد آخر الموريسكيين؛ وهم موريسكيو باييي دي ريكوتي الذين تم تأجيل طردهم نظراً لشهرتهم كمسيحيين مخلصين.

اتفاقية تسليم غرناطة (*)

إن أول وثيقة ضمن وثائق القضية الموريسكية - سواء من حيث الترتيب الزمنى ، أو من حيث كونها الأساس الذى بنيت عليه المشكلة برمتها - هى العهد الذى أعطاه الملكان الكاثوليكيان لمسلمى غرناطة بعد استسلامهم فى نهاية عام ١٤٩١ ، وبعد أن انتهت عشر سنوات من الحروب خاضتها آخر معاقل السلطة الإسلامية فى إسبانيا.

هذه الاتفاقية التى كانت سخية بالنسبة للخاضعين تؤكد على منح المسلمين حرية ممارسة شعائرهم وشريعتهم ولغتهم وعاداتهم.

لم تحترم هذه الاتفاقية إلا لمدة وجيزة. كانت نصوص الاتفاقية على النحو التالى (١) :

- يتعهد ملك غرناطة والقادة والفقهاء والوزراء والعلماء وكافة الناس ، سواء فى غرناطة فى البيازين وأرباضهما بأن يسلموا طواعية واختياراً - وذلك فى ظرف ستين يومًا تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة - قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين إلى الملكين الكاثوليكيين ، أو إلى من ينيبانه من رجالهما ، على ألا يُسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين بحيث يكشف أحوال المسلمين، وأن يعاقب من يفعل ذلك.

(*) لا شك فى أن هذه الاتفاقية تعدُّ أفضل معاهدة وقّعها طرفٌ مهزوم ، وهى - إذا وضعنا فى الاعتبار هذه الظروف - تدل على صلابة وكفاءة أبى عبد الله الصغير كمفاوض ، وتدحض ما يقول به البعض من تخاذل ملك غرناطة أو تفريطه . (المترجم) .

(١) هكذا أوردها مارمول... فى كتاب

Rebelión y castigo.....,pp.147-150

حول اتفاقية تسليم غرناطة انظر أيضا

Garrida Atienza: *Las capitulaciones para la entrega de Granada*

Gaspar Remiro: *Ultimos pactos y correspondencia entre los Reyes Católicos y Boabdil sobre la entrega de Granada*

Moreno Casado: *Las capitulaciones de Granada en su aspecto jurídico*

– وبعد مضى أربعين يومًا يخضع كل المسلمين طواعية لجلالة الملك الكاثوليكى ويؤدون ما يجب عليهم تأديته كرعايا مخلصين لملكهم الطبيعى.

وضمانًا لسلامة هذا التسليم يقدم الملك مولاى أبو عبد الله والقادة المذكورون إلى الوزير يوسف بن كماشة قبل تسليم الحمراء بيوم واحد خمسمائة شخص من أبناء وأخوة زعماء غرناطة والبيازين؛ ليكونوا رهائن فى يدى صاحب الجلالة لمدة عشرة أيام ريثما تُسلم الحصون، ويتم توزيع الرجال والمؤن عليها ، وفى أثناء تلك الفترة يُقدم لهم ما يحتاجونه من أطعمة، ثم يُطلق سراحهم.

– بعد أن يتم تسليم قصر الحمراء والحصن يتعهد الملكان الكاثوليكيان وابنهما الأمير خوان بالأصالة عن أنفسهم ، وبالنيابة عن خلفائهم إلى الأبد، بقبول الملك أبى عبد الله والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وعامة الشعب رجالاً ونساءً من أبناء غرناطة والبيازين وأرباضهما وقراهما والبشرات وجميع الأراضى التى تتضمنها هذه المعاهدة ، كرعايا طبيعيين وأن يُؤَمنوا على بيوتهم وأموالهم وثرواتهم الكائنة الآن والتى قد تؤول إليهم مستقبلاً، وألا يحدث بهذه الممتلكات أى ضرر ، إلا بسبب وإلا طبقًا للقانون، وألا تُصادر أموالهم أو جزء منها بل ستُحترم ممتلكاتهم، وسيكونون موضع احترام رعايا جلالة الملك مثل سائر المواطنين الذين يعيشون تحت حكم جلالته.

– حينما يرسل صاحبا الجلالة رجالهما لتسلم قصر الحمراء فسيأمرون من يرسلونه بالدخول من باب العشار، أو من باب نجدة، أو عن طريق الحقول الخارجية، وذلك حتى لا يؤدى سيرهم فى شوارع المدينة إلى إثارة المشاعر.

– يوم أن يقوم الملك أبوعبدالله بتسليم الحصون والأبراج ، يُردّ إليه ابنه ومعه سائر الرهائن والنساء والخدم عدا أولئك الذين اعتنقوا المسيحية.

– يتعهد الملكان وخلفاؤهما إلى الأبد بأن يُترك الملك أبو عبد الله والقادة والقضاة والعلماء وعامة الشعب كبارًا وصغارًا على دينهم ، وألا يُؤخذ شىء من مساجدهم ومآذنهم ، وألا تُمس أوقافهم المخصصة للمساجد ، وألا يُجبروا على ترك عاداتهم وتقاليدهم.

– أن تتم محاكمة المسلمين وفق شريعتهم الخاصة بهم ، وأن يحكم بينهم قضاتهم.

– ألا تُصادر منهم – الآن أو مستقبلاً – أسلحة أو خيول ، أما المدافع الصغيرة والكبيرة فعليهم تسليمها إلى الأشخاص الذين يحددهم صاحب الجلالة.

– جميع المسلمين كبيراً وصغيراً، رجالاً ونساءً، من غرناطة، أو من البشرات، أو من أى مكان آخر، إذا أرادوا الرحيل إلى بلاد البربر، أو إلى أى مكان آخر يريدونه، يستطيعون بيع ممتلكاتهم وأثاثهم بالشكل الذى يُريحهم، وإلى الشخص الذى يرغبون فى التعامل معه. ولن يسلب الملك أو خلفاؤه – ولن يدعون أحداً يسلب منهم – شيئاً من الذين اشتروا ممتلكات المسلمين. وإذا أراد صاحبا الجلالة شراء شىء فيمكنهما ذلك مع دفع ثمنه المقدر ، وفى حالة عدم تواجدهما فيمكنهما تفويض أشخاص فى ذلك.

– يقدم صاحب الجلالة إلى المسلمين الذين يريدون الرحيل إلى بلاد البربر، أو إلى أى مكان آخر، وسيلة سفر آمنة لهم ولأسرهم ولمتاعهم وحليهم وأسلحتهم عدا الأسلحة النارية ، ومن يريدون السفر بعد ذلك سيجهز لهم صاحبا الجلالة عشر سفن كبيرة ترسو فى الموانى التى يحددونها فى غضون ستين يوماً وتحملهم آمنين إلى موانى بلاد البربر التى كانت تذهب إليها سفن التجار المسيحيين ، وبالإضافة إلى ذلك فإن كل من يريد الرحيل إلى بلاد البربر بعد مضى ثلاث سنوات يمكنه ذلك ، وسيقوم صاحب الجلالة بإرسال السفن إلى حيث يطلبون وسيرحلون آمنين، على أن يطلبوا ذلك قبلها بخمسين يوماً ، ولن تُحصل منهم رسوم مقابل الرحيل.

– بعد مضى الأعوام الثلاثة المذكورة يستطيع المسلمون العبور إلى بلاد البربر كلما أرادوا ذلك ، وستصدر تصاريح لهم مقابل دفع دوقية واحدة للشخص الواحد بالإضافة إلى نفقات السفر.

– إذا لم يتمكن المسلمون الراغبون فى الرحيل من بيع أملاكهم الواقعة فى غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأماكن أخرى، فيمكنهم أن يعهدوا إلى أشخاص آخرين بإدارتها، وأن يتمكن الوكلاء من إرسال ريع الممتلكات إلى أصحابها فى بلاد البربر، أو حيثما كانوا دون أن يُمنعوا من ذلك.

– ألا يأمر صاحبا الجلالة أو ابنهما الأمير خوان ولا خلفاؤهما إلى الأبد أن يضع رعاياهم المسلمين على ملابسهم شارات تميزهم كما يفعل اليهود .

– ألا يدفع الملك أبو عبد الله ولا مسلمو غرناطة والبيازين وأرباضهما الضرائب التى كانوا يدفعونها عن دورهم وممتلكاتهم لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه، ولا يدفعوا سوى عشار الأرض عن شهر أغسطس والخريف، وعشار الماشية التى لديهم وقت استحقاق العشار فى شهرى أبريل ومايو كما يدفع المسيحيون عادةً.

– عند تسليم المدينة وتوابعها يقوم المسلمون بتسليم الأسرى النصارى الذين بحوزتهم رجالاً كانوا أم نساء إلى صاحب الجلالة لكى يطلق سراحهم ، ولا يحصل المسلمون على أى مقابل مادى لذلك ، وإذا كان أحد المسلمين قد باع أسيراً مسيحياً فى بلاد البربر فعليه أن يُقسم على ذلك وفق شريعته، وأن يقسم على أنه باع الأسير قبل توقيع المعاهدة وبناءً عليه لا يُطالب برد الأسير.

– يأمر صاحبا الجلالة بألا يُسلب من الملك أبى عبد الله أو من القادة والقضاة والفرسان المسلمين دوابهم أو خدمهم لاستعمالها ، إلا إذا كان ذلك عن رضًا منهم ، ومقابل دفع أجر عادل.

– لا يُسمح للمسيحيين بدخول مساجد المسلمين التى يصلون فيها دون إذن الفقهاء ، ويُعاقب من يفعل ذلك.

– لا يسمح أصحاب الجلالة أن تكون لليهود سلطة على المسلمين، ولا أن يحّصلوا منهم الضرائب.

– أن يُعامل الملك أبو عبدالله والقادة والقضاة والفقهاء والعلماء والفرسان وعامة المسلمين من أبناء غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وقراها باحترام من قبل صاحبى الجلالة ووزرائهما، وأن يُستمع إليهم باهتمام، وأن يحتفظوا بعاداتهم وشعائرهم، وأن يُسمح للفقهاء والقادة بتحصيل حقوقهم والتمتع بامتيازاتهم كما جرت عليه العادة، فمن العدل أن تُحفظ حقوقهم.

– أن يأمر صاحب الجلالة بألا يُطرد ضيوف المسلمين، وألا تُؤخذ منهم ثياب أو طيور أوماشية أو متاع دون إرادتهم.

– النزاعات التى تنشأ بين المسلمين يُفصل فيها ، حسب قوانينهم وشريعتهم التى يسمونها سُنة، ويفصل فيها قضاتهم كما جرت العادة. وإذا كان النزاع بين مسيحى ومسلم فيفصل فيه قاضيان أحدهما مسيحى والآخر مسلم حتى لا يعترض أحد الطرفين على الحكم.

– لا يُعاقب القاضى مسلمًا على فعل ارتكبه شخص آخر، ولا يُسجن الأب بذنب ارتكبه الابن، ولا الأخ بذنب ارتكبه أخوه ، ولا يُسجن شخص بسبب فعل ارتكبه قريب له، بل يُعاقب الشخص الذى ارتكب الجُرم.

– يُصدر صاحبا الجلالة عفوًا عامًا عن كل المسلمين الموجودين فى سجن حامد أبى على– وهو من رعاياهما – وكذلك عن مسلمي كبتيل عن جرائم القتل التى ارتكبوها ضد المسيحيين، أو عن عصيان أوامر صاحبى الجلالة، فلن يلحق بهم أذى ولن يطالبوا بشىء مما سلبوه أو سرقوه.

– إذا كان هناك أسير مسلم فى حوزة مسيحى وهرب إلى مدينة غرناطة أو إلى الأراضى التى تشملها هذه الاتفاقية يصير حُرًا، ولا يُطالب به من كان يملكه، ولا يطلب القضاة إلقاء القبض عليه، إلا إذا كان هذا المسلم من جزر الكنارى أو من زنوج خيلوفى أو من الجزر الأخرى.

– لا يدفع المسلمون إلى صاحبى الجلالة ضرائب تزيد عما كانوا يدفعونه إلى الملوك المسلمين.

– يحق لسكان غرناطة وما يتبعها والبيازين ، ممن عبروا إلى بلاد البربر، العودة فى خلال الأعوام الثلاثة التالية والتمتع بمضمون هذه الاتفاقية. وإذا كان هؤلاء المسلمون قد اصطحبوا معهم مسيحيين أسرى وباعوهم هناك فلا يُطالبوا بإحضارهم، ولا برد الثمن الذى باعوهم به.

– إذا أراد الملك أبو عبد الله أو أى مسلم آخر أن يعود إلى إسبانيا بعد أن كان قد عبر إلى بلاد البربر ولم تُعجبه الحياة هناك فسيسمح صاحبا الجلالة لهم بذلك لمدة ثلاثة أعوام والتمتع بمضمون هذه الاتفاقية كالآخرين.

– إذا أراد المسلمون الذين دخلوا فى هذه الاتفاقية السفر إلى بلاد البربر بغرض التجارة فستصدر لصالحهم التصاريح الخاصة. ينطبق ذلك على سكان قشتالة وأندلوثيا دون أن يُطالبوا بدفع مبالغ أو ضرائب أخرى كان المسيحيون يدفعونها.

– لا يُسمح لأى شخص بإيذاء المسيحيين أو المسيحيات ممن أعلنوا إسلامهم قبل توقيع الاتفاقية، سواء كان الإيذاء باللفظ أو بالفعل. وإذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية أسلمت فلا تُجبر على العودة إلى المسيحية بدون رغبتها، بل تُستجوب فى حضور مسلمين ومسيحيين وتُنفذ رغبتها ، وسيُفعل ذلك أيضًا مع الأطفال الذين وُلدوا لأب مسلم وأم مسيحية.

– لا يُرغم مسلم ولا مسلمة على اعتناق المسيحية ، وإذا أرادت آنسة أو زوجة أو أرملة – لأسباب عاطفية – اعتناق المسيحية فلا يُقبل منها ذلك إلا بعد استجوابها ، وإذا كانت قد حملت معها ملابس أو مجوهرات من منزل والديها تُعاد الأشياء إلى أصحابها وتُعاقب المذنبة.

– لن يطلب صاحبا الجلالة ولا خلفاؤهما قط من الملك أبى عبدالله ولا من أهل غرناطة والأراضى التابعة لها ممن دخلوا فى هذه المعاهدة أن يردوا ما استولوا عليه أثناء الحرب من جياد أو ماشية أو أمتعة أو ذهب أو فضة ، سواء استولوا عليها من المسيحيين ، أو من مسلمى الممالك المسيحية. وإذا تعرف شخص ما على شىء كان قد أُخذ منه فليس له حق المطالبة به، بل يُعاقب إذا طالب به.

– إذا كان أحد المسلمين قد قتل أو جرح مسيحيًا أو مسيحية من أسراه فلن يُطالب بدمه أبدًا.

– بعد انقضاء فترة السماح ومدتها ثلاث سنوات لن يدفع المسلمون عن أملاكهم إلا ما يجب أن يدفعوه بالعدل طبقًا لقيمة وصفة هذه الأراضى.

– القضاة والقادة والحكام الذين سيعينهم صاحبا الجلالة فى غرناطة وأراضيها سيكونون من الشخصيات التى تحترم المسلمين وتعاملهم بلطف وتراعى بنود هذه المعاهدة ، وإذا ارتكب واحد منهم فعلاً غير مناسب فسيقوم صاحب الجلالة بتغييره ومعاقبته.

- لن يسأل صاحبا الجلالة ولا خلفاؤهما الملك أبى عبد الله أو أى شخص يدخل فى هذه المعاهدة، عن أى شىء يكونوا قد فعلوه حتى يوم تسليم المدينة والحصون.

- لن يُولى على أهل غرناطة أحد فرسان أو أتباع الملك الزغل .

- صاحبا الجلالة - تفضلاً منهما على الملك أبى عبدالله، وأهل غرناطة والبيازين وأرباضهما - سيأمران بالإفراج عن كل الأسرى المسلمين -- رجالاً ونساءً - دون دفع أية فدية ممن هم فى حوزة النصارى ، ويكون الإفراج عمن يتواجدون فى أندلوثيا فى ظرف خمسة أشهر، ويكون الإفراج عن الأسرى الموجودين فى قشتالة فى ظرف ثمانية أشهر. وبعد يومين من إفراج المسلمين عن الأسرى النصارى الموجودين فى غرناطة سيأمر صاحبا الجلالة بتسليم مائتى أسير وأسيرة من المسلمين. وبالإضافة إلى ذلك فإن صاحبا الجلالة سيفرجان عن ابن الدرعمى الموجود فى حوزة غونثالو ايرنانديث دى كوردوبا، وعن هثمين الموجود فى حوزة كونت تنديا وعن رضوان الموجود فى حوزة كونت كابرا، وعن ابن المؤذن، وعن نجل الفقيه خادمى ، وكلهم من أعيان قرطبة ، كما سيفرجان عن الجنود الخمسة الذين أسروا فى طريق إبراهيم بن سراج إذا عُلم مكانهم.

- يقوم جميع مسلمى البشرات الذين يدخلون فى خدمة صاحبى الجلالة بتسليم الأسرى المسيحيين الموجودين فى حوزتهم دون مقابل وذلك خلال خمسة عشر يومًا ، وإذا كان أحد الأسرى قد اتفق على مقايضته بأسير مسلم فسيأمر صاحبا الجلالة برد الأسير المسلم.

- يأمر صاحبا الجلالة باحترام عادات المسلمين الخاصة بالميراث ، ويتولى قضاتهم الفصل فى مسائل الميراث.

- كل المسلمين الآخرين الذين يرغبون فى خدمة صاحبى الجلالة يستطيعون الدخول فى خدمتهما والتمتع بمزايا هذه المعاهدة - عدا فترة السماح والتى مدتها ثلاث سنوات - وذلك خلال ثلاثين يومًا.

- أوقاف المساجد والصدقات والنفقات الأخرى التى تؤدى إلى الكتاتيب ومدارس تعليم الأطفال تُسلم إلى الفقهاء لكى يتولوا توزيعها كما يرون ، ولن يتدخل صاحبا الجلالة ولا وزراؤهما فى ذلك أو فى جزئية من ذلك ، ولن يأمرا بالاستيلاء عليها فى أى وقت وإلى الأبد .

– يؤمّن صاحبا الجلالة سفن بلاد البربر التى ربما توجد فى موانى مملكة غرناطة بحيث تُبحر بحرية ، بشرط ألا تحمل معها مسيحيًا أسيرًا. ويضمن صاحبا الجلالة ألا يتعرض أحد للسفن بأذى، ولا أن يُسلب منها شىء . أما إذا كانت السفن مبحرة أو تحمل معها أسرى مسيحيين فلا يسرى هذا الضمان ، ولذلك يجب تفتيش السفن عند رحيلها.

– لا يُجبر المسلمون على القيام بأعمال حربية ضد رغبتهم ، وإذا أراد صاحبا الجلالة استخدام بعض الفرسان فى نواحى أندلوثيا فسيدفعان لهم أجرهم، منذ يوم الاستدعاء، وحتى عودتهم إلى منازلهم.

– يأمر صاحبا الجلالة باحترام قوانين مصادر المياه والسواقى المعمول بها فى غرناطة ولا يغيران هذه القوانين، ولا يأخذان شيئًا من هذه المصادر ، وإذا فعل أحد ذلك أو ألقى شيئًا بداخلها يُعاقب على فعله.

– إذا هرب أسير مسلم إلى مدينة غرناطة وتوابعها بعد أن ترك مسلمًا آخر مكانه كفدية يصبح حرًا، ولا يُلزم الأول أو الثانى بدفع فدية ولا يتعرضان للمحاكمة.

– الديون والالتزامات المحررة بين المسلمين تدفع نقدًا ، ولا تتأثر هذه الديون والالتزامات بتغير صاحب السلطة، بل يدفع كل شخص ما عليه.

– تكون محال جزارة المسيحيين بعيدة عن محال جزارة المسلمين ولا تختلط مراعى المسلمين بمراعى النصارى، وإذا فعل أحد ذلك يعاقب على فعله.

– يتمتع يهود غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات بمزايا بنود هذه المعاهدة بحيث أن منْ لم يتحول منهم إلى المسيحية يمكنهم الرحيل إلى بلاد البربر فى ظرف ثلاث سنوات اعتبارًا من ٨ ديسمبر الحالى.

– يلتزم صاحبا الجلالة بتنفيذ كل بنود هذه المعاهدة اعتبارًا من يوم تسليم حصون غرناطة ، وقد أمرا بكتابة المراسيم الملكية الخاصة بذلك والموقعة باسميهما والمختومة بخاتميهما ، وقد حررها سكرتيرهما الخاص إيرناندو دى ثافرا فى غوطة غرناطة بتاريخ ٢٨ نوفمبر عام ١٤٩١ .

موريسكيو غرناطة

بعد غزو غرناطة (١٤٩٢) عين الملكان الكاثوليكيان إيرنانـدو دى تالابيرا أسقفًا لها ، وقد بدأ هو على الفور عملية تبشير بطيئة طابعها اللطف ، وكانت هذه العملية تحقق بعض النجاح رويدًا رويدًا ، ووصل الكاردينال ثيسنيروس إلى غرناطة عام ١٤٩٩، ورأى أن الطريقة التى كان الأسقف يتبعها غير كافية، فبدأ فى سلسلة من عمليات التنصير الجماعى الإجبارية التى أدت إلى أن ينظر المسلمون إليها كانتهاك للمعاهدة، خاصة وأن الكاردينال قام بأفعال أخرى ؛ منها حرق المكتبات العربية، وكان ذلك هو سبب ثورة البيازين التى سرت روحها فى مناطق أخرى فى مملكة غرناطة ولم يمكن إخمادها قبل مضى عامين (١٥٠١) ، فى نفس العام قرر الملكان تنصير مسلمى غرناطة. كل ذلك أسهم فى كراهية المسلمين لدين الغزاة ، يقول بيرموديث دى بيدراثا:

" إن جشع القضاة ووقاحة رجال الملك قد أديا إلى سخط الموريسكيين. كان القضاة ورجال الملك يرتكبون كثيراً من الظلم بحجة تنفيذ الأوامر. ولم يكن رجال الكنيسة أفضل حالاً ، وهكذا فقد الموريسكيون حبهم لديننا، وفقدوا صبرهم على معالجة ذلك."

ويقول نفس المؤلف [(١)] : " إن التنصير كان محض خيال":

كان الملكان – بصفتهما مسيحيين كاثوليكيين – يسعيان إلى الحصول على منافع روحية لرعاياهما أكثر من حرصهما على مصلحتهما الشخصية الزائلة ، كانا يودان لو أن الموريسكيين تمسكوا بالدين المسيحى ؛ ولهذا اختصاهم بالأفضال والمعاملة الحسنة وأوصيا رجال القضاء بهم خيرا ، لكن كل ذلك كان زرعا فى الرمال ، بل فى الصخور. لقد اعترف بأن هذه الأعمال كانت عديمة الفائدة ، فقد كان الموريسكيون مسيحيين فى

(١) *F. Bermúdez: Historia eclesióstica, principios y progresos de la ciudad y religión católica) de Granada, 1638. fol. 236*

الظاهر؛ ومسلمين فى الحقيقة ، وكانوا يهتمون بممارسة شعائر وأعياد طائفتهم أكثر من اهتمامهم بدين المسيح ربنا ، رغم أنهم كانوا يلقون من الملكين معاملة أفضل من تلك التى كانوا يلقونها من ملوكهم. لقد تخففوا من الأعباء والضرائب وأساءوا فهم مغزى المعاملة الحسنة فاشتاقوا إلى سابق عهدهم ، إلى أغنامهم وإلى صلاتهم ورقصهم . لم يكونوا مسلمين علانية ، بل كانوا ملحدين مستترين ، ينقصهم الإيمان رغم تعميدهم المتكرر، وكانوا يقومون ببعض الأعمال الحميدة من الناحية الأخلاقية. كانوا صادقين فى التجارة والتعاقدات ، وكانوا يعطفون على الفقراء، ولا يحبون الدعة، بل كانوا يعملون جميعاً، لكنهم كانوا لا يواظبون على صلوات أيام الأحد، ولا يوقرون أعياد الكنيسة ، وكانوا يحضرون الصلاة خوفا من العقوبة، وكانوا يعملون فى أيام الأعياد وأبوابهم مغلقة، كانوا يعملون برضا يفوق رضاهم فى الأيام العادية ، وكانوا يوقرون يوم الجمعة أكثر مما يوقرون يوم الأحد، وكانوا يغتسلون حتى لو فى شهر ديسمبر ويؤدون الصلاة. كانوا يعمدون أبناءهم تنفيذا للقانون ، وعندما كانوا يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون العلامات المقدسة بالماء الساخن ، وكانوا يقيمون شعائرهم الإسلامية، ويطلقون على أبنائهم أسماء إسلامية ، وكانت عرائسهم يذهبن إلى الكنيسة لكى يباركن وهن يرتدين أزياء مسيحية مستعارة ، وعندما يعدن إلى منازلهن كن يخلعنها ويرتدين ملابس إسلامية ويحتفلن بالزفاف بآلات موسيقية وأغنيات موريسكية، وكن يتعلمن الصلوات المسيحية الخاصة بالزواج لأن القساوسة كانوا يمتحنوهن ، وبعد الزواج كن ينسينها ، وكانوا يعترفون بخطاياهم لكن اعترافاتهم كانت مقتضبة ، وكانوا يعترفون اليوم بما اعترفوا به بالأمس. كان أحد الموريسكيين على فراش الموت فذهب إليه القسيس وأخذ منه القربان ، ولما رأى القسيس أن الموريسكى لم يكن قد تقبل الزيت المقدس بعد ذهب لإحضاره من الكنيسة، كان الموريسكى حزينا إزاء كل ذلك فقال: "إذن فهى ثلاثة أنواع من التعذيب فى يوم واحد: الاعتراف والقربان والزيت المقدس". وفى قرى البشرات والساحل كانوا يلقون القبض على الأتراك ومسلمى البربر الذين كانوا يسرقون الأطفال ليلا. وكان الموريسكيون -كلصوص منازل- يقومون بهذه السرقات بشكل أفضل. وبعد ذلك كانوا يرحلون إلى بلاد البربر ليلا ومعهم الأطفال المسيحيين. كانوا يعلمونهم دينهم، وكانوا يجرون لهم عمليات الختان ويجعلونهم مسلمين ، وهو أمر يعود بالضرر على المملكة ، أما بالنسبة لهم فهو عظيم الفائدة.

القصيدة التى أرسلها مسلمو الأندلس
إلى السلطان العثمانى طلبا لنجدته

يقول المؤرخ العربى المقرى (المولود فى أواخر القرن السادس عشر) إن هذه القصيدة لموريسكى مجهول، وإنها أرسلت إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢) طلبا لنجدته.

تبين القصيدة مدى الصعوبات الدينية والسياسية التى كان يعيش فيها الموريسكيون. وتشير القصيدة إلى سلسلة من الأحداث التاريخية؛ ومن بينها حرق الكتب العربية فى غرناطة على يد الكاردينال ثيسنيروس عام ١٤٩٩ ، والسفارة التى أرسلتها مصر إلى الملكين الكاثوليكيين والتى هددت فيها بالانتقام من المسيحيين إذا أجبر الملكان المسلمين الإسبان على الدخول فى النصرانية [١] ، كما تشير القصيدة كذلك إلى مذبحة المسلمين فى أويخار [٢] .

هذه الإشارات هى التى مكنت مونرو - فى مقال ترجم فيه القصيدة إلى الإنجليزية[٣] وتناولها بالدراسة - من تحديد عام ١٥٠١ كتاريخ لتأليفها[٤] ، وهو عام صدور قرار تنصير مسلمى غرناطة، ومصدر هذه القصيدة هو كتاب أزهار الرياض للمقرى [٥] :

الحضرة العلية [*]، وصلَ الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهَّد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عُداتها، حضرة مولانا، وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر؛ ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين؛ كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام؛ محى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العربِ والعجم، والترك والدَّيْلم؛ ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه؛ ملك البَرَّين، وسُلطان البحرين؛ حامى الذِّمار، وقامع الكُفَّار؛ مولانا وعُمدتنا، وكهفُنا وغياثنا، مولانا أبويزيد، لازال ملكه موفور الأنصار، مقرونًا بالانتصار، مُخلَّد المآثر والآثار، مشهور المعالى والفَخار؛ ومستأثرا من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنَصر فى هذه الدار. ولا برحت عَزَمَاته العلية مختصة بفضائل الجهاد، مُجَرَّدة على أعداء الدين من بأسها، ما يُرْوِى صدور السُمر والصِّفاح، وألسنة السِّلاح، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد:

سلام كريم دائم متجدّد   أخص به مولاى خيرَ خليفة

سلام على مولاى ذى المجد والعُلا   ومَنْ ألبس الكفارَ ثوبَ المذلَّة

سلام على منْ وسّع الله ملكه   وأيّده بالنصر فى كل وجهة

سلام على مولاى من دار ملكه   قُسنطينة أكرمْ بها من مدينة

سلام على منْ زيّن الله ملكه   بجند وأتراك من أهل الرعاية

سلامُ عليكمْ شَرَّف الله قدركُمْ   وزادكُمُ ملكًا على كل ملَّة

سلام على القاضى ومَنْ كان مثلَه   من العلماء الأكرمينَ الأجلة

سلام على أهل الديانة والتقَى   ومنْ كان ذا رأى من أهل المشورة

سلام عليكم من عَبيد تخلَّفوا   بأندلس بالغَرْبَ فى أرض غُربة

أحاط بهم بحر من الروم زاخرُ   وبحر عميقُ ذو ظلام ولُجَّة

سلام عليكم من عَبيد أصابهم   مُصاب عظيم يالَها من مُصيبة

سلام عليكم من شُيوخ تمزقت   شُيُوبهم بالنتّف من بعد عزّة

سلام عليكم من وجوه تكشّفت   على جملة الأعلاج من بعد ستَّرة

سلام عليكم من بنات عواتق   يسوقهم اللباط قهراً لخلوة

سلام عليكم من عجائز أكرهت   على أكل خنزير ولحم لجيفة

نقبِّل نحن الكل أرض بساطكم   وندعو لكم بالخير في كل ساعة

أدام الإله ملككم وحياتكم   وعافاكم من كل سُوء ومحْنة

وأيدكُمْ بالنصر والظَّفْر بالعدا   وأسكنكم دار الرضا والكَرامة

شكونا لكم مولاىَ ما قد أصابنا   من الضُّر والبَلْوى وعظم الرّزية

غدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا   ظُلمنا وعُوملنا بكل قَبيحة

وكُنا على دين النبى محمد   نقاتل عُمَّال الصليب بنية

ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمةً   بقتلٍ وأسْرٍ ثم جُوع وقِلّة

فجاءت علينا الروم من كل جانبٍ بسيلٍ عظيمٍ جملةً بعد جُملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجدٍ وعزمٍ من خيول وعُدة

فكنا بطول الدهر نَلْقى جموعهم فنقتَلُ فيها فرقةً بعد فرقةَ

وفُرسانُهم تزداد فى كل ساعة وفُرساننا فى حال نقص وقلة

فلما ضَعُفنا خَيَّموا فى بلادنا ومالوا علينا بَلدةً بعدَ بلدةً

وجاءوا بأنفاط عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها فى الحصار بقوة شهوراً وأيامًا بِجد وعَزْمَة

فلما تفانت خيلُنا ورجالنا ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقَلَّت لنا الأقوات واشتدّ حالنا أطعناهُمُ بالكَرْه خوف الفضيحة

وخوفًا على أبنائنا وبَناتنا مِن أن يؤسرُوا أو يقتلوا شر قِتلة

على أن نكون مثلَ من كان قَبْلنا مَن الدَّجن من أهل البلاد القديمة

ونُبقى على آذاننا وصلاتنا ولا نتركَنْ شيئًا من أمر الشريعة

ومنْ شاء منا البحر جاز مُؤمَّنًا بما شاء من مال إلَى أرض عُدْوة

إلى غير ذاكَ من شروط كثيرة تزيد على الخمسين شرطًا بخمسة

فقال لنا سُلطانهم وكبيرُهم لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة

وأبدى لنا كُتْبًا بعهد وموثق وقال لنا هذا أمانى وذمَّتى

فكونوا على أموالكُمْ وديِاركم كما كُنتمُ من قبلُ دوُن أذية

فلما دخلنا تحت عَقْد ذمامهم بدا غَدْرُهُمُ فينا بنقض العزيمة

وخان عهودًا كان قد غَرَّنا بها ونَصَّرنا كَرْهًا بُعنف وسَطْوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلَّطها بالزَّبل أو بالنجَّاسة

وكل كتاب كان فى أمر ديننا ففى النار ألقوه بهُزْء وحَقْرة

ولم يتركوا فيها كتابًا لمسلمٍ ولا مُصحفًا يخلى بهِ للقراءة

ومنْ صام أو صلى ويُعلم حالُه   فـفي النار يُلقُوه على كل حالة

ومَنْ لم يجئْ منَّا لموضع كُفرهم   يعاقَبه اللباط شَرَّ العقوبة

ويَلطم خَديه ويأخذ ماله   ويجعله في السجن في سُوء حالة

وفي رمضان يُفسدون صيامنا   بأكل وشُرب مرة بعد مرة

وقد أمروا أن نَسُبَّ نبينا   ولا نذكرنْه في رَخاء وشدة

وقد سمُعوا قومًا يُغنون باسمه   فأدركهم منهم أليم المَضَرة

وعاقبهم حُكامُهمْ ووُلاتُهم   بضرب وتغريمٍ وسَجنٍ وذلة

ومن جاءه الموتُ ولم يُحضر الذى   يُذكرهُمْ لم يدفنوه بحيلَة

ويُترك في زبلٍ طريحًا مُجَدلاً   كمثل حمار ميت أو بَهيمة

إلى غير هذا من أمور كثيرة   قباحٍ وأفعال غزار رَديّة

وقد بُدلت أسماؤنا وتحولت   بغير رضا منا وغَير إرادة

فآهًا على تبديل دين محمد   بدين كلاب الروم شَرِّ البرية

وآهًا على أسمائنا حين بُدلت   بأسماء أعلاج من أهل الغباوة

وآهًا على أبنائنا وبَنَاتنا   يَروحون للباط في كل غُدوة

يُعلمهم كفرًا وزورًا وفريةً   ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة

وآهًا على تلك المساجد سورت   مَزابلَ للكفار بعد الطهارة

وآهًا على تلك الصوامع عُلقت   نواقيسُهُمْ فيها نظير الشهادة

وآهًا على تلك البلاد وحُسنها   لقد أظلمت بالكفر أعظم ظُلمة

وصارت لعُبَّاد الصليب مَعاقلا   وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة

وصرنا عبيدًا لا أُسارى فنُفتَدَى   ولا مسلمين نطقُهُمْ بالشهادة

فلو أبصرت عيناك ما صارَ حالنا   إليه لجادت بالدموع الغزيرة

فيا ويلَنا ، يا بؤسَ ما قد أصابنا   من الضُّر والبلوى وثوب المَذَلة

سَألناك يا مولايَ بالله ربنًا وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد وأصحابه أكرمْ بهم من صَحَابة
وبالسيد العبَّاس عَم نبينا وشيبته البيضاء أفضل شيْبة
وبالصالحين العارفينَ بربهمْ وكلّ ولى فاضل ذى كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إلهَ العرش يأتى برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ وما قلت من شئٍ يكون بسرعة
ودين النصارى أصلُه تحت حكمكم ومن ثَمَّ يأتيهم إلى كل كُورة
فبالله يا مولاى مُنوا بفضلكم علينا برأى أو كلام بحُجَّة
فأنتم أولو الإفضال والمجد والعلا وغوثُ عباد الله فى كل آفة
فسلْ بابَهُمْ أعنى المقيم برومة بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة ؟
وما لهُمْ مالوا علينا بغدرهمً بغير أذى منا وغير جريمة
وجنسهمُ المغلوبُ فى حفظ ديننا وأمن ملوك ذى وفاء أجلة
ولم يُخرَجوا من دينهم وديارهم ولا نالهم غَدْر ولا هَتكُ حُرمَة
ومنْ يُعط عهدًا ثم يَغدر بعهده فذاك حرامُ الفعل فى كُل ملة
ولا سيما عندَ الملوك فإنه قبيح شنيع لا يَجوز بوجهة
وقد بَلَغَ المكتوب منكمْ إليهم فلم يَعملوا منه جميعًا بكلمة
وما زادهم إلا اعتداءً وجُرأةً علينا وإقدامًا بكل مَساءة
وقد بَلَغَتْ أرسال مصرَ إليهم وما نالهم غدر ولا هتك حُرمة
وقالوا لتلك الرُسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قَهْرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كَذَبوا فى قولهم وكلامهم علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحَرْق رَدنا نقول كما قالوه من غير نية

ودين رسول الله ما زال عندنا ... وتوحيدنا لله فى كل لحظة

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ... ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة

وإن زعموا أنّا رضينا بدينهم ... بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسلْ وَجَرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أُسارى وقتلى تحت ذل ومَهنة

وسَلْ بلفيقا عن قضية أمرها ... لقد مُزِّقوا بالسيف من بعد حَسرة

ومنيافة بالسيف مزق أهلها ... كذا فعلوا أيضًا بأهل البُشُرَّة

وأندَرَش بالنار أحرق أهلها ... بجامعهم صاروا جميعًا كفحمة

فها نحن يا مولاى نشكو إليكم ... فهذا الذى نلناه من شر فُرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا ... كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيُجلونا جميعًا من أرضهم ... بأموالنا للغرب دار الأحبة

فإجلاؤنا خير لنا من مُقامنا ... على الكفر فى عز على غير ملة

فهذا الذى ترجوه من عزّ جاهكم ... ومن عندكم تُقضى لنا كل حاجة

ومن عندكم نرجو زوال كُروبنا ... وما نالنا من سوء حال وذلة

فأنتم بحمد الله خير مُلوكنا ... وعزتُكُم تعلو على كل عزة

فنسأل مولانا دوامَ حياتكم ... بملك وعز فى سرور ونَعْمة

وتهدين أوطان ونصر على العدا ... وكثرة أجناد ومال وثروة

وثُمَّ سلام الله تتلوه رحمة ... عليكمُ مدى الأيَّام فى كل ساعة

الهوامش

(*) النص الإسبانى لا يتضمن سوى القصيدة ، لكننا رأينا من المناسب أن نورد المقدمة كما جاءت فى كتاب "أزهار الرياض فى أخبار عياض" للمقرى (القاهرة ١٩٣٩) ، ص ١٠٨ - ١١٥ (المترجم) .

(١) يقول مارمول إن زيارة وفد المماليك تمت عام ١٥٠٠ (أنظر: *Rebelión y castigo...., p. 156*)

(٢) انظر : *Boronat : Los moriscos espanoles....,t. I,p. III.* يحدد تاريخ الزيارة بعام ١٠٥١

(٣) *Monroe " : A corious morisco appeal to the Ottoman Empire", en Al Andalus, 1966.*

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٣

(٥) انظر طبعة القاهرة عام ١٩٣٩ المجلد الأول ص ١٠٨ - ١١٥ . انظر أيضا

Soulah: Une elegie andalouse sur la Guerre de Grenade, Argel, 1914, p. 143.

حول هذا النوع من الرسائل انظر دراسة عبد الجليل التميمى " *Une lettre des Morisques de Grenade au Sultan Suleiman Al Kanuni en 1541* " . انظر كذلك رسالة مشابهة عام ١٥٦٨ وردت فى

Cartulario de Alonso del Castillo, M HE, 1852, p. 41

Lea : The moriscos of Spain....,pp.434 y sigs.

رسالة من فقهاء المغرب إلى إخوانهم من العرب المتنصرين

فى غرة رجب ٩١٠ هـ ـ ٢٨ (نوفمبر سنة ١٥٠٤م)

تتضمن الفتوى التالية مجموعة من القواعد تسهل للموريسكيين الاحتفاظ بدينهم الإسلامى، و الرسالة محتواها مزدوج : فهى تشير إلى مبادئ الإسلام الأساسية الخاصة بضرورة ممارسة الشعائر حتى فى بيئة غير إسلامية ، ثم هى تعرض التطبيق العملى لهذه المبادئ : ماذا يفعل المسلم إذا أجبر على التخلى عن عقيدته، والدخول فى دين آخر؟ كل ذلك تتضمنه "التقية" التى شرعت فى عصور الإسلام الأولى حين كان المسلمون فى حاجة إلى إخفاء أمر دينهم ، ويستطيع المسلم طبقا لذلك أن يتظاهر بالكفر مؤقتا حتى يتجنب مشاكل كبيرة (١) .

يسمح الإسلام إذن لأتباعه بعدم الوفاء بالتزاماتهم الدينية فى حالة الاضطرار، إنه دين لا يريد لأتباعه أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، بل يشترط فقط إخلاص القلب، على هذا الأساس كان يمكن للموريسكى ممارسة الشعائر المسيحية وهو مستريح الضمير، على اعتبار أن طقوس الكنيسة الكاثوليكية مجرد واجبات اجتماعية . إن التقية تشكل ركنا أساسيا فى حياة الموريسكى . وقد فطن أعضاء محكمة التفتيش إلى هذه الحقيقة تماما (٢) .

إجابة مفتي وهران(*) على أسئلة وردت إليه من الأندلس فى ٣ مايوعام ١٥٦٣ (**):

" الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ، ممن أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا

(*) نقلت المؤلفة هذه الوثيقة عن كتاب بدرو لونغاس "حياة الموريسكيين الدينية" ، ولما رأينا أن ترجمة لونغاس مختصرة فضلنا أن نورد النص الكامل لهذه الوثيقة الهامة ، نقلاً عن محمد عبد الله عنان : "دولة الإسلام فى الأندلس" : الجزء السابع ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ٢٠٠١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤ (المترجم) .

(**) يذكر محمد عبد الله عنان أن تاريخ الفتوى هو عام ١٥٠٤ ، أما كتاب لونغاس - الذى نقلت عنه المؤلفة - فيذكر أن تاريخ الفتوى هو عام ١٥٦٣ . هناك احتمال وجود أكثر من فتوى (رغم التشابه الواضح) ، وهناك احتمال أن يكون لونغاس قد أخطأ عند ذكر التاريخ (المترجم) .

فى ذاته، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح فى تحمل المشاق، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه، بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا، ومن كل ضيق مخرجا" .

" بعد السلام عليكم، من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده، وأحوجهم إلى عفوه ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى.

كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكدًا عليكم فى ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم. إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله ما اتخذ من ولد، وما كان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أورياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم، والغُسل من الجنابة، ولو عومًا فى البحور. وإن مُنعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط فى الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدى للحيطان، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله عليه السلام: فأتوا منه ما استطعتم" .

" وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا إلى ما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيرًا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم، وإن زوجوكم بناتهم،

فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وإنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه" .

" وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم ، وتتصدقون بالباقى، إن تبتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر، فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَد، فاشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان، أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه. وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق، وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله، فقولوها إكراها ، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به، وإن قالوا قولوا مريم زوجة له، فانووا بالضمير ابن عمها الذى تزوجها فى بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء. قاله السهيلى فى تفسير المُبهم من الرجال فى القرآن. أو زوجها الله منه بقضائه وقدره. وإن قالوا عيسى قد توفى بالصلب، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره، وإظهار الثناء عليه بين الناس، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو، وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به، وأنا أسأل الله أن يُديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله، من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ، ولابد من جوابكم. والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة عرف الله خيره" .

" يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى"

الهوامش

(١) Cahen : El Islam. Desde los origines hasta el comienzo del Imperio Otomano, Madrid, 1970, p. 201.

(٢) Vid. Articulo Taquiyya en L, encyclopedie de I,Islam, y Cardaillac,pp. 175 y sigs. De La polemique antichretienne ...

مذكرة السيد فرانثيسكو نونييث مولاى

فى عام ١٥٦٧ أذيعت فى غرناطة سلسلة بنود وأوامر أهمها ما يلى :

- حظر اللباس الموريسكى على الرجال والنساء والزام النساء - بالإضافة إلى ذلك - بكشف الوجه.

- فى الزفاف وفى كل أنواع الاحتفالات تمنع رقصة السمرة وإقامة الليالى بمصاحبة الآلات والأغنيات الموريسكية " حتى لو كانت لا تتضمن شيئًا مريبًا أو مخالفًا للديانة المسيحية" .

- يجب أن تظل أبواب البيوت مفتوحة وتمنع النساء من التخضيب بالحناء ويحظر استعمال الأسماء والألقاب الإسلامية.

- حظر استعمال الحمامات.

- يحظر على الموريسكيين أن يكون لهم عبيد من المقاتلين الغرباء ، وعلى الأحرار من هؤلاء المقاتلين مغادرة غرناطة فى غضون ستة أشهر.

- يحظر على الموريسكيين كذلك أن يكون لهم عبيد من السود [١] .

كما نرى، لم تكن تلك الإجراءات مجرد وسائل قمع دينى أو سياسى، بل كانت تهدف إلى إلغاء وجود الموريسكيين كجماعة مختلفة ثقافيًا ، وكان المطروح هو ما يسميه براوديل " صراع الحضارات" .

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يحظر فيها على الموريسكيين لغتهم وملابسهم... إلخ ، لكن الموريسكيين كانوا يتمكنون - من خلال ثرواتهم - من تأجيل اللحظة التى توضع فيها هذه الإجراءات موضع التنفيذ.

وفى عـام ١٥٧٦ ، حين لم يكن هناك مـجـال للتـأجـيل ، أرسل أحـد أعـيـان الموريسكيين – وهو فرانثيسكو نونييث مولاى – إلى محكمة غرناطة مذكـرة ننقل نصـهـا (٢) (*) . يضع نونييث فى اعتباره أهمية القضية فيحاول تصوير هذه الخصائص على أنها مجرد عادات محلية ويسعى إلى أن يُقبل اللباس الموريسكى كما يُقبل الزى الخاص بقشتالة أو أراغون، وأن تُقبل اللغة العربية كما تُقبل اللغة الغاليثية أو القطالونية.

لم تحقق المذكرة أدنى درجة من النجاح ، وسيكون تنفيذ هذه القرارات هو السبب الرئيسى فى ثورة البشرات :

عندما تحول أبناء هذا الإقليم إلى المسيحية لم يكن هناك أى بند يجبرهم على ترك زيهم أو لغتهم أو العادات الأخرى التى يمارسونها فى حفلاتهم ، وإحقاقًا للحق فإن التنصير كان إجباريًا ومناقضًا للمعاهدة التى وقعها الملكان الكاثوليكيان عندما سلم لهما الملك أبو عبد الله هذه المدينة ، وحينما كانا على قيد الحياة لم أجد – رغم سنى – ثمة محاولة لنقض المعاهدة. بعد ذلك ، خلال حكم ابنتهما خوانا، بدا من المناسب (لا أدرى لمن) أن يصدر الأمر بأن نتخلى عن الزى الموريسكى، وقد تعطل تنفيذ هذا الأمر لبعض الأسباب ، وهذا ما حدث أيضًا تحت حكم الإمبراطور كارلوس، وبعد ذلك حدث أن تجرأ رجل دنئ من وطننا – استغل حُسن أخلاق مخدومه السيد بولانكون عضو هذه المحكمة – فكتب فصولاً ضد القساوسة ولم يتبع رأى أعيان الرجال الذين يرون ضرورة إخفاء هذه الأمور ، فحصل على توقيع بعض أصدقائه على ما كتب وقدم كتابه إلى صاحب الجلالة ، وفى إثر ذلك ترافع السيد باردو راهب سان سالفادور بالبيازين عن القساوسة وأفاد بأن المتنصرين حديثًا مسلمون ويعيشون كمسلمين، وأنه ينبغى إصدار أوامر لكى يتخلوا عن عاداتهم القديمة التى تمنعهم من أن يكونوا مسيحيين، وقد أمر الإمبراطور– كأمير مسيحى – بالقيام بزيارات عبر هذه المملكة للتعرف على أسلوب حياة أبناء غرناطة ، وتمت الزيارة وقام القساوسة أنفسهم بالزيارات ، وكانوا هم الذين شهدوا ضد الموريسكيين........ من هنا جاء الاجتماع الذى تقررت فيه أمور تحد من امتيازاتنا ، رغم أننا حضرنا ذلك الاجتماع . و منذ سنوات أراد السيد غاسبار دى أبالوس – عندما كان أسقفا لغرناطة – أن يحرمنا من

(*) لم ينقل مارمول النص الكامل للمذكرة التى قدمها نونييث مولاى ، وإنما حذف منها عبارات تتضمن انتقادات حادة للسلطات السياسية وللكنيسة (المترجم) .

زينا فبدأ بأهل القرى وأحال إلى هذه المحكمة بعض أهالى غويخار لنفس السبب . إن رئيس المحكمة الذى كان فى موقعكم الحالى وأعضاء المحكمة وماركيز مونديخار والمراجع ... كل هؤلاء عارضوه لنفس الأسباب ، وتوقفت القضية منذ عام ١٥١٠ وحتى الآن حين عاد نفس القساوسة إلى إثارتها لكى يضايقونا من جهات كثيرة فى وقت واحد. إن من ينظر إلى القرارات الجديدة من الخارج يبدو له أنها سهلة التنفيذ ، لكن صعوبات تنفيذها كبيرة جداً، وسأعرض لكم هذه الصعوبات تفصيلاً حتى تأسوا على هذا الشعب المسكين وترفقوا به وتعاملوه بالحب والرحمة و تزكوه لدى صاحب الجلالة كما فعل ذلك رؤساء هذه المحكمة قبلكم.

إن لباسنا الخاص بالنساء ليس لباس المسلمين، بل هو زى إقليمى مثل زى قشتالة، والزى الخاص يستعمله الناس فى أماكن أخرى فى الزينة والأحذية، ومن الذى ينكر أن زينا مخالف لزى الأتراك والمسلمين ؟ بل إن أزياء المسلمين مختلفة فيما بينها، فزى فاس ليس هو زى تلمسان ولا زى تونس مثل زى المغرب، ونفس الشىء يُقال عن زى تركيا وزى الممالك الأخرى، ولو أن طائفة محمد لها زى خاص لكان زياً واحداً فى جميع البلاد ، لكن الزى ليس هو الذى يصنع الفضيلة. إننا نرى قساوسة ومسيحيين من سوريا ومن مصر يرتدون الزى التركى وتصل قفاطينهم إلى أقدامهم، يتحدثون العربية والتركية، لا يعرفون اللاتينية ولا الإسبانية ورغم كل ذلك فهم مسيحيون.

أذكر – وأعتقد أن كثيراً من معاصرىَّ يذكرون – أن لباس أهل غرناطة قد تغير عما كان معتاداً، فقد بحث الناس عن زى نظيف، قصير، أقل تكلفة. إن هناك من النساء من يتكلف ثوبها دوقية واحدة وتحتفظ بثوب الزفاف والحفلات للمناسبات ويتوارثن هذه الثياب لثلاثة أو أربعة أجيال. إذا كان الأمر كذلك ، فما هى الفائدة التى تعود على أحد إذا حرمنا من ثيابنا التى اشتريناها – فى حقيقة الأمر- بدوقيات كثيرة كانت حصيلة أعمال قمنا بها خدمة للملوك السابقين؟ لماذا يريدون أن يجعلونا نفقد أكثر من ثلاثة ملايين عملة ذهبية أنفقناها فى هذه الثياب وأن يخسر التجار والسماسرة وعمال الفضة وغيرهم ممن يعيشون من جراء صناعة الثياب والأحذية والمجوهرات الموريسكية ؟ إذا كانت مائتا ألف امرأة أو أزيد ممن يعشن فى هذه المملكة سيتعين عليهن شراء ملابس جديدة من الرأس إلى القدم ، كم من النقود

يتكلف ذلك؟ أية خسارة تلك التى تمثلها الثياب والمجوهرات الموريسكية التى سيتخلصن منها! لأن هذه الثياب مصنوعة من قطع قماش صغيرة لا يمكن استعمالها إلا فى صناعة هذه الثياب ؛ ولهذا فهى غالية. ولا أدوات الزينة أيضاً يمكن استخدامها ولا الأحذية. هذه المرأة المسكينة التى لا تجد ما تشترى به ثوبا ولا عباءة وقبعة و حذاء فترتدى سروالاً وتلتحف بملاءة بيضاء، هذه المرأة ماذا تفعل؟ ماذا سترتدى ؟ من أين لها بنقود لشراء ملابس ؟ ثم هذه الإيرادات الملكية التى تستفيد من البضائع الموريسكية والتى ينفق فيها الكثير على الحرير والذهب و المجوهرات ، لماذا تخسر؟. إننا معشر الرجال نلبس على الطريقة القشتالية رغم أن معظمنا يرتدى ملابس فقيرة. لو أن الملابس هى التى تصنع الدين لكان الرجال أحرص عليها من النساء ، فقد ورثوا الدين عن الكبار والعلماء.

سمعت كثيراً من القساوسة أنه ستكون هناك مكافآت وتفضيل لمن يلبسون ثياباً قشتالية وحتى الآن ، من بين كل من ارتدى الثياب القشتالية، لا أرى واحداً فقط أقل تعرضاً للمضايقات ولا موضع تفضيل. إننا جميعاً نُعامل بنفس الطريقة. إذا وجدوا سكيناً مع أحد يودعونه السجن ويفقد أمواله بين الغرامات والرشاوى. تطاردنا المحاكم الكنسية والمحاكم المدنية ، ورغم كل ذلك فنحن رعايا مخلصون دائماً ومطيعون لجلالة الملك ومستعدون لخدمته بأموالنا. لا يستطيع أحد إطلاقاً أن يقول إننا ارتكبنا خيانة منذ اليوم الذى استسلمنا فيه.

عندما قامت الثورة فى البيازين [٣] لم تكن ضد الملك ، بل تأييداً لتوقيعه الذى نكنّ له الاحترام كشىء مقدس. قبل أن يجف مداد الحبر نُقضت بنود المعاهدة، فأُلقى القبض على النساء ذوات الأصل المسيحى لكى يجبروهن على التنصر. تأمل يا سيدى هل قام أهل هذه المملكة بالتمرد؟ لقد قاموا - تأييداً لصاحب الجلالة- بمرافقة كل من ماركيز مونديخار والسيد أنطونيو والسيد بيرناردينو دى مندوثا وأخوته ضد المتمردين إيرناندو دى كوردوبا اونخى ودييغو لوبيث أخار ودييغو لوبيث آثيرا . كنا أربعمائة فارس موريسكى وكنا أول من حمل السلاح فى إسبانيا ضد الجماعات. وقد كان السيد خوان دى غرناطة شقيق الملك أبى عبد الله قائداً للجيش الملكى فى قشتالة. من العدل إذن أن يكرّم هؤلاء الذين أثبتوا ولاءهم وأن تكرموهم سيادتكم كما فعل أسلافكم ممن تولوا رئاسة هذه المحكمة.

إن حفلات الزفاف الخاصة بنا ورقصة السمرة وأفراحنا التى اعتدنا عليها لا تحول بيننا وبين المسيحية، بل إننى لا أدرى كيف يقول أحد إنها حفلات مسلمين ؛ لأن المسلم الصالح لا يتواجد فى هذه الأماكن، وقديما كان الفقهاء يغادرون المكان عندما يبدأ العزف والغناء، بل إن الملك المسلم عندما كان يغادر المدينة ويمر بحى البيازين الذى يسكنه القضاة والفقهاء كان يأمر بوقف العزف حتى يخرج من باب البيرا احتراماً لهم. ليست هناك حفلات رقص فى إفريقيا ولا فى تركيا. إنها عادة محلية ، ولو كانت شعيرة دينية لكان لها نفس الطابع فى كل الأماكن. إن الأسقف الطيب (٤) كان له أصدقاء من الفقهاء ، وكان يستعمل أشخاصا يتقاضون أجراً حتى يشرحوا له عبادات المسلمين ، ولو علم أن حفلات الرقص من شعائر الإسلام لكان قد منعها أو على الأقل لم يمتدحها فقد كان يأمر بأن تعزف موسيقى السمرة..... والاحتفالات الأخرى التى يحضرها كل الناس ، وكانوا يتنافسون أيهم يجيد رقصة السمرة بشكل أفضل. وفى البشرات - حين كان يذهب لزيارة كنيسة - عندما كان يقوم بوعظ ملحن كان يستبدل الأرغون بموسيقى السمرة التى كانت ترافقه فى طريقه إلى الكنيسة. أتذكر أنه أثناء الوعظ عندما كان يدير وجهه إلى الجمهور كان يقول بالعربية - بدلا من اللاتينية - "يبارك فيكم" ، ثم كانت تعزف موسيقى السمرة.

لا تجد كذلك أن تخضب النساء بالحناء شعيرة إسلامية ، بل هى عادة لتنظيف الرأس ، إذ تخرج منها أية قذارة، وهو أمر صحى، وإذا وضع مع الحناء شىء فذلك لصبغ الشعر، وأداء عمل يرونه جميلاً ، وهذا ليس ضد العقيدة ، بل هو شىء مفيد للجسم ويعالج الأمراض، وقد أراد السيد أنطونيو دى غيبارا قسيس غواديكس أن يقصر شعر النساء فى ماركيزية ثنيتى وأن يزيل الحناء من أيديهن ، فلما ذهب لتقديم الشكوى إلى رئيس وأعضاء المحكمة وإلى ماركيز مونديخار اجتمعوا لمناقشة الأمر وأرسلوا له شخصاً يخبره بألا يفعل ذلك ، إذ لا علاقة له بالدين.

سيدى، ماذا يُجدى ترك أبواب منازلنا مفتوحة؟ إننا بذلك نسهل للصوص سرقتنا، ونسهل لمن لا حياء لهم التجرؤ على نسائنا ، ونسهل للحُجّاب ترويع الناس الآمنين. إذا أراد شخص أن يكون مسلماً وأن يمارس الوضوء وشعائر المسلمين ، ألا يستطيع فعل ذلك ليلاً ؟ يستطيع بالتأكيد لأن شعائر طائفة محمد تتطلب العزلة.

لا يجدى للدين فتح أو إغلاق الأبواب بالنسبة لمن كانت نيته سيئة ، ومن يفعل ما لا يجب فليعاقب ولا يخفى على الله شيء.

هل يمكن إثبات أن للحمامات علاقة بشعائر الإسلام؟ لا بكل تأكيد، فى الحمامات يجتمع الناس، وفى معظم الحمامات يقوم بالعمل مسيحيون. إن الحمامات تمتلئ بالقاذورات فى حين أن شعائر الإسلام تتطلب النظافة والعزلة ، فكيف يذهب المسلم لتأدية الصلاة فى مكان مريب؟ . إن الحمامات شيدت لتنظيف الجسد ، والقول بأن النساء يجتمعن هناك بالرجال قول لا يمكن تصديقه؛ لأن المكان الذى ترتاده الكثيرات لا يمكن أن تكون به أسرار. إن النساء والرجال لهم وسائل أخرى للاجتماع ، خاصة أن الرجال لا يدخلون إلى الحمامات عندما تكون النساء موجودة. لقد كانت هناك حمامات فى كل الأقاليم ، وإذا كانت حمامات قشتالة قد أزيلت فذلك لأنها كانت تضعف رغبة الرجال فى الحرب. ليس على أهل هذه المملكة أن يحاربوا ولا يتعين على النساء أن تكون لهن قوة بل أن يكنَّ نظيفات، وإذا لم تغتسل النساء فى الحمامات فلن يغتسلن فى الأنهار ولا فى البيوت، أين يمكنهن الاغتسال إذن ؟ ولكى تذهب النساء إلى الحمام كعلاج لأمراضهن فإنهن يتكلفن كثيراً من الجهد والمال والوقت لاستخراج تصريح بذلك.

الأمر بأن تكشف النساء وجوههن ، ما فائدته سوى دعوة الرجال لارتكاب المعصية إذا رأوا الجمال الذى يشتهونه ؟ ولن تجد الدميمات من يتزوج بهن. إن النساء يغطين وجوههن لكى لا يُعرفن ، وهذا ما تفعله المسيحيات. إن هذا الفعل شرف يتجنبن به المشاكل ؛ ولهذا أمر الملك الكاثوليكى بألا يكشف مسيحى وجه موريسكية تمشى فى الشارع وإلا عوقب. إذا كان الأمر كذلك ولا يتعارض مع الدين فلماذا نُغضب أهل غرناطة بسبب كشف أو عدم كشف وجوه زوجاتهم؟

إن الألقاب القديمة التى نحملها إنما هى لكى نعرف بعضنا بعضاً وإلا تاه الناس وضاعت الأنساب، ما فائدة ضياع الأنساب؟ لو فكرنا فى الأمر جيداً فإن المحافظة على الأنساب ترفع من شأن الملكين الكاثوليكيين اللذين تمكنا من الاستيلاء على مملكة غرناطة . هذا بالضبط كان هدف صاحبى الجلالة وهدف الإمبراطور ، ومن أجل هذا يُراعى القيام على شئون قصر الحمراء وقصور أخرى صغيرة بحيث تظل كما كانت

مـوجـودة فى عـهـد الملوك المسلمين. بهـذه الطريقـة تدل هذه القـصـور على سطوة المنتصرين (٥) (*) .

ترحيل المقاتلين الغرباء من هذه المملكة أمر عادل ، فلا فائدة تعود على أحد من اتصالهم بأهل البلاد ، لكن هـذه الأوامر صـدرت سـابقًـا ولم تُنفذ أبدًا، وتنفـيذهـا الآن تترتب عليه مشاكل ؛ لأن معظمهم أصبح الآن من أهل البلاد ، فقد تزوجوا وأصبح لهم أولاد وأحفاد وهؤلاء قد تزوجوا ولذلك فإن طردهم من البلاد سيؤدى إلى تأنيب الضمير.

وليست هـناك مشكلة كذلك فى أن يكون لأهل غرناطة عبيد. ألا يحق لأهـل غرناطة أن يكون لهـم خدم ؟ هل كل الناس مـتسـاوون ؟ القول بأن الشـعب الموريسكى تـعداده يزيد مع وجودهم هو مجرد توهم ؛ لأن صاحب الجلالة لما سأل عن تعداد العبيد السود فى هذه المملكة قيل له إن عددهم عشرون ألف وقد أصبحوا الآن أربعمائة فقط ، وفى الوقت الحـاضـر لا توجـد مـائة تصـريح بامـتـلاك عـبـيـد. هذه المســألة أيضًـا أثارها القساوسة. إنهم هم الذين مكنوا أصحابهم من امتلاكهم وهم الذين استفادوا من وجودهم.

ننتقل إلى اللغة العربية وهـذه تمثل أكبر مشكلة، كيف يمكن أن يُحرم الناس من لغتهم الطبيعية التى وُلدوا وتربوا عليها؟ إن المصريين والسوريين والمالطيين وجمع آخر من المسيحيين يتحدثون ويكتبون ويقرءون بالعربية وهـم مسيحيون مثلنا . ولم يحدث فى هذه المملكة أن كتب عقد أو وصية باللغة العربية منذ تحولنا إلى المسيحية. كلنا يتمنى أن يتـعلم اللغـة القـشـتـاليـة ، لكن هذا ليس فى مـقـدور الناس. كم من الأشـخـاص موجودون فى هذه المدينة وفى قرى خارجها لا يتـحدثون اللغة العربية إلا وكل منهم له لهجة مختلفة عن الآخر بحيث أنك بمجرد أن تسمع شخصًا من البشرات يتحدث تعرف أنه من البـشرات؟ لقد وُلد هؤلاء الناس وتربوا فـى أماكن صـغـيرة ولم يسـمـعوا اللغة الأعجمية أبدًا، وليس هناك من يفـهمـها إلا القسيس والعريف ، وهذان يتـحدثان دائمًا بالعربية، وسيكون من الصعب بل من المستحيل أن يتعلم كبار السن اللغة القشتالية فى

(*) كان الشعراء الإسبـان المتـعـاطفون مع المسلمين فى القرن السادس عشـر يعلِّلون إشـادتهم بالموريسكيين بـأن ذلك يعنـى الإشادة بملوك إسبانيـا الذين انتـصـروا على أمة قوية . انظر : د. جمال عبد الرحمن «صدى سقوط غرناطة الإسلامية فى الأدب الإسبانى» أعمال المؤتمر الدولى الخامس للدراسات الموريسكية ، تونس ١٩٩٣ ، الجزء الثانى ص ١٨٥ - ٢٠٩ (المترجم) .

ما تبقى لهم من عمر ، ناهيك عن فترة السنوات الثلاث، حتى لو لم يفعلوا شيئًا سوى الذهاب إلى المدرسة والعودة منها. من الواضح أن هذا البند وُضع لتعجيزنا : ففى حين لا يوجد من يعلمنا الأعجمية يريدون أن نتعلمها بالقوة، وأن نتخلى عن اللغة التى نجيدها؛ وهكذا يسببون لنا الأحزان والصدمات ، وهكذا عندما يرى أهل البلاد أنهم لا يستطيعون رفع الظلم فسيتركون البلاد خوفًا من العقوبة ويذهبون إلى بلاد أخرى ويتحولون إلى قطاع طرق. إن من أمر بهذا رغبة منه فى خلاص النفوس عليه أن يعى أن ذلك سيؤدى إلى خطر عظيم. ليتأمل الوصية الثانية من الوصايا العشر ، وعندما يحب الآخر لن يحب له ما لا يحب لنفسه . ليتأمل فى أنه لو أمر مسيحيو قشتالة أو أندلوثيا بشىء واحد من الأوامر التى صدرت لنا لماتوا حزنًا، ولا أدرى ماذا كانوا سيفعلون.

لقد كان رؤساء هذه المحكمة دائمًا يحمون هذا الشعب البائس، إذا أهمَّ شعبنا شىء كان يهرع إليهم، وكانوا يعالجونه كأشخاص يمثلون الذات الملكية ويتمنون الخير لرعايا جلالة الملك. هذا بالضبط ما آمله منكم جميعًا.

هل هناك على وجه الأرض من هم أدنى من أهل غينيا السود؟ . لقد سُمح لهم بالتحدث بلغتهم لإرضائهم. سامحنى الله إذا كنت قد قلت ما قلت بنية سيئة ، لأن نيتى حسنة. لقد عبدتُ الله ربنا وأخلصت للتاج الملكى ولأهل هذا الوطن وعملت من أجل خيره؛ هذا الواجب يجرى فى دمى ولا أستطيع التخلى عنه. منذ ستين عامًا وأنا أؤدى هذا العمل. فى كل مرة كنتُ أحد المختارين. إذا نظرتم إلى هذه الأمور إذن بعين الرحمة فلن تتخلوا سيادتكم عن محدودى الإمكانيات وهم يواجهون من يملكون قوة الدين فى جانبهم. الفتوا نظر صاحب الجلالة، وعالجوا هذه الأضرار الكثيرة كما نأمل وافعلوا ما يجب أن يفعله رجل مسيحى شريف. نتمنى أن يكون فى ذلك رضا الله ورضا صاحب الجلالة ، وسيكون أهل هذه المملكة مدينون لكم على الدوام.

الهوامش

(١) *Mármol: Rebelión y Castigo......,p.161*

(٢) كما وردت فى كتاب مارمول ص. ١٦٣ - ١٦٥ . المذكرة مودعة فى مكتبة مدريد الوطنية (المخطوطة رقم ٦١٧٦) وقد نشرها غاراد ودرسها فى مقال بعنوان :

"The original Memorial of Don Francisco Nunez Muley", en Atlante

(٣) يشير إلى ثورة البيازين عام ١٤٩٩ إثر عمليات التنصير الإجبارية وحرق الكتب نتيجة لتشدد الكاردينال ثيسنيروس. وقد اعتبر الموريسكيون ذلك بمثابة انتهاك لاتفاقية تسليم غرناطة.

(٤) يقصد إيرناندو دى تالابيرا.

(٥) كان فقدان الأسماء العربية مؤثرا ، فهو يعنى ضياع الأنساب العربية القديمة ومعها النظام الاجتماعى الذى يستند إليها. أنظر :

Julio Caro Baroja: Los moriscos del reino de Granada, pp. 52 y sigs.

نبوءة موريسكية

كانت النبوءات التى تسمى "وصايا" شائعة خلال القرن السادس عشر. وكانت السمة المشتركة التى تجمع بين كل تلك النبوءات هى الأمل فى تحقيق النصر والإيمان بانتصار الإسلام انتصارا كاملا. وفى معظم هذه النبوءات نلحظ الترغيب فى الإسلام. وكان من الشائع كذلك التنبؤ بأن يأتى النصر على يد الأتراك أو على يد مسلمى البربر.

كانت الوصايا أو النبوءات تكتب بالألخميادو أو باللغة العربية ، كالنبوءة التى سنعرضها الآن والتى عرضت على محكمة التفتيش فى غرناطة وترجمها ألونسو ديل كاستيو [١]. وقد أدرج مارمول هذه الوصية مع وصيتين أخريين فى كتابه " قصة تمرد الموريسكيين وعقابهم ....." [٢] ونسب إلى هذه الوصايا سر قوة واستمرار ثورة البشرات .

وقد اخترنا الوصية الثانية من هذه الوصايا [٣] أنها تنسب إلى النبى نفسه ؛ ولأنها تصور المأساة التى حلت بالموريسكيين على أنها عقاب من الله لهم بسبب فساد أخلاقهم، وبعدهم عن الإسلام فى أواخر دولة الأندلس.

نبوءة وجدت فى كتب صادرتها محكمة التفتيش فى غرناطة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم. جاء فى الأثر أن رسول الله كان جالسًا ذات يوم بعد صلاة الظهر يتحدث مع الصحابة – رضى الله عنهم جميعًا – وفى هذه اللحظة

(*) تحفل الكتابات الموريسكية بالأحاديث الموضوعة ، كما ذكرنا فى أكثر من مناسبة . لاحظ كذلك اضطراب الأسلوب وتغير الضمائر والخطأ فى ذكر الآيات القرآنية (المترجم) .

دخل ابن أبى طالب وفاطمة الزهراء - رضى الله عنهما - وجلس بجانبه. قالوا له: " « يا رسول الله دلنا على حال أمتك فى آخر الزمان... » فقال لهم : « ستقوم القيامة عندما يكون الناس أشراراً ، وسيكون هناك جيل من أهلى (أمتى) فى آخر بلاد الغرب فى مكان يسمى جزيرة الأندلس ، وسيكون هؤلاء آخر من يسكنها من أمتى (أهلى). سيكونون آخر الناس، يرحمهم الله فى ذلك الوقت ». قال ذلك وامتلأت عيناه بالدموع ثم قال: « هم المضطهدون والمكروبون ، هم الذين يدمرون أنفسهم ، هم التعساء الذين قال الله عنهم : (لا تفنى أمة إلا ونحن نأذن بذلك) .... (*) يقرأ إلى آخر السورة ما هو مكتوب ويتعلق بذلك ، وفيه يشير الله تعالى إلى هذا الذى ذكرت ، وسيكون ذلك بسبب نسيان أهل الأندلس لأمور الدين واتباعهم لأهوائهم وحبهم الدنيا وترك الصلاة ومنع الزكاة وحب الشهوات والقتل؛ ولأنه سيشيع بينهم الكذب ، ولن يحترم الصغير الكبير ، وسيشيع بينهم الجهل والظلم والحلف الكاذب ، وسيتعامل التجار بالربا والغش فيما يبيعون ويشترون. كل ذلك بسبب الجشع والرغبة فى زيادة أموالهم وكنزها دون التأمل من أين جاء المال » قال ذلك وامتلأت عيناه بالدموع مرة أخرى، وبكى فبكينا كلنا معه ثم قال : « عندما تظهر فى الأمة هذه الشرور سيبعث الله عليهم أناسا أسوأ منهم ، تعجبهم الجرائم المنكرة. حينئذٍ سيطلبون العون من العادلين فيهم ولن يجيبونهم. وسيبعث الله عليهم من لا يرحم الصغير ولا يوقر الكبير ، لأن كل إنسان سيُعاقب بذنبه وعليه أن يتحمل جزاءه. لم نر أبدا أن الربا استقر فى أمة ولا الغش فى البيع والشراء والوزن والمكيال إلا وعاقبها الله تعالى بقطع الغيث من على وجه الأرض. لم تتفش الفاحشة إلا وأرسل الله الفناء والموت ، ولم ينتشر فى أمة الربا فى البيع والشراء والحلف الكاذب والتكبر إلا وعاقبها الله بكل أنواع المرض. ولم ينتشر فى أمة ما موت السوء والقتل إلا وأذلها الله وأخضعها لأعدائها ، ولم ينتشر فى أمة ما عمل قوم لوط إلا وعاقبها الله بأن أرسل عليها الدمار والخسف ، ولم يظهر فى أمة ما القسوة وانعدام الرحمة وعدم الخوف من الله بارتكاب المعاصى إلا وعاقبها الله بعدم الاستجابة لدعائها عند الكروب ؛ لأن الذنوب عندما تنتشر فى الأرض يرسل الله تعالى العقاب من السماء ، ولا يلعن الله أحداً من أمتى إلا وينزع التراحم بينهم ، ولا يعاقب

(*) الآيات القرآنية تقرر أن لكل أمة أجل ، لكن الموريسكى ربما أخطأ فى ذكر الآية (المترجم) .

الله عبداً فى الدنيا بأكثر من قسوة القلب ، وعندما يقسو قلب الإنسان يلعنه ربه ولا يسمع دعاءه ولا يرحمه ، ويشتد غضب الله على عباده حين يقترب يوم الحساب بسبب كثرة المعاصى وترك المعروف والبعد عن طريق الحق » . عند ذلك بكى وقال: « فليرحم الله أهل هذه الجزيرة عندما تظهر فيهم الذنوب والمعاصى ويبتعدون عما جاء فى القرآن؛ لأن معظمهم حينئذٍ سيبتغون الدنيا وسيلبسون أصواف الغنم الفقيرة وستكون ألسنتهم أحلى من العسل والسكر لكن قلوبهم ستكون قلوب ذئاب وستكون أفعالهم دنيئة وشريرة ، وسيبعث الله عليهم عقابه، ولن يسمع دعاءهم لأنهم سيفضلون الظلم ، ولن يدخل ضمن أمتى الظالمون أبداً. ومن يبتسم فى وجه ظالم أو يفسح له مكانًا يجلس فيه أو يساعده أو يسهل له ارتكاب المعصية فإنه يوشك أن يهلك . وإذا طغى ملك فى أرضه ولم يعدل بين رعيته سينقص الله من مملكته الخبز والفاكهة والخيرات ، أما إذا حكم بالعدل ولم تكن فى مملكته شرور ولا ظلم فسيرسل الله تعالى بركاته على أهله وعلى مملكته وسيزيد فى خيراتهم . وعندما يظهر فى هذه الجزيرة أهل الظلم وترك الحق والخيانة وعندما يسود التكبر والخيانة ويظلم الأيتام وتُترك رحمة الله ويُطاع الشيطان فتُرتكب المعاصى ويُشهد بالزور ويتواضع للأغنياء ويُتكبر على الفقراء بسبب قسوة القلب والتكبر، حينما تكون ألسنتهم حلوة وأفعالهم مرة... حينئذٍ سيُرسل الله عقابه » . ثم بكى مرة أخرى وقال : « أقسم برحمة الله وبعظمة أسمائه أنه لولا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولولا حب الله لى لأرسل الله عليهم عذابًا شديداً » . ثم بكى بمرارة وقال : « اللهم ارحمهم » - كررها ثلاثًا - « لكن الله سيرسل عليهم بسبب أفعالهم حكامًا قُساة وأشراراً يأخذون أموالهم دون حق، ويدخلونهم فى دينهم ويجعلونهم يعبدون الأصنام معهم ويجعلونهم يأكلون الخنزير معهم ويستخدمونهم فى أعمالهم.ويعذبونهم حتى يجعلوهم يخرجون اللبن الذى رضعوه من أطراف أظافرهم، وسيرون الظلم فى ذلك الوقت لدرجة أن أحدهم سيمر على القبر الذى يدفن فيه أخوه أو صديقه ويقول « ليتنى كنت معك » . سيستمرون على ذلك إلى أن يفقدوا الأمل فى الموت على دين الرحمة. معظمهم سيخرج عن دين الحق » هنا بكى ثانية وقال: « فليرحمهم الله تعالى برحمته ولينظر إليهم بعين الرحمة والشفقة والعطف. سيكون ذلك عندما يشتد عليهم أعداؤهم، عندما يحرقون كثيراً منهم ، رجالاً ونساءً ، وأطفالاً صغاراً وشيوخًا ، وعندما يخرجونهم من ديارهم، ويطردونهم من بلادهم..فى

ذلك الوقت ستثور الملائكة فى السماء وسيذهبون جماعةً ليسجدوا لله وليقولوا له : « إن ناسًا من أمة حبيبك ورسولك محمد يحرقون فى النار وأنت القوى المنتقم» هنا يرسل الله القوى من ينجدهم ويخرجهم من هذا الكرب العظيم". هنا بكى على – رضى الله عنه – وبكينا كلنا معه وقال له: « فى أى عام سيرسل الله النجدة وييسر القلوب المكروبة؟» أجاب « يا على سيكون ذلك فى جزيرة الأندلس عندما تكون بداية العام يوم سبت والعلامة الدالة على ذلك أن يرسل له سحابة من الطير يكون من بينها طائران مميزان أحدهما سيكون الملك جبريل والطائر الآخر سيكون ميكائيل ، أما الطيور فستكون من أرض الببغاوات، وسيؤذن قدومهم بقدوم ملوك الشرق والغرب نجدة لجزيرة الأندلس ، والعلامة ستكون هجوم أهل الغرب أولاً. وإذا تحدثت هذه الطيور فستخبر بأنه فى الوقت الذى تتحدث فيه ستكون صيحات الحرب فى المغرب... ستحدث صدامات وحروب بين أهل شريعة المسلمين وأهل دين النصارى ، وسيعود الناس كلهم إلى شريعة المسلمين ، لكن ذلك سيحدث بعد ضيق شديد. ذلك العام سيكون فيه ضباب كثيف وماء قليل وستحمل الأشجار ثماراً كثيرة وسيكون الخبز أكثر وفرةً فى الجبال الباردة منه فى السواحل ، وسيملأ النحل خلاياه فى ذلك العام المبارك » .

الهوامش

(١) حول هذه الشخصية انظر .

El morisco granadino Alonso del Castillo, interprete de Felipe II", en MEAH, y"Cabanelas: morisco granadino Alonso del Castillo.

(٢) ص ١٦٩ - ١٧٤

(٣) ص ١٧١ - ١٧٢

حرب البشرات

تشكل ثورة مسلمي مملكة غرناطة وما ترتب عليها من حرب البشرات (٦٨ - ١٥٧١) فصلاً من أهم فترات حكم فيليبي الثانى وأكثرها دموية.

نعرف تفاصيل حرب غرناطة بفضل روايات مؤلفين معاصرين للأحداث مثل: أورتاثو دى منثوثا ومارمول كارباخال. ونستطيع من خلال قراءة ما كتبوه رسم لوحة لحرب همجية بلا هوادة.

إن عدم انضباط وجبن القوات المسيحية ، التى كانت تفرّ إزاء أى تحرك للمسلمين بهدف حماية ما نهبوه ، كان عاملاً آخر يضاف إلى الصراعات على السلطة بين سادة إقليم أندلوثيا . كان النهب والقتل يشكلان نمط الحياة اليومية آنذاك.

انزعجت السلطة المركزية من جراء تأثير حرب غرناطة على مسألة هولندا ، ورغم عدم استطاعتها السيطرة على الثورة إلا أنها رفضت أى تنازل. حيكت المؤامرات حول ماركيز مونديخار الذى كان ينادى باتخاذ موقف مرن وتقديم تنازلات [1] وحيكت مؤامرات حول خوان دى اوستريا الذى لم تكن تعجبه هذه الحرب منذ البداية ، هذه الحرب الدموية ذات العمليات والمفاوضات المهينة مع الموريسكيين الخونة.

أما من ناحية الموريسكيين - والذين شاعت بينهم أيضًا المنافسات والعداوات - فقد ثارت ثورتهم ضد القساوسة وضد المسلمين الذين تنصروا . إن الحديث عن القتل والنهب والقضاء على قرى كاملة وحملات الانتقام والعقاب الوحشى المتبادل بين الفريقين ، هذا الحديث يملأ صفحات أخبار ذلك الزمان. تبقى بطولات بعض النبلاء المتطوعين وهم " أناس متميزون" كما يسميهم أورتاثو الذى كانت بطولاته جديرة بأن تُنسب إلى الأزمنة القديمة.

انتهت حرب غرناطة بترحيل الموريسكيين الغرناطيين إلى قشتالة ، وقد تم الترحيل بشكل عشوائى متعجل خلال شتاء عام ٧٠ - ١٥٧١ ، عندما لم يكن المسيحيون يسيطرون بالكامل على الوضع. كان ذلك - على حد قول بنثنت [٢] - فصلاً من أفشل الفصول التى سجلها التاريخ.

يبدأ مارمول - وهو أهم مؤرخ لحرب البشرات - حكايته على النحو التالى:

فصل يتعلق بالثورة العامة لمسلمى البشرات [٣]

إن التفكير فى الأهوال التى ارتكبها الموريسكيون وقطاع الطرق فى البشرات وفى مختلف بقاع مملكة غرناطة شيء يدعو إلى الحزن حقيقة. كان أول ما فعلوه هو اتخاذ أسماء وألقاب خاصة بطائفة محمد وإعلانهم أنهم مسلمون خارجون عن العقيدة الكاثوليكية المقدسة التى كانوا يؤمنون بها هم وآباؤهم وأجدادهم. كان من المستغرب أن ترى كيف كانوا - كباراً وصغاراً - على دراية بتعاليم طائفة محمد اللعينة: كانوا يؤدون الصلاة لمحمد، وإليه يوجهون دعاءهم ، وكانت النساء المتزوجات يكشفن صدورهن وكانت العذارى يكشفن رؤوسهن ويسدلن شعورهن على أكتافهن. كنَّ يرقصن علناً فى الشوارع ويعانقن الرجال (*) . كان الشباب يسيرون أمامهن يجلبون لهن الهواء بالمناديل ويقولون بصوت عال إن وقت البراءة قد حان وإنهم سيذهبون إلى الجنة لأن دينهم متحرر ، وكانوا يسمونه دين اللطف؛ لأنه يسمح بكل أنواع السرور والمتع. فى الوقت نفسه كانوا لا يحترمون الله ولا الناس ؛ لأنهم أعداء كل دين وأعداء الخير، تملؤهم القسوة والغضب الشيطانى. لقد سرقوا وحرقوا الكنائس وحطموها. حطموا التماثيل المقدسة وحطموا منصات القساوسة وامتدت أيديهم بالسوء إلى القساوسة الذين كانوا يعلمونهم أمور العقيدة. اقتادوهم إلى الشوارع والميادين وهم عرايا وحفاة ، وكان ذلك إهانة علنية لهم. ضربوا البعض وحرقوا البعض الآخر حياً ،

(*) لاحظ الافتراء على مسلمات الأندلس . إن السلطات الإسبانية كانت تحثهنّ على كشف وجوههن ، وكن يرفضن ذلك ، أما الآن فالمؤرخ يتهمهن بكشف صدورهن ومعانقة الرجال فى الشوارع ! (المترجم) .

وتسببوا فى أن يعانى الكثيرون أصناف العذاب. وقد استخدموا نفس القسوة مع المسيحيين من غير رجال الدين ممن كانوا يسكنون فى تلك الأماكن ، ولم يراعوا حق الجار على الجار ولا حق الصديق على الصديق، ورغم أن بعضهم حاول احترام حقوق الجوار وحقوق الصداقة (إلا أن ذلك لم يفد) لأن غضب الأشرار كان شديداً فكانوا يقتلون كل من يلقونه، وكانوا يقتلون من كان يريد أن يمنعهم من القتل. سرقوا بيوتهم وحاصروا من لجئوا إلى الأبراج والأماكن الحصينة بالنار وحرقوا كثيراً منهم ، وحتى من استسلموا لهم فقد قتلوهم. فقد كانوا يريدون ألا يبقى مسيحى واحد على ظهر الأرض حيًا ممن تزيد أعمارهم على عشر سنوات. بدأت هذه الأعمال فى لانخارون وامتدت إلى أورخيبا عصر يوم الخميس......... ومنها امتدت روح التمرد والشر بسرعة حتى أنها فجأة غطت كل أنحاء تلك البقعة كما سنتحدث بالتفصيل.

الـهـوامـش

(١) Morel- Fatio"Memoria presentada al rey Felipe II por Inigo López de Mendoza, Marques de Mondejar..... para justificar su conducta durante la campana que dirigió contra los moriscos en 1569 " en L'Espagne au XVI sieclers.

(٢) L'expulsion des morisques de Grenade et leur repartition en Castilla,p. 223.

(٣) Marmol: Historia del rebelion y castigo...,libro IV,cap. VIII.

موريسكيو قشتالة

*لم يكن موريسكيو قشتالة يشكلون جماعة مستقرة مثل موريسكيي مملكة أراغون التى كانت تضم المدجنين * القدماء الذين ظلوا فى أراضيهم منذ أن غزاها المسيحيون وبعد أن تحولوا إلى المسيحية بموجب قرار صدر فى عام ١٥٢٦ . كانت حملة قشتالة تهدف إلى طرد المسلمين صوب الجنوب بحيث أن عدد المسلمين الذين بقوا فى أراضيهم كان ضئيلاً جداً [1] وقد أجبر هؤلاء المسلمون على التنصر عام ١٥٠٢ ، وكانوا يشكلون جماعة صغيرة ومسالمة تعمل فى الحرف اليدوية وتألف التعايش مع المسيحيين القدامى فى قشتالة ؛ ولهذا فلم تكن لهم مشاكل كبيرة.*

طرحت المشكلة فى قشتالة اعتباراً من عام ١٥٧٠ حين أمر فيليبى الثانى - فى أعقاب حرب البشرات - بطرد موريسكيى غرناطة إلى قشتالة.

شكل الغرناطيون فى قشتالة جماعة غير أصيلة (رغم محاولات الدولة لكى يستقروا) وكانوا أكثر تمسكًا بالإسلام من موريسكيى قشتالة ، وكانوا يثيرون كل أنواع المشاكل. كانوا متهمين بالنهب وقطع الطريق فأثاروا عدم الطمأنينة فى جميع أنحاء المملكة ، وقد تسببوا فى انخفاض الأجور إذ كانوا يقبلون أجوراً لا يقبلها مسيحى قديم ، واتهموا برفع الأسعار عن طريق احتكار السلع، فقد كان الكثيرون منهم يعملون بالتجارة وخاصة نقل البضائع . لم يكن لهم مكان فى مجتمع قشتالة ، فقد كانوا جسداً غريبًا ومثيرًا للمشاكل. جاء قرار ترحيلهم إلى قشتالة عام ١٥٧٠ تمهيداً لطردهم بين عامى ١٦٠٩ - ١٦١٤ .

فيما يلى نقدم وثيقة تشيد بموريسكيى قشتالة، وقد كانوا مجموعة عُرف عنها الجد والاجتهاد والقناعة وحب الادخار والتضامن ، كما نقدم مقتطفات من الشكاوى

(*) المدجن : هو المسلم الذى بقى فى أراضٍ استولى المسيحيون عليها ، وظلوا يحتفظون بهذا اللقب إلى عام ١٤٩٢ فأطلق عليهم وعلى مسلمى غرناطة لقب " موريسكين " (المترجم) .

التى كانت تظهر دائمًا فى محاضر اجتماعات نواب قشتالة بخصوص المشاكل التى كان يسببها موريسكيو غرناطة .

موريسكيو اكستريمادورا

كانوا يعملون فى زراعة البساتين ويعيشون مبتعدين عن التعامل مع المسيحيين القدامى ، وكانوا لا يريدون أن يرى أحد طريقة معيشتهم. كان بعضهم يعمل بالتجارة. كانت لهم محلات أطعمة فى أفضل المواقع بالمدن والقرى ، وكانوا يقتاتون من عمل أيديهم. وكان بعضهم يعمل فى صناعة الآلات والأوانى و النعال والصابون ، وكان بعضهم يعمل كحمال. كانوا يتميزون بأنهم يدفعون الضرائب عن طيب خاطر، وبأنهم مقتصدون فى المأكل والمشرب. كانوا فى الظاهر يبدون أنهم يذهبون إلى أى مكان بحب ورغبة ، وكانوا يهتمون بزيادة أرباحهم. كانوا يتفادون أن يتسول ذووهم. كل منهم كانت له حرفته. إذا ارتكب أحدهم خطأً ما كانوا يشهدون لصالحه ، حتى لو كان الخطأ واضحًا. كانوا لا يتشاجرون فيما بينهم ، بل كانوا يعالجون الاختلافات. كانت سمتهم الصمت والصبر والانتقام إذا تمكنوا. كانت مهنتهم العامة هى صناعة الملابس والتنقل بين بلد وآخر. لا يعرف عنهم أنهم أرادوا مصاهرة المسيحيين القدامى، ولم يُعرف عنهم كذلك أنهم طلبوا موافقة البابا على زيجات بين درجات القرابة الممنوعة بحكم القانون (٢) .

الغرناطيون فى قشتالة

من خلال القضايا المرفوعة ضد الموريسكيين والتى فحصها الدكتور ليببانا بتكليف من المجلس يتضح ما يلى:

– أنه بين عامى ٧٧ – ١٥٨١ مات أكثر من مائتى شخص نتيجة جروح خطيرة، بالقرب من الأماكن التى يسكنون فيها مثل طليطلة وغوادا لاخارا وبايادوليد وسيغوبيا، وقد نسبت هذه الجرائم والسرقات إلى الموريسكيين الذين قدموا من مملكة غرناطة .

– من الثابت أن هناك ست أو سبع جماعات موريسكية قامت بأعمال القتل والسرقة ونشرت الفزع فى كل البقاع.

– إن كل من قاموا بأعمال السرقة هم من الذين تمردوا فى غرناطة، وهم الذين يقتلون الناس فى الطرقات العامة ، لاعتقادهم أن فى إمكانهم الاختفاء فى أى منزل تابع لبنى قومهم.

– إن المورسكيين يقتلون بشكل عام الحمالين أو الذين يسيرون بمفردهم أو من لا يحملون السلاح ، وبشكل عام فإن كل المورسكيين الذين يشربون الخمر هم من قطاع الطرق.

– وصل المورسكيون إلى قشتالة عام ١٥٧٠ ولم يبدءوا فى القيام بأعمال النهب حتى عام ١٥٧٧ ؛ لأنهم لم يكونوا على دراية بطرق الاختباء وتجنب العقوبة.

– لما كانوا لا يراعون القانون فقد تجرءوا وعاد الكثيرون منهم إلى غرناطة ، وكان المراجعون ورجال السلطة أنفسهم يخشونهم.

– إن عدد المورسكيين كبير ويتضاعف بسرعة؛ لأن الحرب والدين لا يهلكانهم، ولأنهم دهاة بحيث أنهم أتوا إلى قشتالة ولم يكن لديهم ولا شبر أرض، وكان ذلك فى سنوات الجفاف، لكنهم الآن جميعًا أثرياء بحيث أنهم من الآن وبعد عشرين عامًا سيكون المسيحيون القدامى خدما لهم.

– لا يجب أن يثق أحد فى تحولهم حقيقة إلى المسيحية. لم يحدث أبدًا أن أثبتوا ذلك رغم محاولاتهم. وعليه فإنه يجب البدء فى العلاج. ولا يجب أن نثق فى موريسكيى أبيلا واريبالو وأماكن أخرى فهم ليسوا أكثر مسيحيةً من غيرهم.

– بناء على عدم اهتمامهم بالإصلاح وعلى إصرارهم على اتباع شريعتهم الإسلامية يُخشى أنهم سيقوضون دعائم المسيحية (٣) .

من مجلس نواب مدريد المنعقد عام ١٥٩٢ إلى فيليبى الثانى

فى الاجتماع السابق طلبنا من صاحب الجلالة أن يتفضل بإصدار الأوامر لمعالجة المشكلة التى قد يؤدى إليها مستقبلاً وجود عدد كبير من موريسكيى مملكة

غرناطة كالعدد الموجود حالياً. لم تُتخذ إجراءات ونرى الضرر يزداد باطراد. إننا كلما أجلنا اتخاذ الإجراءات سيزداد عددهم وسيتحكمون فى كل أنواع التجارة والعقود، خاصة التخزين فهو العمل الأساسى الذى يستحوذون به على المال. إنهم يجمعون المحاصيل ويخفونها ويحتاج المرء إلى الشراء منهم... ولكى يستغلوا ذلك أحسن استغلال أصبح منهم صناع الخبز و الجزارون و أصحاب المحلات والسقاءون ؛ وهم بذلك يجمعون النقود ويخفونها. ليس فيهم من يشترى ولا من يملك عقارات ثابتة ، ولهذا فهم أثرياء وأصحاب سطوة ، وقد وصل نفوذهم إلى المحاكم الكنسية والمدنية. فالمحاكم تتحيز لهم بشدة؛ ولهذا فهم يعيشون متحررين ، وهذا ما يفسر عدم تدينهم المسيحى . وكل يوم يعبرون إلى بلاد البربر ، وحتى اليوم لم نر أنهم قد طلبوا إذنًا للزواج فيما بينهم ، وهم يقيمون حفلاتهم الخاصة بالزواج وحفلات السمر، ويحملون السلاح علنًا، وقد ارتكبوا ويرتكبون أبشع الجرائم منذ عشر سنوات وحتى الآن. وبناء على الخدمات التى قدموها إلى جلالتكم فقد ووفق لهم على التواجد بالعدد الحالى.... ولمعالجة هذا الوضع يبدو أنه من المناسب أن تتفضلوا جلالتكم باتخاذ الإجراءات التالية........

إحدى الوسائل التى اقترحوها بإلحاح كانت إجبار الموريسكيين على الاشتغال بأعمال الزراعة فقط.

فى محضر اجتماع نواب غوادالاخارا بتاريخ ٢٩ يوليه ١٥٩٨ ، وتحت عنوان "رأينا حول الزراعة" جاء ما يلى:

لكى تزدهر الزراعة نرى من المناسب أنه:

نظرًا لوجود عدد كبير من الموريسكيين القادمين من مملكة غرناطة الذين لم يخرجوا من المملكة ولم يدخلوا فى الدين المسيحى ، ونظرا لأنه قد تزايد عددهم ويستمر فى الزيادة (و الأسوأ من ذلك أنهم اشتغلوا بأعمال السمسرة وبمختلف أعمال التجارة والمؤن فى المدن والقرى ، لأنهم يحققون من هذا النشاط أرباحًا هائلة مقابل جهد قليل)، فقد تركوا مجال الزراعة وأثروا وأصبح لهم سلطان . هذا بالإضافة إلى المشاكل الأخرى التى يمكن أن يؤدى إليها هؤلاء الناس إذا امتلكوا ثروات كبيرة

وأصبح لهم سلطان فى القرى . ونظرا لأنهم تركوا زراعة الأراضى التى تعاقدوا على زراعتها فى غرناطة وكانت من أفضل الأراضى وأجودها ثمارًا فى كل أنحاء إسبانيا....

ولما كان الموريسكيون كما هم من حيث الجشع والتطلع إلى السلطة فسيكون من المفيد أن يقوموا بأعمال الزراعة ورعى الماشية.... إذا فضلوا ذلك فلن تكون لهم تجارة كبيرة، ولن يكونوا على صلة فيما بينهم كما يحدث الآن ، حيث أنهم – بسبب التنقل – يتصلون فيما بينهم، ويتزاورون مع بنى قومهم . من المناسب إذن أن تصدر الأوامر بألا يعمل أهل غرناطة وأبناؤهم فى التجارة، وألا يكون بإمكانهم إلا العمل فى زراعة الأراضى....

الهوامش

(١) Fernández y González: *Estado social yl político de los mudejares de Castilla*, Madrid, 1866

انظر أيضا الفصل الخاص بموريسكيى قشتالة فى

H. Lapeyre: Geographie de l'Espagne morisque.

(٢) Fray Alonso Fernandez: *Historia de Plasencia*, libro III, cap.25 ; apud Janer : Condición social, p. 162. Véase también Fernández Nieva "Un ceŋso de moriscos extremeños de la Inquisición de Lierena", en Revista de Estudios Extremeños.

(٣) Janer : Condición social, p. 272

هذه معركة بدر وحنين

كنموذج للأدب الموريسكى المكتوب بالألخميادو [1] نقدم هذه القصة التى يدرجها غاليس دى فوينتيس فى "كتاب المعارك". [2] وكتاب غاليس عبارة عن مجموعة قصص فروسية تحكى بطولات حدثت فى صدر الإسلام . فى هذه القصص يبدو المسلمون كأبطال أسطوريين يحققون النصر دائما . ولا شك فى أن الموريسكيين – الذين كانوا يشعرون دوما بأنهم جزء من العالم الإسلامى– كانوا ينتشون بتذكر هذه الانتصارات ويعتزون بها فى زمن تعرضوا هم فيه للمحن.

ورغم أن هذه القصص ترتدى ثوب الفروسية وتتضمن أحداثا عجيبة ،إلا أن بعض الأحداث التى ترويها حقيقية. هذه هى حالة " معركة حنين" التى وقعت فى العام الثامن للهجرة (عام ٦٣٠ م) ودارت أحداثها على النحو التالى: بعد فتح مكة شعرت قبيلتا هوازن وثقيف بالخطر الذى يشكله التوسع الإسلامى على علاقاتهما التجارية مع الطائف.

واستطاع مالك بن عوف زعيم هوازن أن يعد جيشًا قوامه عشرون ألف رجل (وهو رقم هائل بالنسبة لزعيم قبلى) وتوجه للقاء المسلمين، واصطحب معه النساء والأطفال والماشية وكل ما يملك. كان محمد على علم بالاستعدادات التى يجريها مالك ، فجهز جيشا من عشرة آلاف، وخرج من مكة للقاء العدو. وعندما كان يتأهب لنصب الخيام فى حنين فوجئ بجيش الأعداء. عم الفزع فى أوساط المسلمين فلم يتمكنوا من الرد على الهجوم وشرعوا فى الهرب. نادى محمد – وهو محاط بنفر من أصحابه – الرجال فاستجابوا للنداء وعادوا إلى المعركة وحققوا نصرا حاسما بالإضافة إلى الغنائم الكثيرة التى كان الأعداء يحملونها. [3] القصة – كما سنرى – تتضمن كثيرا من عناصر الخيال ، لكنها تقترب كثيرا من الواقع التاريخى .

هذه قصة معركة بدر وحنين (*)

رُوِى عن عبد الله بن عمر أنه قال: عندما غزا النبى ﷺ مكة حطم الأصنام وقتل نفرا كثيرا من أهلها ، وأسر بعضهم وفر البعض الآخر ومنهم خلف بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، وظل هؤلاء يقاومون النبى شهرا ، ثم بعد ذلك صاروا مسلمين طيبين وحسن إسلامهم.

ووصلت الأخبار إلى مالك بن عوف الأنصارى ، وكان ذا نفر كثير فى قومه مُطاعًا بينهم، فأمر بأن ينادى فى جميع البلاد وبين كل قبائل العرب كى يأتوا لمساعدتهم ضد محمد بن عبد الله، فأجابوه جميعًا بأن ذلك يسرهم وأنهم سيذهبون مشاة وفرسانًا .

وهكذا كانت أول قبيلة هم بنو النضير، فجاءوا وفى مقدمتهم قائد يُدعى سابق بن مروان. ثم جاءت مزيان فى أربعة آلاف فارس، وكان فى مقدمتهم قائد يُسمى مازن بن مازن. ثم جاء بنو عامر وعلى رأسهم فارس اسمه عطاء بن طارق. وكان مع كل قائد أربعة آلاف فارس، ومثلهم مشاة. ثم جاء بنو مواح فى أربعة آلاف فارس يتقدمهم قائد يدعى الحارث بن مواح، وهكذا اجتمع بين فارس وراجل ستة وعشرون ألفاً.

فلما ساروا ووصلوا قرب قصر مالك بن عوف رآهم مالك وخرج للقائهم وقال لهم:

– أيها الناس، يا فرسان العرب، تعرفون كيف غزا محمد بن عبد الله مكة وظهر على قريش بالسيف والرمح، وأخشى أن يجتاح محمد أراضيكم، ويقتل رجالكم ويشن مالكم. ويذيب حصونكم، ويأسر نساءكم وأولادكم.

فأجابوه جميعًا وقالوا له :

– إذن نود أن نذهب إلى محمد بخيلنا ورجلنا حتى يعود هبل إلى مكة.

عندئذٍ قال مالك :

– أيها الناس، مادامت هذه مشيئتكم فأعدوا سلاحكم وخيلكم فإنى أريد أن أطلب مزيداً من العون من عروة بن مصعوق.

(*) وجدنا النص مترجمًا فى كتاب «ملحمة المغازى الموريسكية» لأستاذنا الدكتور صلاح فضل ، وقد لاحظنا – كعهدنا بأستاذنا – دقة الترجمة ورصانة الأسلوب ، فآثرنا أن نقدمه كما هو ولم نُدخل عليه سوى تغييرات طفيفة (المترجم) .

فقال له الناس :

- حسنًا تفعل

فأمر بحبر وورق، وكتب رسالة إلى ثقيف يقول فيها :

" لقد كنت دائمًا حليفًا لكم، والآن جهزت الجيوش وجمعتها كى نقضى على هذا الساحر الكذاب محمد بن عبد الله ، فتعالوا لمساعدتى يا بنى عروة"

فلما وصلت الرسالة إلى عروة، وأدرك أن الجيوش والأجناد قد حُشدت أمر بجمع قواته فجاءه أربعة آلاف فارس وقالوا له :

- أيها السيد، ماذا حدث لك ؟

قال لهم:

- يا أصحابى ، وصلتنى رسالة من مالك بن عوف الأنصارى يطلب منى ومنكم العون ضد محمد بن عبد الله، وأنا أقول إن محمداً معان وغالب، وهو لا يضر ولا يضار، لكنه يحارب من يقاتله ويحطمه ويأخذ أرضه، فمشورتى أن تظلوا ساكنين.

فأجابه قومه وقالوا له :

- وكيف يصير الأمر؟ إن كل قبائل العرب ستمضى فى عونه، ولو لم نذهب نحن لقالت العرب إننا تخلفنا خوفًا من محمد.

قال لهم عروة :

- يا قوم، مادامت هذه رغبتكم فعليكم أولاً بتقوية حصونكم كى تضعوا فيها أمتعتكم ونساءكم وأبناءكم.

قال الراوى إنهم تركوا من يعمل على تقوية حصونهم، وكان لهؤلاء القوم قلاع وحصون شديدة.

وعندئذٍ أمر عروة بإعداد السلاح والخيل ، وساروا إلى حيث كان مالك. فلما رأى مالك عروة وقومه فرح فرحاً عظيمًا وأمر بأن تنحر لهم الذبائح العديدة، وتوفر لهم اللحوم والأطعمة من كل نوع والمشروبات الكثيرة، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا.

وقال مالك :

- كيف نرضى أن يقضى علينا محمد بهؤلاء الناس .

وجاء إبليس يرتدى دثار نعام ويتلفح بغطاعين للرأس أحدهما أصفر والآخر أشهب، ويمتطى فرساً يصعد أكثر من غيره، ويتكلم وهو يبكى قائلاً :

- يا قوم، دعوا المتع والترف واحملوا جميعاً أسلحتكم حتى لا تفقدوا شرفكم .

فلما سمع الناس قول إبليس لعنه الله قالوا له :

- ومن أين أتيت يا شيخ ؟

قال لهم :

- جئت من مكة .

قالوا له :

- وماذا فعل بها محمد ؟

قال :

- دخلها بقوة السلاح ، واللات والعزى لقد حطم جميع الأصنام .

وقالوا له:

- يا شيخ ، وماذا فعل مع هُبل ؟

قال :

- حطم جوانبه وأجزاءه كلها، وقذف به مكسوراً على الأرض، وداسه برجليه فركلة وقذفه إلى أرض الصفا حتى يفتته الكبار والصغار.

فقالوا له :

- وماذا فعل بأساف ونائلة ؟

(وكان هذان رجلاً وامرأة ارتكبا الزنا فى البيت العتيق فأحالهما الله حجراً صلداً، وكانت قريش تعبدهما من دون الله) .

قال :

– حطمها كلها تحت أقدامه.

قال الراوى: فصاح مالك فى جنوده، وأمر بإعداد السلاح والخيل، فلم يعد يسمع إلا الصياح وصهيل الخيل وبريق السلاح والرماح والسيوف والمغافر، فعجب مالك من شدة ضجيج القوم.

وكانوا يقولون :

– هيا إلى متاع محمد، سنقسمه فيما بيننا .

وسار رجال هوازن مع ثقيف، تعقبهم النساء والأطفال والإبل والشاء وكل ما يملكون.

وكلما صهلت خيول هوازن وثقيف ارتفع ضجيج الكتائب وانتشر الغبار الكثيف كأنه السحاب ، ولم يتوقفوا عن السير حتى وصلوا إلى نهر طون وأقام الناس هناك. وكان يقيم هناك فى هذا الوادى دريد بن ثابت، وهو من الكفار.

فدخلت امرأة من الجيش بيت دريد وهى تحمل فى ذراعيها طفلاً يبكى، وكانت هى أيضًا تبكى.

فقال لها دريد :

– يا امرأة إلى أين تذهبين؟

قالت المرأة :

– ألا ترى هذا الجيش؟

فنهض دريد، وذهب إلى الجيش وقال :

– يا قوم، مالى أرى لكم ضجيجًا شديدًا ورغاءً وصهيلاً؟

قالوا له :

– يا دريد ، مالك ساكتًا هكذا؟ هذه هى الجيوش التى نزلت هنا كى تحارب محمداً بن عبد الله.

قال دريد :

– ويل لى ، أعطونى سلاحى وفرسى.

فأحضروا له فرسه، وكان ضعيف البصر، فركب وذهب إلى جماعة مالك بن عوف. فلما رآه مالك نزع سيفه سرورًا وفرحاً، وقال له دريد:

– يا مالك، أى جيش هذا؟

قال له مالك :

– الجيش الذى جمعته لأحارب محمداً بن عبد الله.

فقال دريد :

– مالى أراك قد أحضرت النساء والأطفال والأموال فى جيشك، أليس من الأفضل إحضار المحاربين بالسيف والقوس والرمح؟ إن هذا أحب إلىّ يا مالك، فلو دارت علينا الدائرة كانت الأموال لمحمد وأصحابه.

قال مالك :

– واللات والعزى عندما نلقى بفرساننا ومشاتنا ويروا نساءنا فسيصيبهم الحزن وسيرون الموتى فى الأرض وستكون الهزيمة لمحمد.

قال دريد :

– واللات والعزى للسوائم التى ترعى فى الجبال أعقل منك، وللإبل التى تُساق مع الماشية أحكم منك. أفتأتى لتحارب محمداً بها وبالنساء والأطفال؟

وكانت جيوش مالك معسكرة على نهر طون، ولم يكن النبى محمد ﷺ يعرف ذلك .

حينئذ جاء أعرابى إلى النبى محمد ﷺ على فرس، ووصل إلى مكة، ونزل من على حصانه وربطه، وذهب للنبى ﷺ وقال له :

– السلام عليكم يا رسول الله.

قال النبى محمد ﷺ :

– السلام على منْ اتبع الهُدى وخاف عاقبة الشر والضلال.

قال الأعرابى :

– يا محمد، جئتُ لأحذرك وأنصحك، فتقبل منى.

قال رسول الله :

– ما هى نصيحتك يا أعرابى؟

قال الأعرابى :

– يا محمد، لقد رأيت هنا أصحاب مالك من هوازن وثقيف، اجتمعوا على نهر طون بثلاثين ألف فارس وراجل، وأقسموا على أن يحطموك فى مكة ويعيدوا صنم هُبل إلى مكانه.

قال رسول الله :

– ومتى يكون هذا يا أعرابى، فإن لدىّ ربًا هو علام الغيوب والمطلع على الأسرار جميعاً.

قال الأعرابى :

– يا محمد، انظر إلىّ هنا بين يديك، فلو كنت أكذب لتقطعن رأسى، ولو كنتُ أقول الحق فحسبى ذلك من شرف هذه الدنيا.

قال (الراوى): وبينما كان النبى يتحاور معه نزل جبريل عليه السلام وقال له:

– يا محمد، إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك إن الأعرابى يخبرك بالصدق، والله يأمرك أن تخرج إليهم.

عندئذٍ بادر النبى عليه السلام، وبرفقته مجموعة من صحابته ، ورفع راية من مدينة مكة وصاح قائلاً :

– أين أنس بن مالك ؟ أين سلمان الفارسى ؟ أين صُهيب ؟ أين بلال بن حمامة ؟

فأجابوه جميعًا :

– لبيك يا رسول الله .

فقال لهم النبى عليه السلام:

– اخرجوا يرحمكم الله إلى أحياء مكة وقولوا: أين المهاجرون والأنصار ؟ أجيبوا نبيكم عليه السلام (للأمر) الذى جاءه من قبل الله تعالى.

فنادى المؤذنون وجاء الناس من كل صوب واجتمعوا كلهم، وصعد النبى على هضبة من الأرض، وألقى خطبة جامعة، فحمد الله حمداً كثيراً ثم قال :

– أيها الناس، رحمكم الله، هؤلاء هم هوازن وثقيف، أخبرنى الله ربى أنهم قد جمعوا ثلاثين ألف فارس وراجل فى وادى طون، والله يأمرنى بالخروج إليهم فقد أقسموا على هدم مكة. فماذا تقولون رحمكم الله؟

قال المسلمون :

– مشورتنا هى مشورتك، ورغبتنا هى طاعة الله وطاعتك يا رسول الله.

فطلب لهم المثوبة على ذلك ووعدهم بالفوز والخير العميم.

ثم أمر النبى عليه السلام أن يجتمعوا للرحيل ثم نادى على بن أبى طالب وقال:

– يا قوم، من كان منكم مريضًا أو جريحًا فلا يخرج إلى هذه المعركة التى سيكون شأنها عظيمًا.

فأجابه رجل يُدعى ابن سفيان وقال له :

– يا على، كيف تريد أن تهزأ بالرجال وتوهن عزيمتنا وتحط من قدرنا؟

فاغتاظ على من جواب ابن سفيان، وسل علىٌ سيفه وسل أبو سفيان سيفه ، وحمل كل منهما على الآخر، فدخل النبى عليه السلام بينهما ، ووضع يده اليمنى على سيف على واليسرى على سيف أبى سفيان، وجعلهما يتعانقان فأطاعا أمره.

وعندئذٍ خرج النبى (عليه السلام) من مكة وسار فى اثنى عشر ألف من جنوده. وأمر النبى بأن يحضروا راية، وأعطاها للحباس بن مرادس، فأخذها فى يده وألقى أبياتًا من الشعر، ثم أمر براية أخرى وأعطاها لعمه العباس بن عبد المطلب، فأخذها وسار بها حتى جلس فى مكانه، ثم أخذ راية أخرى وأعطاها لأبى عبيدة بن الجراح، وأخذ راية أخرى وسلمها لسماك بن...(؟) ، وأمر براية أخرى وأعطاها للزبير بن العوام، ثم أمر براية أخرى وأعطاها لعبد الرحمن بن عوف، وأمر براية أخرى وأعطاها لأبى بكر الصديق. ثم أمر برايتين وأعطاهما لعلى بن أبى طالب فسار بهما. وسار معه بنو هاشم.

وأخذ النصر بن ثابت زمام ناقة النبى عليه السلام، وطلب النبى من عمه العباس أن يسير ويهتدى بطريق الجلدان(؟) وعلى هذا النهر كانت هناك شجرة عظيمة، وكانت قريش تعظم هذه الشجرة وتنحر لها الذبائح الكثيرة من مواشيها، فلما مروا بها ورأوها سجد لها بعض أهل قريش، عندئذٍ قال النبى محمد:

– سبحان الله، عندما كنتم كفارا كنتم تذهبون إلى الحرب تسوقون اللات والعزى والآن تذهبون إلى الحرب مع الله ورسوله، ولكم المغفرة والثواب العظيم.

حينئذٍ قالوا :

– يا رسول الله ، ادع الله لنا أن يغفر ذنوبنا، فأنت تعلم قُرب عهدنا بالإيمان والإسلام.

وسار النبى محمد ﷺ مع قواته، ورأى أن الفرسان يتدافعون إلى المؤخرة ويتلاقون جماعات، فنادى فيهم النبى ﷺ وقال :

– ما هذا الذى تتدافعون عنه يرحمكم الله؟

قالوا له:

– يا رسول الله.. ثعبان ضخم يغطى كل الوادى.

قال النبى محمد ﷺ :

– أفسحوا لى مكانًا حتى أراه كله.

فلما رآه النبى ﷺ جلس على ذنبه، فنادى قائلاً :

- السلام عليكم يا رسول الله.

فرد النبى (عليه السلام) وقال :

- السلام على من اتبع الهُدى وخشى عاقبة الشر والضلال. قُل لى يا ثعبان، أوأنت من الجن أو من الحيوان؟

قال :

- أنا من الجن يا رسول الله، وأنا من المؤمنين بك حتى يوم الحشر يا رسول الله، جئت لأساعدك فى صُحبة اثنى عشر ألف جنى.

قال النبى عليه السلام :

- عد وأنصت لمن يقرأ القرآن الذى يهدى إلى طريق الحق.

ثم قال النبى محمد، ﷺ :

- وأين هذه الجماعة من أصحابك؟

(قال الراوى) فأشار إلى جوف الوادى أمامه.

فالتفت النبى (عليه السلام) إلى أصحابه وقال لهم:

- أوترون شيئًا يرحمكم الله؟

قالوا :

- نعم ، لقد رأينا يا رسول الله شيئًا مثل الدخان الأخضر.

قال النبى ﷺ :

- ابتعدوا عن طريق المسلمين أيها الجن.

فانحرفوا عن الطريق، واستأنفوا السير.

ورأوا الكفار وقد انتقلوا إلى نهر طون (؟) وأقاموا فى بدر وحنين. عندئذٍ نادى مالك على فرقة من أصحابه، وأمرهم بأن يكروا على صحابة محمد، فقدموا عليهم

وبدوا كـأنهم قطيع ضـخم من السـوائم. فلمـا رأوا جـيش النبى ﷺ عـادوا إلى كتائبهم وقالوا لهم :

– ويلكم ، واللات والعـزى لقـد جـاءكم مـحـمـد فى جـيش هائل من المشـاة والفرسان.

فلما سمعوا ذلك وقع بينهم الصياح ، وكان رجل منهم قد دخل فى جيش محمد، ورأى أن محمداً ... (بياض فى الأصل) .

وأمر النبى ﷺ قومه بأن يتقدموا. فلما رأى مالك ذلك قال لقومه:

– أى شىء جعلكم تخافون وتفزعون؟

قالوا له :

– يا مالك، خوفًا من أصحاب محمد، واللات والعُزى لو وصلوا إلينا ما بقى منا صغير ولا كبير.

عندئذٍ نادى مـالك على عـبد أسـود كـان عنده، وكـان عظيم العلم شـديد الفـهم والفطنة، وقال له :

– يا غلام ، تعال معى نصعد إلى قمة هذه الهضبة.

فصعدا ، وقال له مالك :

– يا غلام، انظر إلى هذا الجيش ، وانظر ما ترى فيه.

فنظر وقال :

– أرى رجلاً عريض الجبهة، وفى يده راية صفراء.

قال مالك :

– أو تعرفه؟

قال :

– لا.

قال :

- هذا هو العباس بن مرادس السلمى.

قال الغلام :

- أرى رجلاً معه راية سوداء وثيابه سوداء.

قال مالك :

- هذا هو العباس بن عبد المطلب.

فأضاف قوله :

- أرى رجلاً معه راية صفراء، وثيابه حمراء ضاربة إلى الشقرة من بينهم جميعًا.

قال مالك :

- هذا هو الأقرع بن حابس.

وأضاف قوله :

- أرى فارسًا يلبس ثيابًا بيضاء ومعه راية بيضاء.

قال :

- هذا هو عبد الله بن راحلة

و أضاف قوله :

- أرى فارسًا ومعه راية بيضاء وزرقاء وملابس زرقاء وعمامة زرقاء.

قال مالك :

- هذا هو مقداد بن الأسود الكندى.

وأضاف قوله :

- أرى فارسًا طويلاً ، عظيم الهيئة، عريض المنكبين، ضخم العظام ومعه رايتان.

قال مالك :

– هذا الفارس هو على بن أبى طالب.

أردف قائلاً :

– أرى فى قلب الجيش فارسًا ليس بالطويل ولا بالقصير، أبيض، شعره يلمع مثل ضوء الشمس وتنظر إليه الكتائب كلها.

قال مالك :

– هذا هو محمد بن عبد الله الهادم الأكبر وغالب أبطالنا ، نبى هؤلاء القوم .

قال :

– هيا بنا إلى جيشنا فقد عرفنا أمرهم.

وعادوا إلى دريد وإلى أصحابهما، وقال لهم مالك :

– يا قوم، لا تخافوا منهم، فهذا هو محمد بن عبد الله جاء فى اثنى عشر ألفٍ من الفرسان ونحن ثلاثون ألفاً، ولن تغلبوا – وأنتم الكثرة – من القلة.

قال ناظم هذه الروايات، وتأهبت الجيوش وجهًا لوجه واصطفت الفرق، وتجهزوا بأسلحتهم، وصوبوا نواظرهم، وشدوا لجم خيلهم ، وشرعوا رماحهم، واستعدوا للنزال، فتقدم الشرفاء، وتراجع الدهماء، وأظهر الأبطال والفرسان زهوهم، واشتعلت حرارة الشمس وحمى الضجيج بين الكتائب، فانبهر الفرسان والمشاة للطنين، وثار النقع الكثيف، وتعالت الآهات والصرخات حتى كاد غبار المعركة أن يحجب الشمس. وحينئذٍ صاح إبليس لعنه الله:

– مات محمد بن عبد الله.

فوقع وقر ذلك فى قلوب المسلمين وعلى أسماعهم واشتد بهم الفزع وفروا هاربين حتى لم يبق أمام النبى محمد ﷺ سوى عشرة من أصحابه.

قال ابن العباس (*) :

- سبحان الله، والله لم أر من قبل مثل شجاعة النبى (عليه السلام) . فى هذا اليوم رمى بالعصابة من فوق رأسه وحمل على المشركين فأخذوا يفرون أمامه حتى يهوون فى وادى حنين فيسقطون من الجبل وتندق رؤوسهم أمامه كما لو كانوا حصى يقع من السماء.

ثم عاد إلى صحابته، فلم يجد سوى عشرة منهم فقال للعباس:

- اصعد إلى الجبل، وناد المسلمين.

قال العباس :

- يا ابن عمى (**) وإلى أين يصل صوتى ؟ فالناس قد هربوا فى الوديان والسفوح.

قال النبى عليه السلام :

- نادهم يا عمى، فالله سيرفع صوتك.

فصعد العباس إلى الجبل ونادى وقال :

- إلى أين تذهبون يا صحابة محمد، الزموا نبيكم، فهو حى لم يمت، ارجعوا، ارجعوا إلى المعركة يرحمكم الله.

فسمع المسلمون صوت العباس، وعادوا إلى النبى عليه السلام.

وقالوا له :

- يا رسول الله، ادع الله لنا كى يغفر هذا الذنب، فالشيطان قد صرخ فينا، ومضينا مذعورين.

فدعا النبى ﷺ لهم ثم طلب النبى (عليه السلام) علياً بن أبى طالب فقال :

(*) لاحظ أن الموريسكى يخلط بين العباس عم النبى (ص) وابن عبّاس راوى الحديث. (المترجم) .

(**) هذا دليل آخر على الخلط ؛ فالعباس عم النبى ومع ذلك يخاطبه بكلمة يا ابن عمى. (المترجم) .

– سبحان الله، وأين على رضى الله عنه فهو الذى لا يُغلب؟ والله بكل شيء عليم.

عندئذٍ نزل جبريل (عليه السلام) وقال :

– يا رسول الله، إن الله يأمر أن تصعد إلى الجبل وتنظر إلى ابن عمك على بن أبى طالب.

قال (الراوى) فصعد النبى ﷺ ونظر فرآه يقاتل الكفار بيده اليُمنى وبيده اليُسرى ويسوقهم كالشياه أمامه فيتوزعهم الوادى عن يمينه ويساره.

وقال جبريل:

– يا محمد، إن الملائكة فى السماء يُعجبون بعلى (*) .

فتبعه النبى ﷺ ووجد هناك بحراً من الدم حوله فنظر إليه فرأى به سبعين جُرحاً، فأخذ النبى ﷺ قدحًا من الماء، ومر بيده المباركة على الجراح فشُفيت بإذن الله وفضله.

قال (الراوى) ثم خرج من بينهم فارس يُسمى ذا الخمار وكان بطلاً صنديداً قوياً، فوقف فى منتصف الميدان كأنه وحش كاسر يطلب النزال وينشد الأشعار فخرج للقائه مسلم يُسمى زيد بن عمر، فشد كل منهما على صاحبه وجُرحا بضربتين، ثم ضربه ذو الخمار ضربة طرحته على الأرض فسقط ميتًا وسارع الله بروحه إلى الجنة ثم وقف بين الفريقين وقال :

– هل من يخرج إلىَّ ؟

فلم يجبه أحد.

عندئذٍ قال ذو الخمار :

– يا محمد، أين فرسانك وشجعانك وذوو الشأن من قومك ؟ أين الليث الغاضب على بن أبى طالب ؟

(*) الأدب الموريسكى حافل بالإشارات إلى بطولات على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وينسب مسلمو الأندلس المتأخرون إلى على بطولات خارقة ، فهم يقولون إنه – حتى الآن – يعود إلى الحياة لكى يحارب فى صفوف المسلمين (المترجم) .

قال النبى ﷺ :

- يا على، أتحب أن تخرج إلى هذا الفارس؟

قال :

- أجل يا رسول الله.

فخرج إليه على وهو يقول :

- اللهم إنى أتقى الكفر باسمك وقدرتك، وأعوذ بك من الخوف والفزع عند لقاء الأبطال.

ولما رآه ذو الخمار عرفه وقال له :

- يا على، لكم اعتاد فؤادك الضرب والطعن. لقد خرجت منتصراً فى معارك كثيرة، والآن تستحث فؤادك وفؤاد محمد بن عبد الله لصراعى، فأت بكل قوتك فإنك لم تحارب فارساً من قبل مثل من يقف أمامك.

وعندئذ حمل كل منهما على الآخر، وتصارعا زمنًا طويلاً، وتعلقت بهما أبصار الفريقين. فرأوا عليًا وقد علاه بضربة شطرته نصفين، فبتر السيف الفارس والفرس وانغرس فى الأرض فشقها شقًا عميقاً، وسارع الله بروحه إلى جهنم.

وصاح على :

- الله أكبر.

فهتف المسلمون جميعاً :

- الله أكبر.

وتبعوا عليًا وهو يشتد على الكفار حتى كروا راجعين، وتفرقوا أشتاتاً، وقتل فى نهر " طون" خلائق كثيرة، ووقع فى الأسر كثيرون. وكانت تكبيرات المسلمين وتكبيرات الملائكة عجبًا لمن يسمعها. وأمسك العباس بشخص معصوب بعصابة من الديباج الأخضر، وقال :

- والله لقد حسبتها لفتاة ، فحملتها لأقدمها للنبى عليه السلام، فتقدم إلىّ فارس من فرسان المسلمين وقال لى :

- يا عباس، مَن صاحب هذه العصابة؟

فقال له :

- أظنها لإحدى الجوارى.

قال له :

- بئسما حسبت يا عباس، فلو كان هو إبليس الشيطان الرجيم وحل الظلام مع سواد الليل فربما انطلق ومس بالشر بعض المسلمين.

عندئذٍ جعله يكشف عن نفسه، فإذا به دريد الملعون، وكان دريد هذا عدواً لمحمد ﷺ ، فقال العباس :

- أأنت دريد يا عدو الله وعدو رسوله؟

وسل العباس السيف وضرب دريداً، غير أنه كان محصناً بالسلاح والحديد فلم يبلغ منه السيف شيئاً، ففك العباس مغفره وقطع رأسه وحملها إلى النبى ﷺ وقال له :

- يا رسول الله، ها هى ذى رأس دريد الملعون.

ففرح النبى (عليه السلام) فرحاً عظيماً، وأمر بإحضار الأمتعة والغنائم والإبل، وأعطى لكل قائد مائة جمل، وأعطى للمسلمين قسمتهم، ولعائشة جاريتين. ورجع النبى (عليه السلام) إلى المدينة فرحاً مظفراً منتصراً على الكفار ناشراً للإسلام.

وهنا تنتهى غزوة النبى محمد ﷺ ضد مالك بن عوف الأنصارى ببركة من الله تعالى رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبى الكريم (*) .

(*) من المعلوم أن الأدب الألخميادو يختلط فيه الواقع بالخيال . هذا ما يفسر كون النص هنا يجمع بين غزوتى بدر وحنين كما لو كانتا غزوةً واحدة ، ويفسر أيضاً وجود عددٍ من المشاهد التى أوحى بها خيال المؤلف (المترجم) .

الـهـوامـش

(١) الأدب الألخميادو هو الأدب المكتوب باللغة الإسبانية أو البرتغالية أو القطالونية وبحروف عربية. كتبه موريسكيون على مدى القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر.

(٢) Gaudefory-Demombines: Mahoma, México, 1960, pp. 142 y sigs.

شعائر الموريسكيين الدينية

نستوحى وصف عدة شعائر من ملحق كتاب " الموريسكيون الإسبان وطردهم" لبورونات إى باراتشينا[١] وعنوان الملحق هو " شعائر المسلمين التى يؤديها الموريسكيون". و الشعائر التى نصفها هنا هى الشعائر الإسلامية الأساسية كما كان يؤديها الموريسكيون الإسبان والتى ترد تسميتها فى مذكرات الاتهام المقدمة إلى محاكم التفتيش[٢] .

الطهور:

لكى يُؤَدّى الطهور كان الموريسكى يتجرد من ملابسه تمامًا ويضع إناء فيه ماء ساخن وصابون ويغسل جسده كله ثم يفرغ الماء ويضع ماءً آخر نظيفًا مكانه. يدخل المسلم يديه ويقول : « الله أكبر الله أكبر الله أكبر، اشهد لى أمام وجه الله »، وبهذه الطريقة يغسل كل أعضاء جسمه مبتدئًا بالرأس حتى ينتهى عند القدمين وهو يردد نفس الكلمات عند غسل كل عضو. بعد ذلك يجلس المسلم بجوار الإناء، ويأخذ الماء بكلتا يديه ثلاث مرات ويلقى الماء على كتفه الأيمن ثم يضع يده اليمنى على كتفه الأيمن واليد اليسرى تحت ذراعه الأيسر(الأيمن؟) بحيث تلتقى اليدان عند الظهر، وإذا لم تلتقيا يأخذ عصا صغيرة لكى تلتقيا وعند التقاء اليدين يقول:

«اللهم صل روحى بالجنة» ثم يضع الماء بكلتا يديه على كتفه الأيسر ثلاثًا، ثم يضع الماء على كتفه الأيمن ثلاثًا بحيث يصل المجموع إلى تسعة، بعد ذلك يرتدى قميصًا وملابس نظيفة.

الوضوء:

لكي يتوضأ المسلم يأخذ دورقًا من الماء النظيف البارد ويغسل يديه ثلاثًا، وفي كل مرة يقول : « اللهم نظف يدي عن أخذ الحرام، أنظفها لكي أؤكد وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وبعد غسل اليدين يغسل عورته ويقول : اللهم نظف عورتي من الحرام ، ثم يربت على الماء بكفيه ثلاثًا ويعود إلى غسل اليدين ثلاث مرات مردداً نفس الدعاء ، بعد ذلك يتمضمض ثلاثًا ويقول: « اللهم اجعل أول وآخر كلامي لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، بعد ذلك يستنشق ويقول : « اللهم اجعل أنفي تشم رائحة الجنة » ، ثم يغسل وجهه ثلاثًا ويقول: « اللهم أنر وجهي كالبدر، ولا تسوده كما تسود وجوه الكافرين. أنر وجهي كما تضيء وجه أحبابك. آمين » . بعد ذلك يغسل الذراع الأيمن حتى المرفق ويقول : « اللهم أعطني كتابي بيميني . آمين يا الله » . بعد ذلك يغسل الذراع الأيسر ويردد نفس الدعاء ثم يغسل الرأس حتى القفا وهو يقول : « اللهم ضع رأسي في الجنة... » ، بعد ذلك يغسل الأذنين لكي تسمعا القرآن في الجنة، ثم يغسل الرقبة ثلاثًا ويقول : « اللهم اعتق رقبتي من النار . آمين يا الله » ، بعد ذلك يغسل قدميه ثلاثًا اليمنى ثم اليسرى وهو يقول: « اللهم ثبت قدمي اليمنى على الصراط وألا تزل كما تزل أقدام الكافرين، بل أمر على الصراط كما يمر البرق، وأشهد بكلمة الحق أنه لا إله إلا الله لم يمت ولن يموت ولا شبيه له إلا محمد عبده ورسوله جاء بشريعة الحق. آمين يا الله » ، ثم يقول نفس ذلك عند غسل القدم اليسرى (*).
يقول المسلمون إن هناك طريقًا يمر فوق الجحيم ويسمى الصراط وإنه رقيق كالشعرة.

الصلاة:

هناك صلاة تسمى صلاة (الصبح) . يضع الشخص ملاءة على الأرض ويقف عليها حافي القدمين ويضع كفتي يديه على وجهه ويقول ثلاث مرات (حي) على الصلاة (حي) على الفلاح « نشهد أن لا إله إلا الله » ثم يوجه يديه ناحية الأرض ويقول

(*) النص الإسباني مشوّه إلى أقصى حد، ولابد أن برونات هو الذي شوه النص، وقد التزمت غارثيا أرينال بنقل نص برونات دون أن تعلق عليه إلا في مواضع محدودة (المترجم) .

« الله أكبر. الشكر يا الله؛ أى الحمد لله » ثم يقول « اللهم أرجوك بفضلك ورحمتك أن تغفر لى ولوالدى، وأن تتقبّل منى صلاة الشكر هذه كما تتقبلها من عبادك الصالحين وممن يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. آمين يا الله » . بعد ذلك يعود إلى إسدال اليدين بحيث تكون الكفتان ناحية الأرض ويقول « الله أكبر» . بعد ذلك يضع اليدين على الفخذين ويقول: « الحمد لله رب العالمين. الرحمن » . بعد ذلك يضع اليدين على الفخذين ويقول: « قل هو الله أحد. الله الصمد » ، ثم يضع وجهه على الأرض فوق الملاءة ويردد ثلاثًا « اللهم اغفر لى برحمتك ». بعد ذلك يقف مرة أخرى ويسجد مرة أخرى ثم يجلس على ركبتيه ويقول: « التحيات لله. الزكيات لله » ، ثم ينظر ناحية اليمين ويقول: « السلام... » . هذه الصلاة تؤدى عند شروق الشمس (*) .

صلاة الظهر:

تؤدى صلاة الظهر فى منتصف النهار وهى من أربع ركعات يقال فيها : « الحمد لله » أربع مرات، وتؤدى مثل الصلاة السابقة وبنفس الكلمات المذكورة .

صلاة العصر:

تؤدى هذه الصلاة بنفس الحركات والكلمات المذكورة. دائمًا تؤدى الصلاة والإنسان متجه إلى القبلة ، وهو المكان الذى تخرج منه الشمس ، بعد ثلاث ساعات من طلوع الشمس فى الشتاء.

صلاة الأخيرة:

تؤدى بعد صلاة العصر فى الساعة الرابعة مساء بنفس الأركان إلا أنها ثلاث ركعات؛ والركعة هى خفض ورفع الرأس.

(*) نفس الملاحظة السابقة. على من يريد الوقوف على كيفية أداء الموريسكيين لشعائر الدين الإسلامى، عليه مطالعة كتاب بدرو لونغاس. وهو يستند إلى مخطوطات الموريسكيين فى معظم الأحوال. (المترجم) .

صلاة العتمة:

تؤدى هذه الصلاة فى الليل، وهى أربع ركعات على النحو الموضح سابقًا

صلاة (الوتر) Tabalquet:

وهى تؤدى بعد كل الصلوات وبنفس الطريقة وبها تنتهى صلوات اليوم ، وإذا كان هناك أشخاص كَثيرون يقفون فى صفوف ويؤدونها جماعة.

صيام رمضان:

ومدته ثلاثون يومًا، لا يأكل المسلم خلال اليوم إلا فى الليل عند بزوغ النجم ، وفى كل ليلة يتسحر المسلم ، فيأكل بقية ما خلفه فى أكل الليل. يأكل قبل الفجر ويغسل فمه ويؤدى الصلاة، ويتطهر المسلم قبل بدء رمضان. يبدأ الصوم برؤية الهلال وينتهى برؤية الهلال. بعد ذلك ينتظر أحد عشر شهرًا، والشهر الثانى عشر يكون هو رمضان[٣] ، بحيث أن كل رمضان يبدأ قبل رمضان السابق له بنحو عشرة أيام ، إذ هكذا يكون حساب الأهلة.

بعد أن ينتهى شهر رمضان– ومدته ثلاثون يومًا – يحتفل المسلمون بعيد الفطر . وفى أول أيام العيد يقبل الابن المسلم يد أبيه ويطلب منه أن يسامحه، والآباء يباركون الأبناء فيضعون أيديهم على رؤوسهم ويقولون « جعلك الله مؤمنًا (أو مؤمنة) صالحًا (أو صالحةً) » ، ويطلب كل مسلم من أخيه المغفرة قائلاً: « غفر الله لى ولك » .

عيد الأضحى:

يُحتفل به فى اليوم العاشر من الشهر الثالث بعد شهر رمضان ، ويصوم المسلمون الأيام العشرة التى تسبق العيد فلا يأكلون طوال اليوم حتى دخول الليل ويتسحرون فى الفجر كما ذكرنا عندما تحدثنا عن رمضان. وللاحتفال بالعيد يذبح الموريسكى خروفًا على طريقة المسلمين. ويقول المسلمون إنهم يحتفلون بعيد الأضحى إحياء لتضحية إبراهيم بكبش بدلاً من ابنه.

الليلة الطيبة (*) :

بعد مرور ثمانية أشهر على عيد الأضحى وقبل حلول رمضان بشهر واحد يحتفل المسلمون بمناسبة يسمونها الليلة الطيبة يقولون إن الله يكتب فيها أسماء الذين سيموتون خلال هذا العام . ويؤدى المسلمون الطهارة والصلاة فى تلك الليلة، ويقولون إن عليهم أداء مائة ركعة. فى إحدى هذه الركعات يتلون سورة " الحمد لله" و " قل هو الله أحد » ، ثم « الحمد لله » .

وبعد الوضوء يجلس المسلم جلسة التشهد وينظر إلى ظله ، فإذا ظهر ظل أحدهم بلا رأس فمعنى ذلك أنه سيموت خلال هذا العام.

الجمعة :

يحتفل المسلمون بيوم الجمعة من كل أسبوع وإذا لم يتمكنوا من صلاة الجمعة لأنهم مراقبون فإنهم يؤجلون الصلاة ، ووقتها فى الظهر .

الموتى :

يغسّل المسلمون موتاهم أولاً ثم يكفنونهم فى سبع قطع من القماش ثم يضعون شيئا لتغطية العورة ، لأنهم يقولون إنه بدون الكفن لا يستطيع المسلم الوقوف أمام الله يوم القيامة، وعند التكفين يغطون الجسد كله.

ليلة القدر:

تؤدى صلاة ليلة القدر بخمس عشرة ركعة وتؤدى للنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وابنته فاطمة. ويكون ذلك بالنظر إلى الأرض ووضع اليدين على البطن وقراءة « إنا أعطيناك الكوثر».

(*) يعلم المسلم أنه ليست هناك مناسبة إسلامية بهذا الاسم، ولعل التاريخ الموضح هنا يشير إلى ليلة الإسراء والمعراج، ونظن أن تسميتها بهذا الاسم يعود إلى أثر مسيحى. (المترجم) .

سورة برب الفلق:

تقرأ سورة « برب الفلق » بوضع العينين والأيدى بالطريقة الموضحة سابقًا ، ويقول المسلم : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » .

سورة برب الناس:

تقرأ سورة « برب الناس » بوضع العينين واليدين بالطريقة الموضحة سابقًا ، ويقول المسلم: « قل أعوذ برب الناس » . بعد الانتهاء من هذه السور يسدل المسلم يديه ويقول : « نشهد أن لا إله إلا الله » . بعد ذلك يخفض رأسه وجسده قائلاً: « نشهد أن لا إله إلا الله. الله أكبر » . بعد ذلك يعود إلى القيام ويردد نفس الكلمات. بعد ذلك يجلس المسلم على ركبتيه فوق الملاءة ويقول : « اللهم إنك وعدت فى القرآن الكريم أن تسمع من يدعوك، وأن تستجيب لمن يعبدك. أنا عبد من عبيدك وقفت ببابك أطلب الجنة لى ولوالدىَّ والمؤمنين والمؤمنات » .

الذكاة أو الذبح :

لا يأكل المسلم لحم حيوان مات مخنوقًا ، لكنه يأكل مما ذبح . ولا تستطيع النساء أن تذبح فتحمل المرأة طيورها إلى رجل لكى يذبح لها . والرجل حين يذبح الطائر أو الحيوان يوجه وجهه إلى القبلة، و يختبر سكينه قبل الذبح ويقول عند الذبح « بسم الله » .

التعميد:

يضع المسلم حبات من القمح والشعير وقطعا من الذهب والفضة فى إناء ويصب عليها ماءً ساخنًا. يضع المولود وهو عارٍ فوق الإناء ويغمر جسده بالماء ثم يوضئه، ثم يلبسه ملابس نظيفة ويطلقان عليه اسمًا . بعد ذلك يضعان له غطاء رأس من الحرير ، ويأخذ الموجودون فى الحفل قطع قماش صغيرة ويسألون من يقوم بطهوره عن اسمه ويردد الآخرون الاسم، ثم يرفعون المولود جميعًا ويقولون بصوت عالٍ« لى لى لى لى »

وينزعون عنه غطاء الرأس ويضعون كتاباً بالعربية على فم وأنف وعين المولود وهم يقولون : « جعلك الله مؤمناً صالحاً » .

بعد ذلك ينزعون الذهب والفضة من الإناء وتأخذهما امرأة وتلقى بالماء تحت سرير الأم وهى تضحك (لا يتواجد الرجال فى هذا الحفل الذى يُقام فى اليوم السابع للولادة) .

الشهادة :

أى قول : « نشهد أن لا إله إلا الله » ، وهى كلمات يرددونها للمسلم الذى يموت لكى يحصل على الجائزة و يريه الله ملك الحسنات.

الهوامش

(١) انظر المجلد الأول ص. ٥٠٨ - ٥١٣

(٢) الدراسة الأساسية عن أداء الموريسكيين لشعائر الإسلام هى كتاب بدرو لونغاس "حياة الموريسكيين الدينية". وقد نشر غايانغوس - فى Memorial Histórico espanol, V - فصلا لفقيه سيغوبيا عيسى بن جابر يتعلق بالأوامر والنواهى الأساسية فى القرآن والسنة". انظر أيضا

Credilla " : Ceremonias de moros que hacen los moriscos ", en Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos.

الاتهام والحكم فى قضية نظرتها محكمة التفتيش ضد الموريسكى فرانثيسكو دى اسبينوسا (كوينكا عام ٦١ - ١٥٦٢) [1].

فرانثيسكو دى اسبينوسا مسلم متنصر حديثًا ، عُرض أمره علينا نحن أعضاء محكمة التفتيش الخاصة بجرائم الإلحاد التى تقع فى كوينكا وسيغوينثا وضواحيها.

......

حضر أمامنا كل من ممثل الاتهام السيد سانتوس والمتهم فرانثيسكو دى اسبينوسا ، وهو مسلم متنصر حديثًا من أهالى الإقليم .

وقد حضر ممثل الاتهام وقدَّم اتهامه لفرانثيسكو اسبينوسا المذكور وقال إن المتهم كان مسيحيًا يتمتع بكل الامتيازات التى يتمتع بها المسيحيون الكاثوليك إذ أنهم يخافون ربنا وأمه المباركة العذراء، لكنه ألحد وسب عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، وسب ما نصت عليه كنيسة روما، وارتكب جريمة الإلحاد هذه وتفوّه بكلمات مشينة ومنافية للاحترام ، خاصة ما يلى:

١ - بما أن فرانثيسكو دى اسبينوسا المذكور كان مسلمًا ثم تنصر وعُمِّد وعمره عشرون سنة وأنه - بتأثير من طائفة محمد اللعينة التى كان يعتنقها - قال وهو يشتكى زوجته إنه فى أرض المسلمين يتزوج الإنسان خمس أو ست نساء فإذا غضب من واحدة ذهب إلى الأخرى ويقول هذه أحبها وتلك لا أحبها، وأن المذكور كان يوافق عقيدة محمد التى تسمح للإنسان بالتزوج من نساء كثيرات.

٢ - وحيث أن المدعو فرانثيسكو دى اسبينوسا قد تحدث مع أشخاص آخرين عن الحرب التى كان المسيحيون سيخوضونها ضد المسلمين فقال إن هذه الحرب ضد

المسلمين لن تفيد شيئًا؛ لأن المسلمين أكثر عدداً من المسيحيين، ولأن كل مسيحى يذهب إلى الحرب يقابله خمسة عشر مسلماً. قال ذلك وهو مسرور يضحك وسعيد.

٣ - وحيث أنه قد تربى على عقيدة المسلمين، وقد أثبت أنه تظهر منه الأخطاء التى تعلمها قبل أن يتم تعميده إذ إنه حين كان يقول إن المسلمين قد انتصروا على المسيحيين. كان يقول ذلك وهو سعيد وكان يبدو من كلامه أنه مسرور لذلك وللنكبات التى حلت بالمسيحيين. (٢)

٤ - وحيث أنه استناداً إلى عقيدته الباطلة كان يقول - لمن يروى له إن سيدتنا العذراء قد أخرجت أحد الأسرى من أرض المسلمين - كان يردد « إنهم يدّعون أن العذراء حررت الأسرى وهم يطلبون منها أن تخرج لهم كنوزًا لكى يدفعونها لمن يذلونهم » .

٥ - وحيث أن فرانثيسكو دى اسبينوسا تحدث عن خسائر المسيحيين فى الحروب ضد المسلمين فقال إنه كان يعلم بهذه الخسائر لأن نبوءات القديس إيسيدرو لا يمكن أن تكذب (٣) .

٦ - وحيث أنه عندما كان بعض الناس يتحدثون عن شعائر المسلمين توجه المدعو اسبينوسا إلى شخص من أصل مسلم كان يرافقه وقال له : « ... ذلك كنا نعرفه ». قال ذلك وهو مسرور، ويُفهم أنه كان يقصد الشعائر الإسلامية.

٧ - وحيث أنه عندما كان فى مكان ما يباع فيه شراب وأحجار وقام شخص باختبار البضاعة بإبرة مرَّ المدعو اسبينوسا وقال لشخص من أصل مسلم كان معه « الآخر» فرد الشخص الثانى « نعم نعم » وقد فهم شخص ثالث رآهما أن ذلك معناه مجوهرات محمد ، لأنه كان قد قرأ ذلك فى تاريخ المسلمين (٤) .

٨ - وحيث أن المدعو اسبينوسا عندما كان فى أحد البيوت دخل شخص من أصل مسلم وقال إن المسلمين شرفاء، لم يرد عليه المدعو اسبينوسا بل ارتبك . وقد فهم من رأوه أنه ارتبك لما علم أن من سمعه ليس على دينه .

وحيث أن المدعو اسبينوسا عندما كان فى زيارة شخص مريض من أصل مسلم قال له المريض: «أهلاً بالمسلم الطيب. لو أن السلطان التركى لديه جنود كثيرون من أمثال هذا المسلم لاستطاع أن يفعل الكثير"، فلم يعترض المدعو اسبينوسا على الكلام الذى وُجه إليه.

٩ – وحيث أنه عندما كان يتحدث مع أشخاص قال «لدى قوادتان: الله والخنزير»، وأنه فى مرة أخرى قال « لدى قوادتان: الله وأبنائى » .

١٠ – وحيث أنه كجاحد لنعم الله فإنه قال : «ليس لدى الكثير الذى أشكر الله عليه» وأنه رغم أن الله أعطاه أشجار العنب إلا أن أبناءه لا يريدون العمل.

١١ – وحيث أن المدعو اسبينوسا كان موجوداً عندما كان أشخاص يقرءون فى أحد الكتب أشياء عن محمد ودينه اللعين وخاصة كيف استطاع محمد أن يتسيد على أراضٍ كثيرة وأن اسبينوسا لما سمعهم سُرَّ كثيراً .

١٢ – وحيث أنه عندما كان يتحدث مع أشخاص آخرين روى لهم أشياء عن دين محمد وقدم مدخلاً له وقال – فيما قال – إن المسلمين يسمون العذراء "مريم" وإنه إذا كان الله عظيماً وكريمًا فكيف ترك نفسه لكى يصلبه أشخاص دنيئون.

١٣ – وحيث أن اسبينوسا كان يتحدث مع آخرين فقال لهم : لولا محكمة التفتيش هذه لخرج الناس كلهم عن الكاثوليكية.

١٤ – وحيث أن المدعو اسبينوسا عندما كان يتحدث مع آخرين سألوه عما إذا كان للمسلمين صلوات، فطلب منهم أن يتركوه وأن الوقت ليس مناسبًا للحديث عن ذلك، ولما كرروا السؤال أجابهم " بكلمات عربية غير مفهومة".

١٥ – وحيث أنه قد أهان هذه المحكمة وكذب عليها حين قال تارة إنه لا يعرف شيئًا عن دين محمد وتارة أخرى قال إنه يعرف.

١٦ – وحيث أنه كان من المتواطئين مع الملاحدة ، إذ كان يعرفهم ولا يبلغ عنهم.

١٧ – وحيث أن اسبينوسا فى معرض الحديث عن حروب المسلمين ضد المسيحيين قال إنه سيحين الوقت الذى سيكون السعيد فيه هو من له قريب موريسكى

إذ سيتولى المسلمون الحكم فى غرناطة وإن هناك منجم يقول إن الملك المسلم سيدخل غرناطة من الباب الذهبى، وسيستولى على كل الأراضى، وسيحرق عظام الملكة إيسابيل الكاثوليكية وإنه سينثر الرماد فى الهواء (٥) . ولما قال شخص آخر « لا أراد الله أن تصلوا إلى ذلك » أجابه اسبينوسا « عندما يأتى المسلمون سيكون لمن له صديق موريسكى حظ وافر » . قال ذلك بسرور بحيث يفهم من كلامه أنه يفرح لانتصار المسلمين وهزيمة المسيحيين الكاثوليك.

١٨ – وحيث أن اسبينوسا – المتعاطف مع دين محمد – قال إنه لا يغضب ممن يسميه موريسكياً (٦) .

١٩ – وحيث أنه لما رمى شخص سهماً وقال : « انظروا، هكذا أرمى المسلمين فى الحرب » ورد عليه شخص قائلاً : « أنت مرهق، استدعوا موريسكية فى الرابعة عشرة فهى أفضل رمياً أو أشد قوة » فلما سمع اسبينوسا هذا الحوار غضب وسبَّ الأخير قائلاً : « هل ربى الموريسكى ابنته لكى يحضروها إلى هنا لتخدم ؟ » .

ولما كان اسبينوسا قد قال وفعل جرائم أخرى إلحادية ضد عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة – كما سيتضح عند نظر القضية – لذلك فإن ممثل الاتهام يطلب منا أن نأمر بمحاكمة المدعو فرانثيسكو دى اسبينوسا بكل قوة، وأن نعلن أنه ملحد وأنه متواطئ مع الملحدين؛ ولذلك فهو يقع تحت طائلة عقوبة الكفر الأكبر، وأن نصادر كل أملاكه، وأن نأمر بذلك اعتباراً من اليوم الذى ارتكب فيه هذه الجرائم، وأن نعلن أن أبناءه غير مؤهلين لتولى وظائف مدنية أو كنسية أو أية وظيفة عامة أو شرفية وفقاً لقوانين هذه المحكمة ، كما يطلب – بصفة خاصة – تطبيق أحكام القانون بشكل تام.

ولما تُليت على المدعو اسبينوسا مذكرة الاتهام هذه لكى يرد عليها قال إنها صحيحة، وذكر أنه اشتكى من زوجته فقال: " إن فى بلاد المسلمين يتزوج الرجل من خمس أو ست زوجات فإذا غضب من واحدة ذهب إلى الأخرى، ويقول الرجل أحب هذه ولا أحب تلك" ، وأنه لما قال تلك الكلمات كان يعتقد أن الدين الذى يبيح الزواج من نساء كثيرات دين جيد. وذكر أنه قال أيضاً : إنه ليس من المفيد الذهاب إلى الحرب ضد المسلمين لأن المسلمين أكثر عدداً من المسيحيين، وإن هناك خمسة عشر مسلماً

مقابل كل مسيحي وإنه كان مسروراً وهو يقول ذلك. وذكر أنه قال أيضاً إن المسيحيين يدعون السيدة مريم لكي تخرج لهم الكنوز. وذكر أنه أثناء الحديث عن خسائر المسيحيين في الحروب ضد المسلمين قال : " كنت أعلم ذلك لأن نبوءات القديس إيسيدرو لا يمكن أن تكون كاذبة، وهي تقول إنه ستكون هناك حروب". وذكر أنه لا يعرف من اللغة العربية سوى «الحمد لله رب العالمين» وأنه لا يدرى معناها (٧) . وذكر أنه ليس لديه الكثير الذي يشكر الله عليه لأن الله أعطاه أشجار العنب لكن أولاده لا يريدون الذهاب للعمل، وذكر أنه تحدث كثيراً عن دين محمد، وأنه قدم مدخلاً له وأنه قال إن المسلمين يسمون العذراء "مريم" وأنهم – أي المسلمين – يقولون إذا كان الله عظيماً وقوياً فكيف سمح لحثالة البشر بأن يصلبوه وإن هذا ما كان يردده آباؤه وأجداده. وذكر أنه قال إنه لولا محكمة التفتيش لترك الناس الكاثوليكية.

ولما كنا قد رأينا أن المدعو فرانثيسكو دي اسبينوسا لا يعترف بالحقيقة كاملة فقد أمرنا بإعطائه نسخة من مذكرة الاتهام هذه لعلها تساعده (على التذكر؟)، وقد قرأنا اعترافاته والاتهامات التي قدمت ضده، وقد أجاب وهو راض أنه يؤكد كل ما اعترف به وينكر الباقي... وقد أعلنّا الشهود وقدمنا صورة للمدعو فرانثيسكو دي اسبينوسا فاعترف بأنه تحدث مع شخص فسأله ما هو أفضل ما كان لديك عندما كنتَ تعمل في نقل البضائع؟ أجاب اسبينوسا « كانت لديَّ قوادتان: إحداهما الله الذي لا يرزقه طعاماً لأبنائه، والأخرى أبناؤه فهم كثيرون » ، وذكر أنه كان يتحدث مع شخص آخر عن حرب موستغان (٨) فقال له « يجب ألا يفكر المسيحيون في محاربة المسلمين... فلا يكفي العالم كله لمقاومتهم » وذكر اسبينوسا أنه ليست لديه أقوال أخرى يضيفها، وأنه يطلب المغفرة من الله ربنا، ويطلب منا أن تكون العقوبة تصحبها الرحمة . وقد قال محامي المذكور إنه اعترف وقال الحقيقة، وإنه يتمسك بها وينكر أي شيء آخر، وإنه ليس لديه ما يضيفه إلى هذه الدعوى.

ولما كانت القضية على هذا النحو ، ولما كنا نرى أن المدعو اسبينوسا لم يعترف بعد بالحقيقة كاملة فيما يتعلق بما ذكره الاتهام وما شهد به عدد كبير من الشهود، الذين يرغبون في خلاص نفوسهم وفي ألا يظل هو حبيس جرائمه.. لذلك فقد عدنا إلى تأنيبه، وأفهمناه أنه من الضروري أن يعترف بالحقيقة. وقد تأثر المدعو فرانثيسكو دي

اسبينوسا وأبدى رغبة طيبة وقال إنه يعترف بأنه كان مسلمًا حتى اليوم، وإنه كان يعتقد أن الإسلام دين طيب، وإنه يُدخل الجنة، وإن ذلك كان ما يجول فى صدره. وقال إنه رغم الذهاب مرات كثيرة لسماع الوعظ إلا أنه كان مسلمًا. وقال إن ما ذكره الشهود حق وإنه كان يرى أنه سيدخل الجنة باتباع دين محمد كما أن المسيحيين سيدخلون الجنة باتباع دينهم، وقال إنه اعتبارًا من اليوم سيلعن دين محمد وسيتنصل منه؛ لأنه يفهم أنه دين سيئ وإنه يتألم للإهانات التى وجهها إلى ربنا، وإنه يرجو ربنا أن يغفر له ذنوبه، ويطلب منا الرحمة لأنه من الآن فصاعدًا يريد أن يعيش ويموت على دين المسيح كمسيحى مخلص... رأينا كل ذلك كرجال قانون وأصحاب ضمائر سليمة، وقد وضعنا الرب نصب أعيننا فهو الحكم الحق والعدل.

الحكم:

نظرنا فى هذه القضية ورأينا أن ممثل الاتهام قد وجه اتهامه بشكل جيد، ورأينا أنه ثبت لدينا حُسن نيته، وبناءً عليه نعلن أن المدعو فرانثيسكو دى اسبينوسا كان ملحدًا؛ ولهذا فقد وقع تحت طائلة الحكم بالكفر الأكبر وتحت طائلة العقوبات الأخرى التى يُعاقب بها من يرتكب جريمة الإلحاد، ومنها مصادرة جميع ممتلكاته ، وهذا ما أمرنا به أن ينفذ اعتبارًا من اليوم الذى ارتكب فيه المدعو هذه الجرائم؛ أى منذ ستين عامًا .

لكننا نريد استعمال الرأفة معه وعدم تطبيق بنود القانون مراعاةً للاعترافات التى صدرت منه أمامنا، والتى أبدى فيها الندم على الجرائم التى ارتكبها، وبناء على رغبته فى التحول إلى عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة وقوله إنه على استعداد لأى عقوبة نصدرها ضده.

ومادام المدعو فرانثيسكو دى اسبينوسا سيتحول إلى عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة بقلب خالص، وبإيمان لا شك فيه. وبما أنه اعترف بالحقيقة كاملة وقد قبلناها منه وقبلنا المصالحة وضمه إلى الكنيسة وإلى المؤمنين المسيحيين، فإننا نأمر بأن تكون عقوبته على جرائمه التى ارتكبها أن يخرج يوم الموكب مع المذنبين الآخرين بملابس صفراء عليها شارة ، وأن يتلى عليه هذا الحكم، وأن يتنازل علنًا عن الممارسات التى اعترف أمامنا

بها، وعن كل مظاهر الإلحاد. بعد إعلانه ذلك نعلن الصفح، ونلغى إعلان إلحاده. كما نأمر بسجنه، وبأن يرتدى لباس المذنبين فوق أى شىء يرتديه ، وأن يكون حبسه فى سجن هذه المدينة، وأن يذهب كل يوم أحد وكل عيد إلى الكنيسة لسماع الوعظ مع المذنبين الآخرين، وأن يذهب كل يوم سبت فى موكب إلى كنيسة العذراء، وأن يصلى خمس مرات... كما نعلن عدم أهلية المذكور لتولى وظائف كنسية أو مدنية أو عامة أو شرفية، وعدم أهليته لحمل السلاح، ولا ركوب الخيل، ولا ارتداء الحرير أو التحلى بالذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة ولا بأى شىء محرم على فاقدى الأهلية طبقًا لقوانين الممالك أو لقوانين محكمة التفتيش.

هذا ما نعلنه ونأمر به بناءً على توقيعنا

صدر فى مدينة كوينكا فى الخامس من شهر يوليه لعام ١٥٦٢

الهوامش

(١) Archivo Diocesano de Cuenca, Leg. 218, num. 3670

(٢) يشعر الموريسكى أن بيئته الحقيقية هى العالم الإسلامى. سعادة الموريسكى بانتصارات الأتراك كانت تشكل مادة اتهام مستمرة له.

(٣) فسر المسلمون والمسيحيون على السواء نبوءات القديس إيسيدرو لصالحهم ، ففى كتاب *Prodicion y destierro de los moriscos de Castilla* يتحدث غوادالاخارا عن النبوءات التى تبشر بسيطرة المسيحيين على إسبانيا كلها فيقول: لقد تنبأ الكثيرون بذلك ، ومنهم القديس إيسيدرو الذى أساء الموريسكيون تفسير نبوءاته.

(٤) Guadalajara y Javier: *Prodicion y destierro* .....,fol 72.

(٥) كانت النبوءات التى تتحدث عن استعادة السيطرة السياسية كثيرة. لاحظ أن فرانثيسكو اسبينوسا لا يحاكم هنا بجريمة ضد الدين بل بسبب أراء "سياسية" ، بسبب شعور مخالف لشعور المسيحيين القدامى.

(٦) يحاول اليهودى المتنصر أن يتخلص من لقبه العائلى، وأن يندمج فى المجتمع المسيحى ، أما الموريسكى فهو يفخر بعائلته.

(٧) كان موريسكيو قشتالة بشكل عام – عدا الوافدين من غرناطة – يجهلون اللغة العربية.

(٨) تقع موستاغانم على سواحل الجزائر ، هى الموقعة التى انهزم فيها الإسبان أمام الأتراك عام ١٥٥٨ .

تنصير موريسكيي فالنسيا

في الحروب التي دارت في فالنسيا بين السادة والجماعات كان الموريسكيون - كأتباع للسادة - يعتبرون سنداً للسادة ، ومن ثم كان المتمردون يطاردونهم مطاردة شديدة. كانت إحدى الوسائل التي اتبعـــها المتمردون هي تعمـــيد المســـلمين حـتى لا يضطروا إلى دفع الضرائب لسادتهم. ويروي اسكولانو - في كتابه "عقود من تاريخ مدينة ومملكة فالنسيا" - يروي الأحداث على النحو التالي:

انتشر المتمردون في تلك القرى بحثًا عن المسلمين وعن سادتهم للقضاء على الجميع ، ولم يعفوا إلا عن المسلمين الذين كانوا يقبلون التعميد هرباً من الموت. كان أول من عمدهم المتمردون هم أهالي غانديا كباراً وصغاراً: عمدوهم بالسعف المغموس في ماء ساقية. قاموا بنفس الإجراء في كل قرى غانديا واوليبا وماركيزيه دينيا ، وكل القرى الأخرى حتى بولوب (١) .

كان موريسكيو ذلك المكان - خوفًا من النهب والتعميد - قد احتموا بالقلعة الحصينة ، وبعد عدة أيام من المقاومة استسلموا بعد أن عاهدهم المتمردون ألا يتعرضوا لهم بأذى إن هم قبلوا التعميد.

بناء على هذا العهد فتح الموريسكيون الأبواب وقبلوا التعميد. وبعد أن تم التعميد قتل منهم المتمردون ستمائة دون مراعاة للعهد الذي أعطوه وقالوا: "هكذا نرسل الناس إلى الجنة، ونرسل النقود إلى الخزانة".

(١) T. II, libro X, p. 690. Véase también García Cárcel y Ciscar Pallares : Moriscos y agermants ; Piles : Aspectos sociales de las Germanías de Valencia ; Danvilay Collado : Las Germanías de Valencia.

وبعد أن انتهت حروب الجماعات عاد المسلمون إلى دينهم. كانت القضية المطروحة آنذاك هي: هل كان التعميد صالحًا أم لا ؟ وما إذا كان من الواجب ترك المسلمين يعودون إلى دينهم.

في عام ١٥٢٥ حسم كارلوس الخامس القضية حين قرر تنصير موريسكيي فالنسيا ، وهو ما أدى إلى ثورات بنغواثيل وسيرا دي إسبادان.

اعتبارًا من ذلك التاريخ ستطرح للمناقشة بشكل واسع مسألة تعليم الموريسكيين الدين الجديد الذي لا يعلمون عنه أي شيء .

تعليم موريسكيي فالنسيا العقيدة الكاثوليكية

القرارات التى اتخذتها اللجنة التى رأسها فرانثيسكو دى نابارا بشأن تنصير الموريسكيين عام ١٥٦١ [1]

كانت البنود التى نوقشت بخصوص موريسكيي فالنسيا هى :

– أن يقوم الأعضاء أو ممثلوهم بزيارات كنسية، وأن يقوم بالزيارة فى كل أسقفية ممثلها حتى تنتهى الزيارات بسرعة، وأن يحملوا أثناء الزيارة رسائل من صاحب الجلالة إلى الأعيان بهدف تقديم التسهيلات لهم، وأن يقوم الموظفون الملكيون بمرافقة اللجنة حتى تتم الزيارة على النحو الأكمل ، وأن يجتمع فى فالنسيا أو فى مكان آخر مناسب كل من أسقف فالنسيا والقساوسة الذين لديهم موريسكيون، وأن تتم الزيارة بشكل رسمى.

– أن يحمل الممثلون أمرًا بوعظ وإقناع الموريسكيين بأن يعترفوا بذنوبهم، وأن يُعاملوا بكل رحمة .

– أن ينبه الممثلون الموريسكيين إلى أنه من الآن فصاعداً يجب ألا يصلوا صلاة المسلمين ، وألا يصوموا رمضان ، وألا يختنوا أبناءهم ، وألا يحتفلوا بالزفاف على الطريقة الموريسكية ، وألا يقيموا أية احتفالات موريسكية أخرى ، لأنهم إذا فعلوا غير ذلك ستعاقبهم محكمة التفتيش بمقتضى ما ارتكبوه من جرائم. سيكون من المفيد أن يتمكن الممثلون من إيفاد أشخاص إلى الأماكن الرئيسية لسماع اعترافات الموريسكيين، والصفح عن ذنوبهم.

– أن يتوخى الممثلون القيام بهذا العمل برقة بحيث لا يتأذى الموريسكيون وحتى يعيش هؤلاء كمسيحيين مخلصين ، وحتى يعتنق الموريسكيون العقيدة الكاثوليكية عن حب لا عن خوف.

– يلحق ببنود زيارة الكنيسة أو الأديرة ما يلي: أن يصدر الأمر البابوى سريعا بأن تكون لجنة الأديرة متنقلة ، وأن تتوزع اللجان الكبيرة بحيث تكون مساوية للجان العادية وأن يراعى ما ورد فى المجمع المقدس.

البند التاسع " ب " أن يغادر الفقهاء المملكة، وألا يتواجدوا فيها ؛ لأنهم يحبطون عمليات تعليم العقيدة الكاثوليكية، وأن تناقش كيفية طردهم مع النائب. وأن يحدث نفس الشيء مع القابلات ، وعلى النساء الحوامل أن يلدن بمعرفة مسيحية قديمة، وإذا لم تكن هناك مسيحية قديمة فليتواجد القسيس والعريف، وذلك حتى لا يقوم الموريسكيون بختان الأطفال.

– أن يُمنع الموريسكيون من القراءة والكتابة باللغة العربية وأن يُؤمروا بتعلم اللغة الشائعة فى المملكة.

نتيجة المشاورات التى أمر صاحب الجلالة أن يجريها كل من أسقف تورتوسا التى تسمى الآن تاراغونا ، والسيد ميراندا عضو محكمة التفتيش مع دوق ماكيدا

– أولاً القيام بزيارات كنسية فى جميع أنحاء مملكة فالنسيا، وأن يُعين الممثل أو الممثلون باسم صاحب الجلالة لكى ينفذوا أوامر الملك... وأن يكون للممثلين سلطة البابا أو سلطة رئيس محكمة التفتيش؛ لكى يمكنهم الصفح عن الجرائم التى يكون الموريسكيون قد ارتكبوها والعفو عن ماضيهم، وأن يعاقبوا مرتكبى الجرائم فيما بعد بشكل متعقل، وألا يكونوا مجبرين على تطبيق كل بنود القانون.

– أن يحمل الممثلون أوامر من صاحب الجلالة إلى كل الحكام ورجال القانون والضباط الملكيين والسادة وآخرين لكى يقدموا التسهيلات والمساعدة لإتمام الزيارة بحيث لا يسمحوا بأن تُقام في مجال سلطاتهم – ولا من قبل رعاياهم – حفلات المسلمين، وأن يأمروا بذلك، وأن يُعاقب المخالفون.

– أن يذهب الممثل وهو يحمل صفة عضو محكمة التفتيش، وأن يصحب معه الحجاب والمستشارين ، حتى لو كانوا من خارج محكمة التفتيش، وأن يذهبوا وهم يتمتعون بصلاحيات رئيس محكمة التفتيش، كما حدث فى السابق، ذلك حتى يكون لهم الاحترام الواجب، وحتى لا يتهاون أحد.

- أن يذهب المفتشون مع الممثلين (كلٌ فى أسقفيته) أو من يقوم مقام الأسقف، حتى يزوروا معًا الأماكن التى يجب زيارتها؛ ذلك لأنه لو لم يذهب الممثلون فلن يكون للزيارة الاحترام الكافي، وهذا ما نعلمه بحكم التجربة.

- أن يقوم الممثلون - بصحبة زائرى الكنائس - بزيارة الأديرة والأماكن المتواجدين فيها لكى يروا ما إذا كانت هذه الأديرة ظاهرة ، إذ إنها عندما بُنيت أُتُفق على أن تتم زيارتها لإبداء الرأى حول ما يجب تغييره وما إذا كانت ظاهرة.

- التحرى عما إذا كان المسؤولون مقيمين وما إذا كانوا أشخاصًا شرفاء وأكفاء، وما إذا كانت الكنائس مزخرفة وبها الأشياء اللازمة لأداء العبادة ، ويراعى عزل المسؤولين الذين ليسوا أكفاء وتعيين غيرهم من ذوى الكفاءة ، و تزويد الأماكن القديمة بمن يتولى إقامة الشعائر.

- التحرى عن الإيرادات التى كانت تدخل المساجد سابقًا ، والتى هى حاليًا فى حوزة السادة وأشخاص آخرين ، وقد خُصصت هذه الإيرادات بعد تنصير المسلمين للكنائس. إعادة هذه الإيرادات، وتقديم حائزيها للمحاكمة إن هم رفضوا إعادتها، واتخاذ إجراء مع كل من يعرف شيئًا عن هذه الإيرادات ولا يبوح به .

- زيارة المتنصرين حديثًا، والوقوف على طريقة معيشتهم، والقضاء على الشعائر الإسلامية التى يؤدونها ، وهى شعائر ثبت أنهم يؤدونها ، وذلك من خلال زيارة قام بها ميراندا عضو محكمة التفتيش، وإقناعهم بتعميد أبنائهم وبألا يختنوهم ، وبألا يطلقوا عليهم أسماء إسلامية وأن يعترفوا وأن يذهبوا لسماع الوعظ ، وأن يحتفلوا بالأعياد التى وضحت لهم عند تعليمهم العقيدة الكاثوليكية ، وأن يعيشوا كمسيحيين ، وأن يُعاقب الفقهاء ومن يجرون عمليات الختان ومن يفدون من الجزائر وغرناطة وقشتالة وأراغون.

- إصدار الأوامر بأن يتعلم المتنصرون حديثًا العقيدة المسيحية على يد القساوسة، واستدعاء الأطفال - بل والكبار إذا أمكن - فى ساعة معينة من النهار لتعليمهم.

– تعيين الحُجاب والنُظار لمراقبة تنفيذ التعليمات المذكورة ، وأن يتمتع هؤلاء الحُجاب والنُظار بحماية محكمة التفتيش والممثلين ، وأن يتمتعوا كذلك بكل مزايا نظرائهم ، وذلك بمنحهم مرتبات مجزية، والحق فى قبض ربع الغرامات التى يحصّلونها.

– إصدار الأمر ببناء كنائس فى القرى التى ليس بها كنائس يُلقى فيها الوعظ، وتزويد هذه الكنائس بالقساوسة والخدم، وإذا كانت القرى خطرة فتسلم الكنيسة إلى سيد القرية مع اتباع الاحتياطات التى أمر بها ميراندا عضو محكمة التفتيش لدى زيارته الكنسية.

– أن تكون للممثلين سلطة توقيع الغرامات على المجرمين، وأن توجه حصيلة هذه الغرامات لبناء الكنائس وللصدقات على فقراء القرى؛ حتى لا يظن المسلمون أننا نفعل ذلك للاستيلاء على أموالهم، ولكى يخافوا من العقوبة.

– بما أن بعض المتنصرين حديثًا هم من وجهاء القوم ويرغبون فى أن يتمتعوا بحماية صاحب الجلالة وحماية محكمة التفتيش ، وحيث أنهم عنصر جذب لترغيب الناس فى اعتناق المسيحية وبدونهم لن تتم الزيارة على الوجه الأكمل ، فمن المناسب أن يكون من بين المتعاونين معنا بعض هؤلاء الوجهاء ، لأن هؤلاء الوجهاء يؤثرون فى حياة العامة.

– أن تكون للممثلين سلطة توقيع الجزاء على المسيحيين القدامى إذا أهانوا المسيحيين الجدد وأطلقوا عليهم لقب " المسلمين الكلاب" بدلاً من " الموريسكيين" وهذا قد حدث وعلمنا به .

– أن يُعاقب الممثلون بعض السادة الذين يقيم رعاياهم حفلات الزفاف وغيرها على الطريقة الموريسكية، والذين لا يسمحون لخدم الكنيسة بإبلاغ محكمة التفتيش عن ذلك (٢) .

– أن يستعلم الممثلون عن الأسلحة التى يمتلكها المتنصرون حديثًا ، إذ يُقال إنه بعد جمع السلاح منهم ظلت هناك أسلحة كثيرة مخبأة.

– حيث أنه فى بعض القرى التى يقيم بها متنصرون حديثًا قد شيدت مساجد وزوايا يجتمع فيها الموريسكيون، ويؤدون شعائرهم، ويقومون ببعض الأعمال المحظورة يعصون فيها الله وصاحب الجلالة، ويضرون فيها بمصلحة هذه المملكة، فيجب أن يكون للممثلين سلطة هدم تلك الأماكن أو تحويلها إلى كنائس أو أى شىء آخر يرونه، وأن يمنعوا اجتماعات الموريسكيين، وأن يصادروا منهم المصاحف وكتب السنة وكل الكتب والأدوات الممنوعة والتى يؤدون بها شعائرهم.

– أن تبدأ الزيارة الآن فى الشتاء فى الأماكن القريبة من البحر ، وأن تستمر فى الصيف فى الأماكن البعيدة عن البحر تجنبًا للأخطار الموجودة فى السواحل.

– أن يصطحب الممثلون معهم أثناء الزيارة مبشرين مسيحيين وأشخاصًا من الوجهاء وممن يعرفون اللغة العربية ، فإن لم يجدوا فليبحثوا عنهم فى أماكن أخرى، حتى يقوم هؤلاء الأشخاص بتعليم الموريسكيين العقيدة الكاثوليكية، وأن يراعوهم فيما بعد ، رغم أنه يمكن الاستعانة بالأديرة الموجودة فى هذه المملكة وهى كثيرة ، كما يمكن الاستعانة بالبعض فى إخبار الممثلين بما يقع لاتخاذ الإجراءات اللازمة.

– أن يجرى الممثلون التحريات فى الأماكن التى يزورونها طبقًا لنموذج التحريات الموجود لدى ميراندا عضو محكمة التفتيش، وألا يوجّه الممثلون أسئلة سطحية لا تتعلق بمهمتهم كما رأينا سابقاً، وإذا رأى الممثلون إضافة أو حذف سؤال فيمكنهم ذلك بحيث لا يتعارض ذلك مع محكمة التفتيش، وبحيث لا يضر ذلك بالسادة ولا بالمتعاونين ، فكل هؤلاء يجب أن يكونوا راضين عن هذا العمل.

– أن يهتم الممثلون بالمدرسة التى أمر صاحب الجلالة بتشييدها فى مملكة فالنسيا لتعليم أبناء المتنصرين حديثًا من أبناء هذه المملكة، وأن يسألوا المعلم، وأن يتحروا عن الأطفال وعما يعرفونه والمواد التى يدرسونها، وحيث أن بعض الآباء وبعض الأشخاص قد حاولوا ويحاولون إخراج الأطفال من هذه المدرسة بحيث يذهبون إلى قراهم ويعودون إلى ممارسة دين آبائهم .... فعلى الممثلين تنبيه الآباء إلى إعادة الأبناء والأمر بأن تقبلهم المدرسة وأن يهتموا بهذه المدرسة حيث أنه قد ارتكبت أخطاء فى الماضى ولم يتم الاستفادة من المدرسة على الوجه الأكمل.

– حيث أن الممثلين الذين عينهم صاحب الجلالة كانوا دائمًا من المقيمين في مدينة فالنسيا ولم يقوموا إطلاقًا بزيارة القرى الموريسكية، مما أدى إلى نتائج سلبية ، فيجب من الآن فصاعداً ألا يكتفى الممثلون بالإقامة فى فالنسيا، بل عليهم أن يذهبوا لزيارة قرى الموريسكيين فى هذه المملكة لأن هذا الإجراء مفيد.

– على الممثلين عند زيارتهم للقرى أن يحملوا معهم نقوداً لتوزيعها على فقراء المتنصرين حديثًا ؛ لأن ذلك سيرغبهم فى اعتناق المسيحية.

– أن يعين الممثلون فى كل قرية يزورونها شخصًا من المسيحيين القدامى إن وُجد، فإن لم يوجد فليكن شخصًا من المتنصرين حديثًا، يقوم على أمر تشييد الكنائس والدخول إليها والخروج منها بالتنسيق مع خادم الكنيسة ، وأن يكون للاثنين إذن بجمع الصدقات لتشييد الكنائس فى زمن حصاد القمح والعنب وجمع الزيت والحرير، وأن يساعدا المتنصرين حديثًا.

– أن يكون للممثلين تصريح من قبل جلالة الملك حتى يتمكنوا من الإذن للمتنصرين حديثًا – ممن ذهبوا إلى بلاد المسلمين – بأن يعودوا إلى مملكة فالنسيا إذا أرادوا أن يعيشوا كمسيحيين، بأن يعودوا دون خوف على حياتهم أو على ممتلكاتهم. وأن تكون للممثلين سلطة الصفح عن الجرائم التى يكون الموريسكيون قد ارتكبوها رغم أى حظر سابق ، على أن يعترف الموريسكيون بما فعلوه؛ وأن يبدوا الندم على ما فعلوه فى الماضى.

نعرض فيما يلى أحد التقارير التى أرسلت من مدريد إلى مجلس القساوسة وعلماء اللاهوت المجتمعين فى القصر الملكى فى فالنسيا . يلخص هذا التقرير الخطوات التى تم تنفيذها من أجل تعليم الموريسكيين العقيدة الكاثوليكية، والخطوات التى يجب اتخاذها اعتبارًا من الآن للحصول على أفضل النتائج.

بعض الوسائل المفيدة لتنصير موريسكيى فالنسيا [٣]

أولاً : من الضرورى جداً أن يكون من يتصدى لمباشرة عملية التنصير مقتنعا بإمكانية ذلك [٤] ، لأن عقيدتنا المقدسة قوية جداً وتتحلى برحمة الرب العظيم، وفى كل

الأماكن التى اتُبع فيها هذا المنهج قد حركت قلوب الملحدين والكافرين ، كما يحدث الآن فى أماكن كثيرة وكما حدث فى هذه المملكة مع الموريسكيين الذين استجابوا لوعظ بعض المبشرين المتدينين ، رغم أن هذه الاستجابة قد اختفت سريعًا لعدم اتخاذ الوسائل المناسبة.

إذا قيل إن هذا المنهج قد اتُبع معهم بوسائل كثيرة وطيبة، وإنه رغم ذلك لم يفد، نجيب أن هذا ليس سببا كافيا لليأس من إمكانية علاج هؤلاء المرضى ، فمن المؤكد أنه لم تُتخذ الإجراءات المناسبة ، بل كان العلاج خاطئًا ، فرغم أن المرض كان فى القلب إلا أن العلاج قد وضع فى مكان خارجى آخر، وهذا ما أبطل مفعول العلاج ، بل جعل المرض يستفحل . وهكذا فإن إجبارهم على سماع الوعظ وأمور أخرى لا يُجدى إلا إذا كسبنا قلوبهم، بل على العكس فإن إجبارهم على سماع الوعظ قد أغضبهم أكثر وحملهم على الثورة، وهذا ليس غريباً، فإذا كانوا غير مؤمنين فإن جعلهم يسمعون الوعظ لا يُعتبر طاعة لله، بل هو إهانة خطيرة للدين.

ولكى نفهم ذلك بشكل أفضل وباختصار فإننا سنسرد هنا ما اتُبع مع الموريسكيين. فى عام ١٥٢٥ أمر الإمبراطور كارلوس الخامس طيب الذكر بأن يخرج كل المسلمين من هذه المملكة فى ظرف شهر إذا كانوا لا يريدون التنصر. ولما كان الخروج من المملكة يضرهم أرسلوا اثنى عشر مسلمًا إلى صاحب الجلالة للحصول على فترة سماح أخرى متعللين بأن الكثيرين منهم سيتنصرون بشرط ألا تتدخل محكمة التفتيش فى شئونهم لمدة أربعين عامًا، وهذا ما سمح لهم به السيد ألونسو مانريكى أسقف أشبيلية ورئيس محكمة التفتيش ، وعلى ضوء ذلك فقد تم إرسال ممثلين فى زيارات كنسية للقرى الموريسكية.

ولما كان زعماء الموريسكيين قد قالوا إن الموريسكيين جميعًا يريدون التنصر؛ فقد عمدوهم بشكل جماعى دون محاولة تعليمهم بشكل فردى ودون معرفة رغبتهم الحقيقية، بحيث أن البعض منهم – كما هو ثابت – قد أقام دعوى أن ماء التعميد لم يمسه لأن القسيس كان ينثره عليهم جماعة. بهذه الطريقة كانوا يتركون الموريسكيين دون قساوسة ودون مبشرين؛ ولهذا ظلوا متمسكين بدين محمد اللعين كما كانوا من قبل.

بعد ذلك فى عام ١٥٢٣ أرسل إلى الموريسكيين ممثلين رسوليين فعمدوا ١٢٢ شخصاً، وأعطوا كل شخص ثلاثين جنيهاً ، لكن الموريسكيين لم يقبلوا وحتى اليوم لم يستلموا النقود. بعد ذلك عقدت جلسات لمناقشة كيفية معالجة هؤلاء الناس التعساء، ولم يحدث أبداً أن تم تنفيذ وسائل للتنصير ؛ وهكذا فإنه بشكل عام لم يتم تعليمهم الإنجيل وفق احتياجهم ، بل لم يتم التركيز سوى على إجبارهم على سماع الوعظ، وعلى أمور خارجية، وكانوا يجبرون على ذلك بالسباب، وبتوقيع العقوبات عليهم وبإعدام بعضهم. من هنا نفهم بوضوح أن عدم علاج هؤلاء المرضى حتى الآن لا يمكن تفسيره باستحالة علاجهم بل بخطأ نوع العلاج. وهكذا يتضح أيضاً أن من عليهم القيام بهذه المهمة لم تنته مسئوليتهم أمام الله بعد، لأنهم لم يتخذوا الوسائل التى أمر الله باتخاذها لعلاج هذا المرض. وحتى لو لم ينتج عن أداء المهمة شيء آخر سوى تبرئة القائمين على المهمة أمام الله لكان من الضرورى بذل كل الجهود اللازمة لذلك ؛ لأن سبب وجود هذا المرض يعود إلى عدم اقتناع القائمين على هذه المهمة بهذا الأمر.

يجب أن ننتبه أيضاً إلى أنه برغم أن المهمة ليست مستحيلة إلا أنها صعبة التنفيذ؛ لأن الموريسكيين أشد عناداً من مسلمى البربر ؛ فقد صمموا على انتهاك الحرمات المقدسة وعلى ارتكاب الذنوب المخالفة لعقيدتنا المقدسة؛ ولهذا فمن الضرورى اتخاذ وسائل أكثر فعالية من الوسائل التى تم اتخاذها حتى الآن، وعلى كل المسئولين – صغاراً وكباراً – أن يتحدوا من أجل هذا الهدف وإلا فلن نجنى من أى نشاط سوى إضاعة الوقت.

الوسيلة الأساسية التى حددها ربنا للتنصير هى التبشير بالإنجيل ، وقد أمر بأن يستعمل الناس هذه الطريقة، وهذه هى الطريقة التى استعملها ربنا كما هو ثابت فى إنجيل مرقس. من هنا نفهم بوضوح أن ربنا يريد أن نستخدم هذه الطريقة نفسها الآن لتنصير الناس فى الهند(*) وفى أماكن أخرى. وكذلك يجب البحث عن مبشرين ذوى عقيدة قوية، ومن ذوى السمعة الطيبة، ومن المخلصين للتبشير، وممن ليس لهم

(*) هى أمريكا الجنوبية وكانت تسمى الهند لاعتقاد كولون أنه وصل إلى الهند (المترجم) .

هدف آخر سوى تنصير الكفار والمذنبين، وأن يعظوهم بحب ورفق وبما يتفق مع احتياجاتهم؛، أى أن يضع المبشر فى اعتباره أن هؤلاء الناس لا يؤمنون بعقيدتنا بل يخالفونها؛ أى أن تكون هناك طريقة خاصة لتنصير الموريسكيين لأن الطرق المتبعة حتى الآن فى الكنائس لم تحقق أية فائدة. سيكون من المفيد كذلك أن يصطحب المبشرون معهم بعض الموريسكيين ممن تعلموا فى مدرسة (فالنسيا). إن وجودهم سيكون ذا فائدة نظراً لإجادتهم اللغة العربية، ولأن الموريسكيين يحبونهم لأنهم من أهلهم، وبما أن هذه الوسائل تتطلب مصروفات فمن الضرورى أن يأمر صاحب الجلالة الكنائس بالإنفاق لأنها مجبرة على ذلك.

ومن أجل مقابلة الناس – وهو أمر ضرورى لإتمام هذه المهمة – يجب أن نضع فى الاعتبار أن أسقفية فالنسيا وحدها بها ١٤١٠٠ أربعة عشر ألفًا ومائة موريسكى موزعة على ٣٩٩ قرية منها قرى مجاورة للوديان ، ٤٦ منها يختلط الموريسكيون فيها بالمسيحيين القدامى، وأن هناك ١٨٥ لجنة مخصصة لكل هذه القرى.

من المهم جداً للحصول على فائدة من عمليات التبشير أن تتم العمليات فى وقت واحد حتى لو تطلب ذلك استدعاء مبشرين من ممالك أخرى؛ ذلك لأنه لو تم الأمر بالتدريج فإن المسلمين الذين يتنصرون فى مكان ما سيحاولون – بالدهاء والتخويف – إثناء الناس عن التنصر ، وهذا نعلمه بحكم التجربة. ولأن بعض الموريسكيين – بحكم عملهم فى نقل البضائع – سيمشون بين بنى قومهم لإقناعهم بعدم التنصر فسيكون من المفيد حظر انتقال الموريسكيين من مكان إلى آخر خلال فترة التبشير.

سيكون من المهم كذلك أن تقوم محكمة التفتيش باعتقال الفقهاء قبل بدء عملية التبشير ؛ حتى لا يتسبب هؤلاء فى إحباط العملية، وألا يعتقل أشخاص آخرون خلال عملية التبشير بل أن يكون الجو كله وداً، فإذا أبدى أحد الموريسكيين معارضة شديدة فليُعتقل – ولكن بتهمة أخرى – بحيث لا يُنظر إلى التبشير على أنه شيء بغيض.

ولكى تؤتى عملية التبشير ثمارها فسيكون من الضرورى أن يتمتع المبشرون بالصلاحيات الثلاث التالية :

أولاً: أن يكون من حقهم عدم شكوى الموريسكيين إلى محكمة التفتيش إذا شاهدوا أو سمعوا شيئًا ، وأن يعلنوا للعامة أن هدفهم ليس تقديم الشكاوى ضدهم بل معالجة أسباب الشكوى إن أمكن ، ولخلاص أرواحهم، وأن يكون من حق المبشرين التعامل بحرية مع الموريسكيين والرد على أسئلتهم دون أن تقدم ضدهم شكوى ، وأن يتحدث المبشرون مع زعماء الموريسكيين، في لقاءات خاصة ، وأن يردوا على شبهاتهم ؛ لأنه لو تنصر الزعماء فسيكون من السهل جداً تنصير الباقين.

ثانيًا: أن تكون للمبشرين صلاحية الصفح عن كل الذنوب الخاصة بالضمير ، لأننا لو قلنا لمن يريد أن يتنصر إنه يتحتم عليه أن يعرض على محكمة التفتيش لكي يعترف ويبرأ من تهمة الكفر فسيرد بأنه لن يذهب إلى محكمة التفتيش إطلاقًا لأنه يخشاها، وإذا حكى هذا الشخص ذلك للآخرين فلن يأتي أحد للاعتراف إلا إذا كان للخداع وإخفاء الحقيقة، وهكذا سيكون الموريسكيون مقتنعين بأن العملية مجرد تبشير واعتراف كذريعة لتقديمهم إلى محكمة التفتيش.

ثالثًا: أن يكون من حق المبشرين إعفاء من يتنصر من واجب إبلاغ محكمة التفتيش عن أخطاء الآخرين ضد عقيدتنا المقدسة ؛ لأن القسيس عندما يقول للموريسكي إن عليه واجب الإبلاغ عن أخطاء الموريسكيين فسيخاف ، لأن هؤلاء أهله وأصدقاؤه ، وسيبلغون أهلهم وأصدقاءهم وسيؤدي ذلك إلى بث الرعب لدى الناس؛ لذلك من المهم إعفاء الموريسكيين لبعض الوقت من هذا الواجب. من المناسب كذلك أن يكون بإمكانهم الاعتراف أمام الممثلين دون أن يتعين على الموريسكيين الذهاب بعيداً. إذا لم تُمنح هذه الصلاحيات الثلاث بأمر من البابا أو من رئيس محكمة التفتيش، فمن المؤكد أن أي شخص عاقل لن يذهب للتبشير، وإن ذهب فسيعود محملاً بالأحزان والتحفظات.

سيكون من المناسب أن يُزود المبشرون بكل ما هو ضروري بحيث لا يتحمل الموريسكيين أية تكاليف ، لأن هؤلاء المساكين إذا رأوا أن هناك من يستغلهم فسيظنون أن عملية التبشير تتم من أجل مصالح خاصة ، ولما كان ذلك عائقًا أمام اعتناق

المسيحية، فسيكون من المفيد تخفيف العقوبات المادية، وعدم بناء كنائس على نفقة الموريسكيين، وألا توجه تركات نويهم إلى الكنائس أو إلى الأعمال الخيرية، لأنهم يتضررون من ذلك، وأن يتعقل السادة عند فرض الضرائب ، بل يجب أن يحمل المبشرون معهم صدقات لتوزيعها على فقراء الموريسكيين. من الضرورى - خاصة إذا تعين على هؤلاء دفع مبالغ مادية كتكفير عن ذنب ارتكبوه مخالف للدين - ألا يُسمح لهم بذلك بل أن يُشرح لهم أننا لا نسعى إلى تحصيل أموالهم بل إلى خلاص أرواحهم. إذا فشلنا فى ذلك فقد خسرنا كل شيء لأنهم حينئذٍ سيفهمون أن التنصير يهدف إلى الاستيلاء على أموالهم.

من الضرورى كذلك أن يأمر صاحب الجلالة السادة الذين لهم نفوذ لدى الموريسكيين بأن يولوا هذا الأمر اهتمامًا شديداً، وأن يتواجدوا فى قراهم أثناء فترة التبشير، فإذا لم يتمكنوا من ذلك طيلة الوقت فلينيبوا عنهم أشخاصًا من ذوى الورع والقوة، وأن يمنحوهم صلاحياتهم، وعلى هؤلاء- بالحب وبتقديم النموذج - أن يحاولوا أن يحضر الجميع الوعظ - خاصة النساء فهُنّ أكثر عناداً - وأن يوقروا من يُبدى دلائل على اعتناق المسيحية، خاصةً من يقنعون غيرهم باعتناق المسيحية. ذلك لأننا نخشى ألا يساهم السادة فى عمليات التبشير ظنًا منهم أن الموريسكيين لو ظلوا على وضعهم الحالى فسيكونون أكثر فائدة لهم. من المناسب أن يفهم السادة أن الموريسكيين سيتم طردهم إن هم لم يتنصروا.

إذا حدث أثناء عملية التبشير إن أبدت قرية بكاملها رغبةً فى التنصر الجماعى فسيكون من المفيد أن يُطرد من القرية الأشخاص الذين لم يرغبوا فى التنصر، وإذا كان الذين يتنصرون قليلين فسيكون من المناسب إقناعهم بلطف بالانتقال إلى مكان آخر يكونون فيه آمنين ويُستقبلون فيه بترحاب ، وسيكون من المناسب لهم جميعًا أن يتقبلوا القربان المقدس لكى تكون لهم القوة المعنوية للصمود أمام إغراءات الشيطان، وإذا حدث أن انتهى الوقت المناسب للتبشير وظل هناك بعض المعاندين فيجب أن يُعاقبوا، أو يطردوا من إسبانيا؛ لأنهم فى وقت وجيز سيهدمون كل ما فعله المبشرون فى وقت طويل ، ويجب كذلك أن يُنزع من هؤلاء المعاندين أطفالهم الذين لم يبلغوا سن

الرشد، والأولاد الذين بلغوا سن الرشد، ويريدون أن يتنصروا، وإذا ظل بيننا أشخاص مسلمون فيجب التفكير فى الطريقة التى يقدم لهم بها قربان الزواج، وكيف يحضرون الوعظ مع أنهم ملحدون، وكيف يُدفنون فى مدافن المسيحيين، وكيف نترك لهم الأولاد الذين تم تعميدهم والذين هم فى عهدة الكنيسة، مع العلم بأنهم سيحاولون التشويش عليهم وأن هذا الوضع سيؤدى إلى زيادة انتهاك الحرمات المقدسة، وإذا لم يُعالج الوضع فيخشى أن يرسل الله ربنا على إسبانيا عقابًا كبيرًا.

ولكى تتم عملية التبشير بشكل جيد ولكى تستمر فائدتها فمن المناسب استعمال وسائل خاصة أخرى: منها تعيين قساوسة من ذوى العقيدة القوية والأخلاق القويمة، وهذا لن يحدث إلا إذا نفذنا قرار منح المتنصرين مكافآت، وهو قرار اتخذه قداسة البابا وصدق عليه.

ينبغى تشييد كنائس ولو متواضعة تكون صالحة وبها زخارف ؛ لأن وضع الكنائس حاليًا يدعو إلى فقد العقيدة لمن هو غير راسخ فيها بدلاً من اكتساب العقيدة لمن هو فاقدها؛ ولذلك يلزم تخصيص ثلاثين ألف دوقية وافق عليها قداسة البابا وصاحب الجلالة لهذا الغرض. كما يجب أن يكون فى كل كنيسة ومدفن مقبرة أو مقبرتين لدفن موتاهم، وهكذا تنتهى الشعائر اللعينة التى يؤديها الموريسكيون عند دفن الموتى. يجب زيادة دخل المدرسة الموجودة هنا لتعليم أبناء الموريسكيين، وتشييد مدارس أخرى فى أسقفيات أخرى، وأن يُعهد بها إلى اليسوعيين ، فهم سيديرونها بلباقة وحب بحيث تعود بالفائدة على مدارسهم فيما بعد. كما يجب أن يقيم فى كل قرية بعض الأسر المسيحية القديمة يكون من بين أفرادها معلم يعلم الأطفال القراءة ومعلمة تعلم البنات الأعمال المنزلية، ويقوم هؤلاء بتعليم العقيدة الكاثوليكية بعد ذلك. ينبغى أن يستفيد السادة والمسيحيون القدامى من أبناء المتنصرين حديثًا، وأن يعاملوهم بلطف وأن يختاروا من بينهم خدمًا للكنيسة.

لكى يتم تنفيذ كل ذلك فمن الضرورى بعد إتمام عملية التبشير تعيين عدد من الزائرين يتجولون فى القرى الموريسكية، ويسجلون أمام كاتب شرعى بيوت المتنصرين

حديثًا وأسماء الأشخاص الذين يقيمون فيها، وأن يسألوا كل شخص عن أمور العقيدة، لا عن الصلوات فحسب. يجب أن يعهدوا أمر من لا يعرفون إلى القسيس فيكتبون له قائمة بهم، ويحتفظون هم بنسخة من القائمة. يجب أن يقوموا بزيارة بيوتهم، وأن يضعوا لهم تماثيل فيها، وأن يعطوهم صدقات، وأن يجمعوهم فى الكنيسة لتعليمهم مبادئ العقيدة المقدسة. يجب أن يعود الزائرون بعد ذلك لسؤال القسيس عن تطور عملية التعليم. يجب أن يقوم الزائرون والقساوسة بإزالة أى أثر للمساجد بحيث لا يبقى لها ذكر، وكذلك الحمامات فى البيوت ومحال الجزارة الخاصة بالمسلمين إن كانت لا تزال موجودة، وإزالة أى شىء قد يؤدى إلى قيام الموريسكيين بأداء شعائرهم الضالة.

يجب أن يكون هناك حُجَّاب من بين المسيحيين القدامى لهم سلطات أوسع من السلطات التى يتمتعون بها حاليًا. يجب أن يكونوا معروفين لدى محكمة التفتيش، وأن يقوموا - مع القساوسة - بتسجيل أسماء الأطفال الذين يتم تعميدهم، وأن يفحصوهم بين الحين والآخر لأن كل الأطفال تقريبًا فى الوقت الحاضر قد أجريت لهم عملية الختان. وفى شهر رمضان يجب أن يدخل الحجاب والقساوسة فجأة ساعة الغداء فإذا لاحظوا أن أهل البيت يصومون فعليهم إبلاغ محكمة التفتيش. يجب أن يكون الحجاب مفوضين من قبل المحكمة لتنفيذ ما يرى القساوسة أنه ضرورى لمصلحة المتنصرين حديثًا.

وبما أن البعض قد يتهاون فى القيام بالأعمال التى يُؤمر بها فمن الضرورى تواجد مبعوث رسولى يخصص له راتب - بمعرفة الأسقفيات - يراقب ما يمكنه مراقبته ويستعلم عما لا يعرفه، ويحاول معالجة الأخطاء بإخلاص وحمية دينية، ويحاول تنفيذ كل ما سبق.

سيكون من المفيد كذلك الاطلاع على بعض التعليمات التى أصدرها فى هذا الشأن بعض القساوسة الذين اجتمعوا منذ سنوات هنا وفى أماكن أخرى ، واستطلاع رأى الذين يتعاملون مع موريسكيين ، فلابد أنهم يعلمون الكثير عن هذا الأمر رغم أن التعليمات السابقة لو نفذت بغيرة دينية وتقوى لوهبنا الرب أضواء جديدة فى هذا

الشأن، كما أن التجربة نفسها ستساعد. ندعو أن يجعل الرب كل شيء يسير بحيث يؤدى إلى خلاص نفوس هؤلاء التعساء، ويؤدى إلى حلول الأمن فى إسبانيا. آمين.

المذكرة التى قدمها الراهب نيكولاس ديل ريو إلى فيليبى الثالث والمؤرخة فى فالنسيا فى ١٣ يونيه عام ١٦٠١ بشأن تعليم الموريسكيين العقيدة الكاثوليكية وتصرفاتهم مع محكمة التفتيش (٥)

مذكرة

سيدى التقى :

فى مرات كثيرة ومتعددة ، لما رأى الملوك الكاثوليك وسادتنا كارلوس الخامس وفيليبى الثانى طيب الذكر - بغيرتهم على الدين وبقلبهم المسيحى، يحركهم نشر عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة وديننا المسيحى - لما رأوا بوضوح عناد المتنصرين حديثًا فى مملكة فالنسيا هذه وفى أراغون وقطالونيا ومرسيه، وأنهم متمسكون بعقيدتهم السيئة، فقد حاولوا علاج الأمر، ومن أجل ذلك عُقدت اجتماعات عديدة ، خاصة ذلك الاجتماع الذى دعا إليه صاحب الجلالة فى مدريد عام ١٥٦٤ . ورغم أن هذه الاجتماعات قد تمخض عنها صدور قرارات تهدف إلى تعليم الموريسكيين العقيدة المسيحية، وتزويدهم بمن يعلمهم، إلا أننا رأينا أن ذلك كله لم يكن له أثر كبير لأنهم فى الحقيقة يعيشون الآن متمسكين بعقيدتهم السيئة علانية، ويسخرون من مقدسات الكنيسة كما يتمسك المسيحيون بعقيدتهم الكاثوليكية المقدسة. إن حياتهم السيئة وصلت إلى حد أنهم لهم مساجد مليئة فى القرى يذهبون إليها - كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً - لممارسة شعائرهم، وأسوأ شىء وأشد إيلامًا للنفس هو أن قُدامى المسيحيين والمسيحيات يذهبون إلى هذه المساجد ويشوش الموريسكيون على أفكارهم فيتحولون إلى الإسلام ، وهناك حالات كثيرة من هذا النوع أمام محكمة التفتيش. إن

الموريسكيين يقومون بذلك بمهارة لدرجة أن من يعلمون بهذا الأمر لا يستطيعون البوح به إلا بدموع حارة، ولما كان مندوبو محكمة التفتيش يعلمون ذلك ويرونه بأعينهم، ولما كنت أريد طاعة الرب وجلالة الملك ومصلحة المسيحية فقد تجرأت على كتابة هذه المذكرة لكى تتفضلوا سموكم بالاطلاع عليها ومعالجة هذا الأمر وإلا أكون قد برأت ساحتى ولهذا أقول ما يلى:

رغم أن هذه الاجتماعات تمخض عنها اتخاذ قرار بإمدادهم بالمعلمين لوضوح أهمية ذلك، ولأن الموريسكيين أنفسهم كانوا يقولون إنهم ليس معهم من يعلمهم ، وهذا لا يجب أن يصدقه أحد لأنهم لو كانت لديهم الرغبة فى الإيمان بالرب فلديهم خدم للكنيسة فى كل مكان، ولأن أكثر الناس دراية بأمور عقيدتنا المقدسة هم الفقهاء وهم الذين يساندون المسلمين، ولو أننا زودناهم بمعلمين فقد رأينا أن ذلك لم تكن له فائدة ، وهكذا نرى عناد الموريسكيين، فرغم حصولهم على قرارات لصالحهم إلا أن عدد من أرادوا التنصر والاستفادة من المنح لم يزد على ستة أفراد ، بل وقد لوحظ أن هؤلاء الأفراد كانوا يعودون إلى الإسلام كما أتوا منه ، كما لوحظ أن اعترافاتهم كانت مزيفة، فكانوا لو اعترفوا بممارسة شعيرة يخفون ممارستهم لشعائر أخرى كثيرة وإذا اعترفوا على أنفسهم كانوا يخفون ممارسة النساء والأبناء والأقارب والجيران لنفس الشعائر. من كل هذا يتضح أن السبب يكمن فى عناد الموريسكيين وليس فى عدم وجود معلم معهم. أستطيع أن أؤكد لسموكم أننى فى خلال الثمانية والعشرين عامًا التى قضيتها فى العمل لم أر شخصًا (موريسكيًا) واحدًا يمكن أن أثق فيه.

هناك فى محكمة التفتيش طرق عديدة لتحديد الأسباب وخطوات العلاج ؛ من هذه الطرق أن يأتى بعض الأشخاص ممن يخشون أن يُتهموا، ويعترفون اعترافًا مزيفاً، فإذا اعترفوا بالصيام لا يعترفون بممارسة شعائر أخرى، ولا يتحدثون عن أسرهم ولا عن أى شخص آخر. يتم التصالح مع هؤلاء الذين يعترفون ثم يعودون إلى بيوتهم مسلمين كما كانوا من قبل.

وهناك أشخاص آخرون يتم إلقاء القبض عليهم ولا يوجد سوى شاهد واحد، فيخضعون لعملية تعذيب ثم تسقط القضية. هؤلاء يعودون إلى قراهم ويخبرون الآخرين

أنه حتى لو ألقى القبض عليهم فلا يجب أن يعترفوا ، فمن الأفضل تحمل ساعة من التعذيب خير من السجن إن هم اعترفوا.

وهناك أشخاص آخرون يشهد عليهم أربعة أو خمسة شهود ويتعرضون للتعذيب ثم يودعون فى السجن لمدة ثلاث أو أربع سنوات، بعد ذلك يعودون إلى بيوتهم ويعتبرهم الناس أبطالاً ورموزًا(٦) . وهناك أشخاص يقدمون اعترافات ناقصة ويتم التصالح معهم ويودعون فى السجن الدائم ويعيشون فى السجن بشكل أسوأ مما يعيشون فى بيوتهم، لكن أشخاصًا آخرين من المقتنعين بالإسلام يهونون الأمر عليهم قائلين إن من يُعاقبون لأنهم مصممون على الإنكار قليلون. وهكذا يضيع منهم الخوف واحترام الله ومحكمة التفتيش. ولكى يُوجد هذا الخوف ولا يُهان الرب على مرأى من الكاثوليك فسيكون من المناسب الاستماع إلى شهادة أشخاص متدينين وذوى مصداقية مثل أعضاء محكمة التفتيش، والكتبة الذين يعملون لدى محكمة التفتيش، أما فى القرى التى يسكنها الموريسكيون فيمكن الاستماع إلى شهادات وجهاء ومثقفين يعرفون الموريسكيين ، وعلى هؤلاء الوجهاء إبداء رأيهم فى تدين الموريسكيين وحسن سلوكهم.

يمكن لأعضاء محكمة التفتيش اختيار ثلاث أو أربع شهادات ، فلديهم علم بكل الشهادات، وكل شيء يوجد شاهد واحد عليه. يجب جمع هذه الشهادات وبناءً عليها يجب أن يُعذب المتهم ، لأنهم لا يعترفون على أنفسهم كما يفعل الآخرون. يجب أن يُودع كل منهم السجن وقتًا مناسبًا، وأن يأمر صاحب الجلالة قادته بإطلاق سراحهم عندما يطيعون الأوامر، وأن يُطرد البعض خارج المملكة لأن أقسى عقوبة لهم فى الحقيقة هى طردهم من أرضهم وديارهم.

يجب أن يكون هناك سجن دائم للنساء والضعفاء لا يخرجون منه أبدًا لأى سبب إلا بأمر سموكم... ويجب على كل من يخرج من السجون السرية إذا كان غنيًا دفع غرامة قيِّمة لكى نبنى فى السجن كنيسة يلقى فيها الوعظ ولتعيين معلم ذى خبرة وحسن خلق لتعليم الناس ومراقبة نشاط الجميع ، ويجب تعيين عمدة للقرية من بين من نثق فيهم ، وأن يتقاضى الجميع مرتبات يدفعها الموريسكيون.

إذا رأيتم بناء السجن وشراء بيوت مملوكة لمحكمة التفتيش - وهى رخيصة لأنها موجودة فى أفقر أراضى فالنسيا وبها أفنية وهى مجاورة لمحكمة التفتيش - فليكن بالسجن قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء.

يمكن أن يُشيد هذا السجن دون أن تتحمل محكمة التفتيش شيئًا لأنه فى الوقت الحالى هناك رجال ونساء من ذوى الثروة يمكن أن تعرض عليهم غرامات تزيد على ألفى دوقية سيدفعونها عن طيب خاطر حتى لا يودعوا السجن أو يُطردوا ، ويمكن إلقاء القبض كل يوم على أشخاص آخرين.

إذا قال الموريسكيون إنه لا يمكن فرض عقوبات عليهم بناء على اتفاقهم مع محكمة التفتيش فهذا الاتفاق ضارّ لأنه يؤدى إلى أن يعيشوا بشكل سيء كما يعيشون الآن. إن تقسيم محكمة التفتيش به ٢٤٢٦١ بيت يعيش فيها ٩٨٩٠٨ شخص (هذا إحصاء السيد/ فيليبى دى تاسيس ممثل محكمة التفتيش عام ١٥٩٤) .

هذه البيوت تدفع كل عام ضرائب قدرها خمسين ألف راتب أى ٢٦٣٠٠ ريال تقريبًا ، ورغم أن القرى التى لا تدخل فى الاتفاقية قليلة جدًا ، ورغم أن الضرائب التى يدفعها كل بيت لا تتجاوز ريالاً ونصف ريال تكون الأسرة بمقتضاها آمنة من نزع ملكيتها وتستطيع العيش بحرية وتمارس شعائرها الإسلامية علانيةً، فحتى لو حصلت غرامات لبناء السجن فهذا لن يمثل شيئًا ، خاصة إذا كان البيت ملكهم.

سيكون من المفيد جدًا تحصيل ما يدفعه المحكوم عليهم بالسجن ثم الطرد مقابل إطلاق سراحهم.

يجب أن يراعى خادم الكنيسة أن يعيش المعاقبون بشكل مسيحى وأن ينبه على الذين لم يعترفوا بعد لكى يعترفوا، لأنهم لو اعترفوا بذنوبهم وأرشدوا عن إخوانهم فستستعمل سموكم معهم الرأفة وسنخرج بعضهم من السجن لتشجيعهم. هكذا سيتقدم الكثيرون للاعتراف وسيكون ذلك مفيداً جداً وسيتنصر الكثيرون ممن لم يجد معهم التعنيف، وممن يأملون فى تفضل سموكم ومنحهم الحرية، وسيعتنقون عقيدة ربنا.

من الواضح أن الموريسكيين لا يخشون شيئًا إلا الخروج من أرضهم وديارهم ، فلو هُددوا بذلك فسيؤدى التهديد إلى أن يعيشوا خائفين ومتدينين. ورغم أن ذلك لا يبدو أنه يمثل علاجًا وعقابًا لمن يستحقون العقاب ، إلا أنه علاج مناسب لحين وجود علاج أنسب.

أهم إجراء ينبغى اتباعه مع الموريسكيين هو انتزاع الفقهاء والفقيهات منهم ، وهم موجودون بكثرة، وكذلك القابلات ، لأن هؤلاء جميعًا هم الذين يشجعون المسلمين ، وانتزاع الكتب والأوراق العربية منهم حتى لو كانت خاصة بالطب. وأن تعين محكمة التفتيش حجابًا يتمتعون بسلطات أعضاء المحكمة.

يبدو أن محكمة التفتيش عاجزة عن إلقاء القبض على الفقهاء فى الواقع لأن الحاجب عندما يذهب إلى أى قرية لإلقاء القبض على فقيه فإن القرية يكون لديها علم فينتقل الفقيه من قرية إلى أخرى ، ونظرًا للمعاملة الطيبة التى يتبادلونها بينهم فإن القرية الجديدة تخفى الفقيه بحيث تعجز محكمة التفتيش عن إلقاء القبض عليه ، ومن المؤكد أننا لو ألقينا القبض على الفقهاء فسيكون أمر تنصير الموريسكيين سهلاً.

يوجد فى دائرة محكمة التفتيش هذه قرية اسمها شيا لا يعيش بها مسيحى واحد. لها بابان يغلقان عليها وبها مرتفعات يستخدمونها للمراقبة ، والبيوت ينفذ بعضها إلى بعض ، ورغم وجود شهود كثيرين فليس من الممكن إلقاء القبض على أحد ولا يجرؤ عضو محكمة التفتيش على الدخول إلى القرية ولو دخل فسوف يقتلونه. إن سكان القرية على درجة من العناد، حتى أن حاجبًا من طرويل معه أمر من محكمة التفتيش أفلت منهم بأعجوبة بعد أن أصابوه بجروح بالغة. وإذا ألقى القبض على أحد من القرية فذلك لأنهم يلقون القبض عليه وهو فى طرويل أو فى البرازين. وهذه هى الصعوبة فى إلقاء القبض على الفقهاء فى قرى المسلمين.

إن أسوأ شىء يجب أن تتفضل سموكم بعلاجه هو أن محكمة التفتيش لديها علم بأنه لما أريد إلقاء القبض على بعض الفقهاء والموريسكيين الآخرين هدد سادة القرى أعضاء المحكمة بأنهم لو ألقوا القبض عليهم فإن رعاياهم سيقتلونهم، فهذا ما يفعله

الموريسكيون. والشيء الواضح والحقيقي هو أنه لو أن أحداً أخبر عنهم محكمة التفتيش فإنهم يقتلونه بعد ذلك بأيام قليلة ، وقد حدث في عيد القديسة لوثيا الماضي أن قتلوا معلم سوت ، ومنذ سنوات قليلة قتلوا شخصاً من كوفرينتيس، وقبل ذلك قتلوا أشخاصاً في غانديا وأوندا وفي أماكن أخرى لدرجة أن أحداً لا يجرؤ على الحضور للشهادة أمام محكمة التفتيش ، وهكذا يكون من الصعب إلقاء القبض على المتهمين إذا كانوا من الفقهاء.

ولكي تستطيع محكمة التفتيش القيام بمهامها المقدسة والضرورية فسيكون من المفيد أن تتفضلوا سموكم بمعالجة الأمر في قرية شيا المذكورة؛ وذلك بمراعاة أنه إذا تم إرسال أعضاء محكمة التفتيش والحجاب لإلقاء القبض على شخص ما ولم يمكن إلقاء القبض عليه أن يتم التنبيه على رجال القانون ومسئول الجماعة بضرورة تسليم المتهم وإلا توقع عليهم غرامة قدرها مائتا دوقية، أو العقوبة التي ترونها ، على أن يتم تنفيذ العقوبة بصرامة ، وعلى أن يكون من حقهم تحصيل الغرامة من الشخص الذي كان مطلوباً، وأن يُنفذ هذا الإجراء مع الموريسكيين حتى لو كانوا من الفقهاء.

كل من لا يمثل أمام محكمة التفتيش – سواء من قرية شيا أو من القرى الأخرى، خاصة الفقهاء والفقيهات – يجب أن يقوم أعضاء محكمة التفتيش بمحاكمتهم غيابياً، ويعاقب من تشملهم الاتفاقية بغرامات تحصل لصالح سجن الرأفة ، أما من لا تشملهم الاتفاقية فتكون عقوبتهم مصادرة ممتلكاتهم، وأن تُنفذ العقوبة بشكل صارم ، لأنهم إذا علموا بأمر البحث عنهم فإنهم يتغيبون ويختبئون في منازل مجاورة، بل في منازلهم دون أن يعاقبوا ، وهذا شيء لابد من تجنبه.

إذا وافقتم على طلبنا ألا تتم محاكمة الموريسكيين أمام محكمة تفتيش فالنسيا بشكل علني، بل إذا كانت هناك عشرة قضايا أو اثنتا عشرة قضية يتم الحكم فيها داخل الكنيسة، فإن ذلك يسهل الأمور كثيراً ويوفر النفقات التي يتكلفها عقد المحكمة بالخارج.

رغم أنكم قد ترون أن طريقة السجن هذه شائكة إلا أنها فى الحقيقة ليست كذلك، بل هى سهلة ، لأن محكمة التفتيش هذه بها الآن ستمائة سجين منهم مائة وخمسون فقيهاً وفقيهة من المشهورين . ورغم أن بعضهم لم يشهد عليه إلا شاهد واحد إلا أن هذه الشهادة معتمدة ، فإذا ألقينا القبض على الكثيرين فإنهم سيعترفون وسيرشدون عن آخرين. والآن يوجد من بين السجناء نفر من الأثرياء يريدون تجنب مصادرة ثرواتهم إن هم أودعوا السجن العادى أو إذا تم نفيهم... هؤلاء لن يرفضوا دفع الغرامات.

فى الحقيقة فإن سجن الرأفة التابع لمحكمة التفتيش هذه يحتاج إلى النظر فيه بشكل ضرورى، لأن الأشخاص الذين يودعون فيه يعيشون فيه بنفس الحرية التى يجدونها فى بيوتهم ويمارسون شعائرهم، لأنهم لا يجدون من يمنعهم من ذلك ولأنهم جميعًا مسلمون ، أما النساء اللاتى يودعن فى هذا السجن فيفقدون شرفهن وتتحول بعضهن إلى بغايا ، ولذلك فإننا لا نجرؤ على إيداع النساء السجن.

ها أنا قد تجرأت على طرح ذلك أمامكم وإعلامكم بمدى الحرية التى يعيش فيها هؤلاء المسلمون ، ولا يقتصر الأذى الذى يسببونه على إقناع كثير من المسيحيين القدامى باتباع دينهم السيئ. أسأل الرب ألا يكون من يتعاملون معهم من النبلاء ، لأن المصلحة الخاصة والرذيلة يؤثران كثيراً.

الراهب نيكولاس ديل ريو.

الهوامش

(١) انظر كـتـاب برونات Los moriscos espanoles ، الجـزء الأول ص. ٤٢٥- ٩٢٥. حـول تعليم الموريسكيين العقيدة الكاثوليكية راجع كتاب مارتين دى أيالا.

(٢) كان سادة أراغون وفالنسيا يحمون رعاياهم الموريسكيين مما سبب لهم مشاكل عديدة مع الحكومة المركزية ومع محكمة التفتيش

(٣) Boronat: Los moriscos espanoles...,t. II,p. 493 - 99. .

(٤) لاحظ البداية الغريبة للنص. كان المسيحيون القدامى على وعى بفشلهم فى عملية تنصير الموريسكيين.

(٥)Boronat: Los moriscos espanoles...,t. II,pp. 444 - 49

(٦) كانت العلامة التى يجبر الموريسكيون على وضعها مثار فخر لهم ، فهى تعنى ثباتهم على دينهم الإسلامى .

قضية السيد/ سانشو دى كاردونا

نسخة من القضية التى نظرتها محكمة التفتيش فى فالنسيا ضد السيد/ سانشو دى كاردونا أدميرال أراغون المتهم بحماية الموريسكيين وإبقائهم على دينهم الإسلامى (١) .

تبدأ هذه القضية الشهيرة بنقل شهادات قديمة كانت لدى محكمة التفتيش ضد أدميرال أراغون السيد سانشو دى كاردونا. كان الشاهد الأول هو السيد/ لويس مانريسا الذى أكد فى ١٤ أغسطس ١٥٤٠ أن السيد/ خوان دى كاردونا شقيق الأدميرال تحدث معه لكى ينفى ما كان قد اعترف به، وذكر أنه قد استجاب له، "ز فى السابع والعشرين من شهر مارس عام ١٥٤٠ أُحضر من السجن وأدلى بشهادته من جديد. رأى السادة أعضاء المجلس فى ٩ سبتمبر ١٥٤٠ أنه يجب أن يعدل عن شهادته. وفى رسالة أخرى بتاريخ ٢٥ نوفمبر قالوا: اطلعنا على شهادات كل من السيد/ فيرناندو دى إيخار والقاضى ميديس حول ما حدث فى البلدية وما نتج عنه ضد الأدميرال ، وسيكون من المناسب أن نضيف هذا إلى ما ذكره مانريسا وأن نحفظ هذه المعلومات إلى أن يحين وقت الحاجة إليها، من المهم جمع كل المعلومات الممكنة حول هذا الموضع ضد أى شخص ، وذلك لرفع دعوى ضده فى الوقت المناسب ، وإذا كان ميديس أو الأدميرال أو أى شخص آخر قد قال إنكم يا دكتور أورتيث قد حصلتم على معلومات من هذا المجلس ضد زميلنا ، فهذه المعلومات غير صحيحة؛ ولذلك فلدينا أسباب للشك فيها.

نفى ميغيل دى ميديس أنه أدلى بأقوال أمام خوان غونثاليث عضو محكمة التفتيش تتعلق بالأدميرال. إن غونثاليث نفسه هو مصدر هذه المعلومات.

(١) Apud Boronat: Los moriscos espanoles.....,pp. 443 - 469

وقد أعلن ميغيل ثاراغوثا فى ٦ مارس ١٥٤٢ أنه يقوم بتعليم المتنصرين حديثًا فى بال دى ألكالا منذ ست سنوات وحتى الآن، وأن هناك قريتين مجاورتين لبال دى ألكالا تتبعان الأدميرال، وفى الوقت الذى كان فيه سكانهما مسلمين كان الناس يؤدون الصلاة فى مسجد بال دى ألكالا ، وبعد أن عُين الشاهد كمعلم حاول جلب الناس لحضور الوعظ مثل غيرهم من سكان بال دى ألكالا ، كما سعى إلى أن يعمدوا أطفالهم. ولما كان الشاهد يضغط عليهم لتعميد أطفالهم فقد لجأوا إلى الأدميرال وطلبوا منه أن يتفضل بمخاطبة النائب العام لكى يوافق على ذهابهم إلى بال دى سيتا لسماع الوعظ ولتعميد الأطفال؛ وهو مكان بعيد عن القريتين، وليس به خدم كنيسة ولا يعمدون فيها أحدا، ولا يلقون فيها وعظًا ، وقد وصلت إليه هذه المعلومات لأن كاتبًا شرعيًا من بناغيلا يدعى فينويار أخبره بكتاب من النائب العام يأمر فيه بألا يتدخل أحد فى شئون القريتين، وأنه منذ بضع سنوات حتى الآن وُلد فى القريتين أطفال ويعلم أنهم لم يُعمدوا ، ولما أراد أن يستعلم عن الموريسكيين فى بال دى سيتا قالوا له إنه منذ سنوات لا يدخلها قسيس ولا يعمد فيها أطفال، و أضاف أن كل المتنصرين حديثًا فى هذه المملكة والمسلمين والعرب الذين يأتون من الجزائر يصلون أولاً إلى بال دى سيتا لدى السيد/ رودريغو دى بيامونتى للاسترشاد فيرشدهم المدعو رودريغو ، وهكذا يصلون إلى هنا ثم يتوجهون إلى بالوب حيث يرشدهم السيد/ غاسبار سانس ومن بالوب يبحرون، وهذا عرفه الشاهد لأنه عاش فى بال دى ألكالا التى يصلون منها إلى بال دى سيتا ورأى أكثر من ألف شخص يمرون من خلالها إلى بال دى سيتا ورأى أشخاصًا يصلون من بال دى سيتا وغواداليت إلى بلانيس لكى يرافقوا بعض موريسكيى قرية مارغاليدا (التابعة لبال دى بلانيس) وقد رآهم الشاهد يذهبون إلى بلانيس ويعودون برفقة أهل القرية وهم يحملون الأسلحة . وقد رأى الشاهد كذلك تصريحًا وقعه السيد/ رودريغو دى بيامونتى فى حوزة موريسكى من أوليبا سافر إلى الجزائر. إن كل الموريسكيين الذين يتحدثون يقولون إنه أمرٌ معلوم تمامًا فى هذه الناحية أن كل من يسافرون يرشدهم السيد/ رودريغو دى بيامونتى أو السيد/ غاسبار سانس وبعد ذلك يستقلون قوارب فى الليل من هناك حتى سيغوربى طبقًا لما سمعه من الموريسكيين أنفسهم ، فهم يقولون إن القوارب تضىء البحر ليلاً

وإن النار ترد على موقع فى جبل غوادالیت يُسمى أيتانا ، وهذا الجبل تنبعث منه نار رَداً على نار تنبعث من سيتا وبلانيس، ومن هذا الجبل إلى أماكن أخرى حتى سيغوربى. يقول التصريح « أنا/ رودريغو دى بيامونتى نائب عام بال دى سيتا وغوادالیت - بناء على أوامر سيدى الأدميرال - آمر بعبوركم بصحبة الزوجة والأبناء والملابس منطقة بال دى سيتا وغوادالیت لكى تأتوا للعيش فيها ... » ، وهكذا يصلون ويستقرون إلى أن يجدوا فرصة لركوب السفن والمغادرة. وهذا ما يحدث يوميًا بحيث لا يبقى أحد يعيش فى هذه الناحية . وأنهى الشاهد حديثه قائلاً: إن هذه السُفن تحصل مبلغ دوقية واحدة أو اثنتين أو ثلاثة حسب شخصية الراكب. وذكر الشاهد أنه قسيس من ألكالا.

فى ١٧ يوليه عام ١٥٤٤ أدلى بالشهادة الراهب بارتولوس دى لوس أنخيليس، مبشر ومترجم وموفد إلى المتنصرين حديثًا ، فقال إنه لدى وصوله إلى غورغا ، وهى بلدة الأدميرال كاردونا ، للتعميد ولزيارة الموريسكيين تحدث مع السيد رودريغو دى بيامونتى، وأفهمه أنه سيقوم بالتعميد فى الناحية فأرسلوا إلى الموريسكيين فى مليانة ، وقد أخبرته ليكون شاهداً على التعميد والتبشير ، وبينما كنت أسير برفقة ابن السيد رودريغو ويُدعى السيد/ بدرو قالوا له إنهم مشمئزون من مجيئه ، وبعد أن أطلعهم على القرارات التى كان يحملها قالوا له إنهم يرغبون فى حضور الأدميرال ، وقد أرسل الشاهد رفيقيه لكى يخبر أسقف سيغوبيا. وقد حدث مع الأدميرال أنه لما كان الشاهد فى قرية تابعة لكونثينتاينا اسمها مورو جاء شخص يُدعى فينويار خادم الأدميرال قال له إنه جاء لكى يمنع التعميد والتبشير . ولما سُئل عن السبب أجاب: لأنهم يظنون أنكم ما جئتم إلا لتعميدهم وذبحهم، فإذا عمدوهم الآن فسيغادرون المكان، وسيفقد الأدميرال دخله وسيفقد صاحب الجلالة أحد كبار رعيته كما سيفقد خمسين فارسا وخمسين مقاتلاً راجلاً كان سيقدمها إليه سيدى عند الطلب، وقال الشاهد إن عليه إتمام عملية التعميد حتى لو انهار العالم ، وهكذا انصرف وذهب إلى التبشير. أخبره مويّان بلقائه مع الأسقف ، ولما سأل ميغيل فينويار لماذا لا يذهبون للتعميد فى بالوب فقد ساروا إلى هناك ، وفى الطريق التقوا بموريسكى من القرية وافق على التعميد . وهكذا وصلوا إلى القرية وعمَّدوا أهلها جميعًا وعادوا إلى مكانهم وقال فينويار للشاهد

«يا سيدى لقد عُمدنا» . طلب منه قائمةً بأسماء المعمدين ونظر فيها وحملها معه . وسار نحو قرية بال فوجد مائة وثمانين شخصًا لم يُعمدوا، ورافقه السيد/ بدرو دى بيامونتى وقال له : «لقد قال هذا إنكم لن تأتوا إلى هنا مرة أخرى ولكى لا تدخلوا إلى هنا فقد جمع من القرية مبلغ ٢٨٠٠ دوقية ، ولما رفضوا الدفع فى البداية قال لهم: ادفعوا ، ادفعوا فقد طردت لكم الراهب من هنا، ولن تتعرضوا لمحكمة التفتيش ولن يأتى إلى هنا راهب آخر ولا أدميرال آخر لكن افعوا لى لكى أحرركم، ولكى تعيشوا كما تحبون» . وقال لهم الشاهد فى أول موعظة ألقاها فى مليانة مساء يوم أحد « قال لكم ميغيل فينويار إننى لن آتى ولن أجرؤ على الدخول، هاأنتم تروننى هنا، حيث جئت بفضل الله، قولوا له يأتى لكى يمنعنى فأنا لا أخشى الأدميرال، ولا أخشى أى شخص آخر إلا الله، وحتى لو أمر الإمبراطور بألا أبشر فلن أترك التبشير». فى تلك الليلة بقى الشاهد للمبيت فى بال دى سيتا وقال السيد/ بدرو « حتى الآن كان الشيطان ينام على هذا السرير، والآن ينام الملك » . قال ذلك لأن فينويار هو الذى كان ينام قبل ذلك ثم نام الشاهد.

هذه الشهادة أكدها خادمه خوان دى ميراندا وعمره تسعة عشر عامًا.

وأكد غابرييل مونيوث فى ١٣ مارس عام ١٥٦٣ - كخادم لأدميرال أراغون - أن الأدميرال لم يعترف منذ عشرين عامًا ، وأنه عندما كان يحين الأسبوع المقدس كان يذهب إلى مكان اسمه بيتشى، وكان يعود ليلة العيد.

وأعلن ميغيل خوان دى توريس أنه فى بال دى غوادااليت وفى القرى الأخرى المجاورة يعيش المتنصرون حديثًا كمسلمين، وأنه كان لهم مسجد فى مكان ما فى بال دى غوادليت اسمه أدثانيتا . وكانوا يذهبون إليه لأداء الشعائر الإسلامية.

وأكد أنطونيو خوان أثنار - قسيس وراعى بال دى سيتا - أن كل الموريسكيين المقيمين فى دائرته يعيشون كمسلمين ، وأن مسجد أدثانيتا قد أُعيد بناؤه بأمر من الأدميرال. وكان الشاهد قد رسم عدة صلبان فى المسجد، وعلى إثر ذلك كانت له حوارات مع الأدميرال. وأضاف أن المسلمين فى هذه القرى يمارسون شعائرهم بثقة لا مثيل لها فى هذه المملكة، ويقيمون احتفالاتهم، ويوقرون أعيادهم علانيةً، وكلهم - كبارًا وصغارًا - مختتنون ويؤدون شعائر المسلمين دون خوف.

وأكد فيرناندو دى أوردونيا خادم الأدميرال أن هذا الأخير قد أصدر أمرًا بإعادة بناء مسجد ادثانيتا، كما أكد أن الموريسكيين في هذه القرى يعيشون كمسلمين ويؤدون شعائر المسلمين .

أما فرانثيسكو بيريث دى تيران - كاتب بيتشى الشرعى - فلم ير الأدميرال يعترف، ويضيف أن موريسكيى بيتشى يعيشون كمسلمي الجزائر.

ويؤكد بدرو سانشو - وهو كاتب كنسى - أن الأدميرال لا يعترف منذ سنوات بل إنه لم يعترف طوال حياته.

وقال ميغيل دى براديس إنه عندما اعتقلت محكمة التفتيش بعض الفقهاء وأحرقتهم ابتعد الموريسكيون عن بعضهم البعض، ولم يكونوا يجتمعون أبدًا كما كان يحدث فى السابق، وكانوا أذلاء، وعندما سافر بعض الأعيان إلى العاصمة لرفع المعاناة عنهم نشطوا وعادوا للاجتماع كما كانوا يفعلون من قبل.إن هذه الحماية كان وراءها كل من الأدميرال والسيد/ خايمى ثينتياس والسيد/ فرانثيسكو دى بورخا ودوق سيغوربى الذى يثق فيه الموريسكيون جداً.

وأكد خوان خوست - وهو قسيس من بلدة بيا إيرموسا - قضية إعادة بناء المسجد، وأن بعض الموريسكيين من سيغوربى كانوا يذهبون للسهر فى المسجد.

ويصف فرانثيسكو أنطونيو - وهو من مدينة الجزائر - الشعائر التى كان الموريسكيون يؤدونها، وكيف كانوا يعلمون أبناءهم.

واعترف فرانثيسكو ريباس ، وهو تونسى متنصر حديثًا، ومن بلدة بناغواثيل ، بأنه عندما ذهب إلى غواداليت أدى الشعائر الموريسكية، وصلى صلاة الحمد فى المسجد.

وقال فرانثيسكو تاريغا وهو دكتور فى القانون إنه عندما تحدث مع السيد/ سانشو دى كاردونا حول تعليم المتنصرين حديثًا والموريسكيين من أبناء هذه المملكة، رأى أن الأدميرال فكر فى أن يسافر أحد رهبان دير المبشرين - من أبناء المدينة ومفاوض جيد - أن يسافر على نفقة الموريسكيين إلى روما لكى يُعلم صاحب القداسة أن تعميد الموريسكيين كان تعميداً إجبارياً، وذلك حتى لا تتخذ إجراءات محاكمتهم أو محاكمة الآخرين. وإنه سمع من الأدميرال أنه قرر أن يسافر موريسكى اسمه نابارا

– وهو مسلم صفحت عنه محكمة التفتيش وقدم إلى قشتالة هذه الأيام – أن يسافر إلى السلطان التركى لكى يحاول أن يوجه السلطان رسالة إلى البابا يقول له فيها إنه بما أنه يسمح للمسيحيين بأداء الطقوس المسيحية، فمن المنطقى أن يدع المسيحيون المسلمين يؤدون الشعائر الإسلامية، وأنه إذا لم يحدث ذلك فسيضطر إلى أن يجبر المسيحيين فى تركيا على اعتناق الإسلام... وأنه لما تحدث عن أمور فرنسا قال: «لو أن لى أراضٍ مجاورة للحدود الفرنسية لحاولت معالجة أوضاع الموريسكيين، وذلك بالسماح بدخول الثائرين هناك – اللوثريون على ما أذكر – فإذا دخلوا إلى إسبانيا وقاموا بنشاط فلن يتحدث أحد عن نشاط الموريسكيين» .

فى ٢٥ مايو عام ١٥٦٨ اعترف لويس نابارو المتنصر حديثًا بصحة واقعة أن موريسكيين من هذه المملكة قدموا إلى هذه المدينة للحديث مع كونت بنابنتى ومع الموريسكيين الآخرين لكى يأذنوا لهم بالذهاب لتقديم شكوى إلى صاحب الجلالة يقولون فيها إن تعميدهم تم بشكل قسرى ، وإنهم لا يريدون أن يكونوا مسيحيين (رغم أن ذلك لا يقولونه بشكل مباشر واضح) ، وأضاف الشاهد أن الأدميرال نصحهم بالذهاب إلى الملك لطلب العدل، وذكر أن الملك سيستمع إليهم فإذا لم يستجب لطلبهم فليذهبوا إلى البابا. وفى شهادة أخرى بتاريخ ١٩ يونيه أضاف الشاهد – بخصوص بالتاسار ثامورا – أنه لما تحدث مع الأدميرال قال الأدميرال : « إن الموريسكيين لا يجيدون التعامل مع القضية » ، وسأله ماذا يجب أن يفعلوا ؟ فأجاب «عليكم بالثورة» واكتفى خادم ثامورا بقوله إنه لما تحدث مع الأدميرال قال: «فى حوض نهر ميخاريس سيثور بعض الشبان، وسيتسببون فى إلحاق الإضرار» وأضاف لويس نابارو أنه لما سأل كيف سيقومون بالثورة إذا كانوا لا يمتلكون أسلحة؟ رد الأدميرال « لن تنقصهم الأسلحة » وبالفعل كان كلامه – كلام الأدميرال – يعنى أنه سعيد بقيام الثورة.

ويسرد خوان باوتستا سايس محاوراته مع الأدميرال ويؤكد المساعى التى كانوا يريدون القيام بها لدى الملك والبابا. وقد أكد شهود آخرون هذه الوقائع.

وقال السيد ايرناندو دى ابن عامر بعد أن أُخرج من السجون السرية (*) – فى ٢ يونيه ١٥٦٨ إن الأدميرال ذكر له أنه من المفيد إصدار الأمر بذلك والسعى لدى الملك

(*) لاحظ ارتباط هذه القضية بقضية كوسمى بن عامر ، والقضيتان نظرتهما محكمة التفتيش فى فالنسيا (المترجم) .

والبابا ... وأنه قال ذلك لأسقف سيغوربى، وأن الأسقف قد نقل الكلام إلى الرئيس الإقليمى. وفى شهادة أخرى بتاريخ ٢٥ يونيه قال إنه عندما أمر صاحب الجلالة بنزع سلاح المتنصرين حديثًا فى هذه المملكة فإن الموريسكيين كانوا يقولون بينهم إن الأدميرال هو سبب هذه الفاجعة، لأنه وافق على بناء مسجد فى غواداليت يقصده الموريسكيون من كل مكان لأداء الصلاة، وإنهم لهذا السبب كانوا يعطونه عشرة جنيهات كل عام كما كانوا يعطونه فى زمن المسلمين.

وقد طلب امنايث فى ٣ يونيه ١٥٦٨ أن يودع الأدميرال السجن، وهذا ثابت فى قرار بتاريخ ١٢ يناير ١٥٦٩ . ولما عرض الأمر على صاحب الجلالة وافق على أن يُسجن فى بيت مجاور لمحكمة التفتيش على أن يتحمل السجين نفقات الحراسة، وعلى أن يفتح فى البيت باب لدخوله وخروجه إذا استُدعى. وقد صدر الأمر بذلك فى ٢٤ يناير ١٥٦٩ . وفى نفس اليوم تم تعيين الحراس وأقسموا اليمين. وقد عين السيد/ سانشو دى كاروبونا الأدميرال أسماء الضامنين له وهم السيد/خيرونيمو باردو قائد مونيتسا والسيد/ فرانثيسكو بيلاريتشى رئيس بلدة بارونيا دى ثيرات.

وفى ٣١ يناير ١٥٦٩ كان عمر الأدميرال ثلاثة وسبعين عاما ، وأدلى بشهادته بعد حلف اليمين.

وقد قدم ممثل النيابة مذكرة الاتهام التى نرفق نسخةً منها.

حاول المتهم فى اعترافاته التنصل من كل التهم التى وجهها إليه ممثل الإدعاء. عين المتهم محاميًا عنه هو السيد/ ساراثولا الذى كتب مذكرة الدفاع التى نرفقها. وبناءً على الأدلة فقد صدر الحكم بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٥٦٩ وتم إعلام المتهم بالحكم فى نفس يوم صدوره، وكان الحكم هو إلزام المتهم - فى حضور اثنى عشر شخصاً - على أن يحمل فى يده شمعةً خضراء ، وأن يتوب عن ذنوبه. من الثابت بعد ذلك أنه تم تنفيذ الحكم، وأن الأدميرال قد تاب عن الذنوب التى اتهم بارتكابها، أو أية تهمة أخرى تتعلق بالإلحاد ، كما هو وارد فى سجل محكمة التفتيش الخاص بالتائبين. وقد أعلمه أعضاء محكمة التفتيش أن عليه أن يعترف مرة كل شهر، وأن يتناول القربان المقدس فى دير سانتو دومينغو بمدينة كوينكا وذلك طيلة المدة التى يراها مناسبة، والتى يراها المجلس مناسبة. وقد حُكم على المتهم بدفع مبلغ ألفى دوقية، وقد أُودع دير سان بابلو

فى كوينكا بتاريخ ٤ مارس ١٥٧٠ . وبناء على أمر أصدره رئيس محكمة التفتيش العامة الصادر فى ٢٠ أكتوبر فقد استبدل الدير المذكور بدير يسوع أو دير مبشرى فالنسيا. وبناء على أمر آخر صدر عن نفس الجهة فى ٢٤ يوليه ١٥٧١ حدث تغيير آخر وأصبحت إقامته محدودة فى مدينة فالنسيا وضواحيها دون الخروج إلى القرى.

السادة المحترمون:

تلقينا رسالتكم المؤرخة فى الرابع من هذا الشهر وبها شهادة ضد السيد/ سانشو دى كاردونا أدميرال أراغون، وقد فتحت الرسالة بحضور الكاردينال رئيس محكمة التفتيش العامة، ويبدو لقداسته ولآخرين ضرورة إجراء مزيد من البحث والتحرى وإرسال رأيكم لنا فى أسرع وقت ممكن.

مدريد فى مايو ١٥٦٨ :

منذ أيام ومحكمة التفتيش هذه على علم - بطرق شتى - بأن سادة الموريسكيين يكرمون المسلمين المتنصرين من أجل تسهيل عملية تعليمهم. ليكن ذلك فى الظاهر فقط وبما يتفق مع حسن السياسة. وكنا قد كتبنا إليكم فى هذا الشأن عن تزايد هذا التكريم من جانب السادة ، خاصة ما فعله السيد/ سانشو دى كاردونا أدميرال أراغون الذى تؤخذ عليه بعض الأمور التى تشكك فى حُسن تدينه المسيحى، بل يؤخذ عليه كذلك التواطؤ الواضح مع الموريسكيين فى أمور تتعلق بعبادة الرب بل وتتعلق بعدم الإخلاص فيما ينبغى عليه عمله تجاه صاحب الجلالة ، ذلك أنه يبدو كما لو كان يريد زعزعة الوضع واستقرار السلام فى الممالك من أجل أن يمارس هؤلاء المواطنون دينهم السيئ.

رأينا أن نرسل إليكم المعلومات المتوافرة ضده لدى محكمة التفتيش، ولفت نظركم إلى فكرتنا السيئة عنه ، وكل ذلك يستدعى علاجًا من ربنا الله، ومن صاحب الجلالة ومنكم بحيث لا تمضى المحاولات السيئة للموريسكيين قدمًا.

حفظ الله السادة ووفقهم لما فيه طاعته المقدسة.

فالنسيا فى ١٤ مايو ١٥٦٨

يقبل أيديكم كل من

خيرونيمو مانريكى   وخوان دى روخاس

الاتــهــام

السادة المحترمون:

يمثل أمامكم الدكتور / مويانو ممثل الإدعاء لدى هذه المحكمة، ويوجه الاتهام إلى السيد/ سانشو دى كاردونا أدميرال أراغون المقيم بمدينة فالنسيا والموجود حالياً.

رغم أنه شريف مسيحى ذو نسب عريق، وشخص ينبغى عليه أن يكون قدوةً كمسيحى مخلص، ورغم أنه تم تعميده ويتمتع بالمزايا والحريات التى يتمتع بها المسيحيون الكاثوليك، إلا أنه لم يخش الرب، ولم يحترم العقيدة الكاثوليكية المقدسة، ولم يحترم تعاليم الكنيسة، بل شجع الموريسكيين على إقامة شعائرهم والأفكار الإلحادية والأخطاء اللوثرية، فارتكب بذلك جرائم الإلحاد التالية:

إن أراضى الموريسكيين الواقعة فى هذه المملكة، والتى مورست فيها شعائر دين محمد بحرية أكثر، كانت هى المنطقة التابعة للسيد/ سانشو دى كاردونا ، ذلك لأن الموريسكيين وجدوا فيه تحمساً لهذا العمل.

إن كل المساجد الواقعة فى قرى الموريسكيين قد تم إغلاقها بعد تنصر الموريسكيين أو بعد رحيلهم، وتم تحويلها إلى كنائس، كان هذا الأمر معروفًا للكافة، ولا يستطيع أحد الزعم بأنه يجهله. ومنذ وقت طويل كان السيد/ سانشو دى كاردونا فى بال دى غواداليت التابعة له ، وهى قرية يقطنها المسلمون المتنصرون، وكان يتفقد المكان فوصل إلى أدثانيتا ، ورأى بها مبنى مهدمًا كان مسجداً فى زمن المسلمين وكان يأتى إليه كثير من المسلمين لأداء الشعائر، ولما سأل السيد/ سانشو ما هذا؟ أجابه الموريسكيون الذين كانوا برفقته أنه مسجد، وسألهم السيد/ سانشو ولماذا هو متهدم؟ فأجابوه أنهم لا يجرؤون على إعادة بنائه كمسجد، فقال لهم إنه يصرح لهم بذلك.

فى الوقت الذى لم يكن فيه الموريسكيون فى هذه المملكة قد تم تعميدهم كانوا يجتمعون فى هذا المسجد لأداء الشعائر، زاعمين أن هناك قديس مسلم مدفون فيه .

إن تعلق الموريسكيين الخاطئ بهذا المسجد لذلك السبب قد جعلهم يطلبون من السيد/ سانشو أن يصرح لهم ببنائه، وهو قد صرح لهم وأوقع نفسه تحت طائلة العقاب الذى تقرره الكنيسة لمن يقومون ببناء دور عبادة للكفار تضر بعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة.

على أثر هذا التصريح قام الموريسكيون المقيمون فى اوثانيتا - يعاونهم موريسكيو بال - بسرعة بتشييد المسجد، ووضعوا له أبواباً رئيسية لأداء الصلاة والوضوء، وكانوا يغتسلون به.

بعد بناء المسجد كان كثير من الموريسكيين فى وقت معين من العام يفدون إليه من بال دى غواداليت ومن غرناطة وقشتالة وقطالونيا وأماكن أخرى رجالاً ونساءً لأداء الشعائر الإسلامية، كما لو كانوا فى فاس، وكان يجتمع هناك أكثر من ستمائة شخص معظمهم حافى القدمين كالحجاج.

إن الوضع المذكور قد استمر عدة سنوات، وكان السيد/ سانشو يعلم بذلك بل ويشجع عليه، ويعلم به الأشخاص الذين عينتهم الحكومة فى بال دى غواداليست وكونفريدس وسيتا، مما أثار فضيحة كبرى فى كل أنحاء المملكة، ولم يكن للناس حديث آخر.

ولما قام أسقف فالنسيا بزيارة هذا المكان بعد علمه بفضيحة بناء المسجد وقدوم الموريسكيين لزيارته، لم يقم بهدم المسجد رغم رغبته فى ذلك ؛ لأنه علم أن ذلك ليس من صلاحياته فاكتفى بوضع علامة الصليب داخل المبنى، حتى يعلم خدم ورجال السيد/ سانشو انه من الآن فصاعداً لا يجب أن يسمحوا بإقامة الشعائر المحمدية ريثما يتم حسم الأمر.

بعد وضع علامة الصليب داخل المبنى المذكور حزن الموريسكيون كثيراً لدرجة أنهم ذهبوا لتقديم الشكوى إلى السيد/ سانشو ، وقد تأثر هو لذلك، لدرجة أنه تحدث مع شخص وأبدى حزنه لوضع علامة الصليب وحظر إقامة الشعائر ، ولم يكتف السيد/ سانشو بتوجيه السباب للأسقف، ولشخص كان برفقته بل قال إنهما فعلا ذلك من أجل مصلحتها الشخصية .

ورغم أن على السيد/ سانشو واجب الطاعة الكاثوليكية المقدسة لصاحب الجلالة الإمبراطور، لأنه الملك الطبيعي، ولأن يده الملكية قد قدمت للمسيحية فوائد كثيرة من خلال حروبه ضد الكفار وإنزال العقاب بالملحدين، رغم ذلك إلا أن السيد/ سانشو قد عصى أوامر صاحب الجلالة بقوله إنه يبدو له أن قرار صاحب الجلالة بتعميد الموريسكيين فى هذه المملكة قد أضر المملكة ، وهى كلمات تحمل معنى انتهاك حرمات الدين، وهو عصيان يستحق أقصى العقوبات.

ورغم أن توافد الموريسكيين من هذه المملكة ومن قشتالة وأراغون وقطالونيا إلى هذا المسجد لأداء الصلاة، ومعهم فقهاء يرتدون ملابس خاصة خلال فترة ما من كل عام، رغم أن ذلك استمر عدة سنوات وسط استهجان المملكة فإنه لا السيد/ سانشو ولا الأشخاص الذين عينوا لمراقبة الأوضاع فى الأماكن التى شيدوا فيها المسجد قد جاءوا لعرض الأمر على محكمة التفتيش، بل وافق المذكورون على استمرار الوضع امتهاناً لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة.

كان أمر تشييد المسجد معلوماً ، وكان وفود الموريسكيين إليه معلوماً، وكانت الفضيحة كبيرة وصلت إلى مسامع أسقف فالنسيا، ثم إلى مسامع جلالة الملك فيليبى سيدنا، وبأمر صاحب الجلالة – كمسيحى مخلص – هُدم المسجد، ورغم هدمه فقد استمر قائماً كمكان يعيش فيه الموريسكيون بدعم من السيد/ سانشو. إن رعايا السيد/ سانشو من المتنصرين قد واصلوا أداء شعائر طائفتهم الخاصة بالزفاف والزواج، والخاصة بصيام رمضان، والاحتفال بالأعياد التى يحتفل بها المسلمون، وختان الذكور كباراً وصغاراً.

بعد أن أدرك صاحب الجلالة ضرورة أن يدخل المسلمون المتنصرون من هذه المملكة إلى حظيرة العقيدة الكاثوليكية المقدسة، وضرورة ابتعادهم عن أخطائهم المحمدية، أمر بأن يجتمع قساوسة المملكة للاتفاق على ما يجب عمله بشأن تعليم الموريسكيين. وبناءً على طلب صاحب الجلالة فقد أصدر قداسة الباب أمرًا إلى الكاردينال رئيس محكمة التفتيش العامة بأن يحضر جميع المتنصرين فى هذه المملكة فى وقت وجيز للاعتراف بأخطائهم، على أن يتم التصالح معهم والصفح عما ارتكبوه. وقد أصدر صاحب الجلالة أمرًا تفضل فيه برد ممتلكات الموريسكيين المصادرة إليهم والتى صودرت بناءً على ارتكابهم جرائم الإلحاد.

إن هؤلاء المسلمين المتنصرين حديثًا - والذين يدعمهم بعض أصحاب السلطة ، وخاصة السيد/ سانشو دى كاردونا - لم يقوموا بالرد المناسب على رحمة البابا، ولا على تفضل صاحب الجلالة ، بل قالوا علنًا إنهم يريدون أن يكونوا مسلمين لا مسيحيين، وأرسلوا أشخاصا كثيرين من هذه المدينة يحملون توكيلات من أبناء القرى لتشجيع الموريسكيين الآخرين على التمسك بطائفة محمد الخاطئة . وكان السيد/ سانشو المذكور يتصل بالقرى الأخرى ويحضهم على أن يكونوا مسلمين لا مسيحيين ويقول لهم إنهم لم يُعمدوا بشكل صحيح ويحضهم على الثورة . ولكى يدفعهم إلى ذلك كان يقول إنه يعلم أن الموريسكين سيثورون فى بعض نواحى المملكة وأنهم لن يلحقهم أذى بسبب ثورتهم ، وبهذا الشكل لم يكتف بارتكاب جريمة ذات بُعد دينى، بل ذات بُعد إنسانى أيضًا حيث أنه شجع على الثورة لكى يتحول الموريسكيون إلى مسلمين.

إن السيد/ سانشو كانت رغبته صادقة فى أن يتحول الموريسكيون إلى مسلمين لدرجة أنه كان يرفض أى شىء يبعدهم عن ذلك ، ولما رأى أن تعليم الموريسكيين العقيدة الكاثوليكية يحظى بتأييد جلالة الملك راعى المسيحية تجرأ على عصيانه، وعلى القول بأن صاحب الجلالة أخطأ فيما يتعلق بالموريسكيين ، وهو قول يستحق عقوبة شديدة.

ولما سأل أحد الأشخاص السيد/ سانشو وهو يحرض الموريسكيين كيف سيقومون بالثورة وهم لا يحملون أسلحة أجابه - كشخص محرض يعلم أن هناك أسلحة مخبأة فى مكان ما - بأنه لن تنقصهم الأسلحة.

إن المتنصرين قد وجدوا تأييداً كبيراً من الأدميرال لكى يؤدوا شعائرهم الإسلامية، فلم يقتصر الأمر على الإذن لهم بتشييد مسجد فى غواداليت وكونفريوس وسيتا وأداء الشعائر فيه، بل إنه فى بيتشى - وهو مكان تابع للسيد/ سانشو، ويقيم فيه أكثر مما يقيم فى مكان آخر- يعيش الموريسكيون كما يعيش المسلمون فى الجزائر: يؤدون شعائر المسلمين، بل والأكثر إيلامًا للنفس أن لهم مكانًا عامًا فى بيتشى يؤدون فيه الصلاة ، وهو أمر لا يستطيع السيد/ سانشو الزعم بأنه يجهله، ولم يعالج مساعدوه الوضع.

لم يكتف السيد/ سانشو بعدم معالجة الوضع وإقناع الموريسكيين بالتخلى عن ممارسة حياة المسلمين علانية، بل إنه شجعهم على أن يكونوا مسلمين كشخص لا يشعر بسعادة فى اعتناق عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، ولما عنَّف أحد الأشخاص رعايا السيد/ سانشو؛ لكى يبتعدوا عن أخطاء محمد، ولكى يكونوا مسيحيين - وكان السيد/ سانشو حاضراً- وأجابه الموريسكيون بأنهم لا يريدون أن يكونوا مسيحيين بل مسلمين فإن السيد/ سانشو سكت ،وهذا يعنى أنه راضٍ عن إجابة الموريسكيين ، مقتنع برغبتهم.

فى معرض الحديث عن المتنصرين حديثًا والسيطرة عليهم قال السيد/ سانشو إنه من المناسب أن يتظاهروا باتباع المسيحية، وأن يكونوا مسلمين فى الحقيقة، وأن يعيشوا كما يرغبون فى السر، وهو هكذا يُبدى بوضوح رغبته فى احتفاظهم بدينهم، على الأقل سراً ماداموا لا يستطيعون ذلك فى العلن، ولما قيل له إن كلامه إلحاد لأن العقيدة المسيحية يجب أن تُمارس فى السر وفى العلن سكت السيد/ سانشو.

كان السيد/ سانشو يحزن لتعليم موريسكيى هذه المملكة الدين المسيحى، لدرجة أنه كان دائمًا يخترع عوائق تحول دون ذلك، ولدرجة أنه تحدث مع شخص لكى يخبر قداسة البابا بأن الموريسكيين قد عمدوا قسراً بقتل بعضهم، وبالتأثير على بعضهم الآخر وتهديده لكى يتعمد. وقد أفهم السيد/ سانشو الشخص المذكور ما يجب أن

يقوله للبابا حتى يعلن أن موريسكيى هذه المملكة قد عُمدوا قسراً، وأن بإمكانهم العيش كما يرغبون.

كان السيد/ سانشو يقول إنه إذا لم يستجب قداسة البابا لطلبه فسيتوجه برسالة إلى السلطان التركى يخبره فيها بالوضع، ويطلب منه أن يكتب إلى قداسة البابا وإلى صاحب الجلالة ويقول لهما إنهما قد أضرا بالمسلمين بتعميدهم قسراً، وبمطاردة محكمة التفتيش لهم، وهذا ضد العدل حيث أنهم ليسوا مسيحيين ولا معمدين، لأن ذلك لم يكن تعميداً، وإن القساوسة الذين زعموا للملك أن المسلمين تم تعميدهم قد كذبوا عليه لكى يحصلوا على مكاسب لهم.

وقد واصل السيد/ سانشو حديثه عن مضمون الرسالة التى سيبعث بها السلطان التركى إلى قداسة البابا وإلى صاحب الجلالة، فقال إن الرسالة يجب أن تتضمن أيضاً أن السلطان التركى بوسعه أن يفعل بمسيحيى ممالكه أكثر من ذلك لكنه يتركهم يمارسون دينهم بحرية دون إجبارهم ، وأن قداسة البابا وصاحب الجلالة لن يسمحا بالضغط على المسلمين، بل سيتركانهم يمارسون دينهم، وأن السلطان التركى سيُفهم البابا والملك أنهما إن لم يفعلا ذلك فإنه يستطيع أن يفعل نفس الشىء مع المسيحيين فى بلاده، وسيحثهما على معاملة الموريسكيين فى هذه المملكة معاملة طيبة.

لم يكتف السيد/ سانشو بقوله إنه سيكتب رسالة إلى السلطان ؛ بل قال إنه سيخبر السلطان التركى فى الرسالة بكل ما حدث ضد المسلمين فى إسبانيا، سواء من يعيشون فى قشتالة أو غرناطة أو فى هذه المملكة، وفى مناطق أخرى من إسبانيا ، وقال إن مسلمى هذه المملكة أخطئوا حين لم يعالجوا الوضع بهذه الطريقة.

لم يكتف السيد/ سانشو بقول ما سبق بل قال لهم – لكى يحفز الموريسكيين، ولكيلا تتم السيطرة عليهم – ألا يثقوا بما يقوله ميراندا عضو محكمة التفتيش ولا الأعضاء الآخرون، فهم كاذبون ولا يصدقونهم القول بل يخدعونهم، وأن اغيليرا (عضو محكمة التفتيش) لما زادت جرأته عن الآخرين ضد الموريسكيين، فقد لقى من صاحب الجلالة الجزاء الذى يستحقه.

إن الأدميرال كان راغبًا فى أن يبدأ هذا العمل لدرجة أنه كافأ منْ سيقومون به وشكرهم، بل كان يقول إن صاحب الجلالة سيشكرهم على ذلك وسيكافئهم عليه.

إن الأدميرال كان حريصًا على إتمام هذا العمل لدرجة أنه تعهد بإرسال الرسالة إلى السلطان التركى ، ولما فهم أن بعض الموريسكيين سيحصلون على مزايا لكى يتعلموا إرسال الرسالة، فقد طلب بإلحاح أن يحصل الموريسكيون على هذه المزايا، ولما رُفض طلبه غضب ووجه إليهم كلمات جارحة.

فى فحوى الرسالة إلى السلطان التركى يكشف السيد/ سانشو بوضوح أنه يرغب فى إثارة الناس؛ لإحداث اضطرابات ولتبرير ما يقوله للسلطان التركى فى الرسالة (وهو أكبر عدو للمسيحية)، وإحاطته علمًا بعدد الموريسكيين الكبير فى إسبانيا، وأنهم يعيشون كمسلمين ، وأنهم غاضبون إزاء الرغبة فى تنصيرهم. بهذا يبرر للسلطان التركى أن يحدث شيئًا فى ممالك صاحب الجلالة من خلال الموريسكيين. نفهم أن قيام الأدميرال بإبلاغ الموريسكيين بذلك يمكن أن يسبب اضطرابات... من هنا يتضح أن السيد/ سانشو ليس مخلصًا لسيده الملك، وأنه بذلك قد ارتكب جريمة ضد صاحب الجلالة.

بما أن السيد/ سانشو قد زعم للسلطان التركى أن الموريسكيين هنا مضطهدون ويُعاملون بقسوة ، وحيث أن السلطان التركى متوحش وطاغية ؛ فقد برر له أن يعامل المسيحيين فى بلاده بقسوة ، وهكذا يكشف السيد/ سانشو عدم حبه للآخرين ، كل ذلك من أجل أن يمارس المسلمون فى هذه المملكة شعائر دينهم الإسلامى.

كان السيد/ سانشو حاميًا للموريسكيين فى هذه المملكة وراغبًا فى أن يعيشوا كمسلمين، لدرجة أنه قال إنه يسره لو أن أرضه متاخمة لأرض اللوثريين، لكى يسهل دخول مسلحين لوثريين إلى إسبانيا؛ وذلك حتى يؤدى دخولهم إلى تخفيف الضغط على الموريسكيين، وحتى يتركونهم يمارسون شعائر دينهم ، وهكذا فضل ممارسة الموريسكيين للإسلام على طاعة الرب والملك ، مما زعزع استقرار السلام فى الممالك المسيحية.

لما كان السيد/ سانشو يرغب فى تعطيل تنصير موريسكيى هذه المملكة فلم يكتف بوضع العراقيل أمام ذلك ، بل اخترع عائقًا آخر وخيم العاقبة؛ ألا وهو قوله للمسلمين المتنصرين حديثًا إن محكمة التفتيش عندما تلقى القبض عليهم ويعترفون ستسجنهم إلا إذا قالوا إنهم مسلمون ويرغبون فى العيش كمسلمين، كل ذلك بهدف أن يتمسك الموريسكيون بالإسلام.

حاول السيد/ سانشو – ومعه شخص آخر – خلال السنوات السابقة معرفة سر محكمة التفتيش، وذلك بتحريض أشخاص تم التصالح معهم أن يكشفوا له ما اعترفوا به أمام محكمة التفتيش. ونظراً لإلحاح السيد/ سانشو والشخص الآخر ، فقد اعترف المتنصرون، وهو ما يتعارض مع ما أقسموا عليه، وهو ما يصيب محكمة التفتيش فى أمر جوهرى من أمور عملها...

لم يكتف السيد/ سانشو بمحاولة معرفة ما اعترف به المتنصرون أمام محكمة التفتيش ، بل إنه – محاولة منه لتراجع المتنصرين عما اعترفوا به أمام المحكمة – قال لهم كلمات جعلتهم يتراجعون بالفعل، فقد أفهمهم أن ذلك ليس خطراً عليهم.

لما كان السيد/ سانشو يعتقد أن محكمة التفتيش ومهمتها المقدسة تتعارض مع رغباته ، فقد حاول التقرب إلى شخص ما، وأقنعه بأن يحاول معرفة سر محكمة التفتيش وذلك حتى يستطيع أن يعرقل عمل المحكمة.

لما لم يجد فى الشخص المذكور قابلية للعمل فقد أكرم السيد/ سانشو ذلك الشخص، واستمر فى إقناعه ، وكانا يتحادثان بمفردهما لمدة ساعتين ،أو ثلاث ساعات فى بعض الأيام.

بعد أن اعتقلت محكمة التفتيش السيد/ سانشو سأل عما إذا كان الشخص المذكور يعمل فى أمانة سر المحكمة.

منذ وقت طويل وقبل إنشاء كنيسة فالنسيا كان هناك ولا يزال أمر رسولى من قبل قداسة البابا – يعاقب من يخالفه بإعلان كفره – يقضى بألا يستولى السادة بأنفسهم أو عن طريق آخرين على إيراد الكنيسة.

ورغم أن السيد/ سانشو كان على علم بالأمر السابق، لأنه معروف للكافة فى المملكة، إلا أنه استولى - عن طريق آخرين - على إيرادات الكنيسة من بال دى غواداليت، وكان خدمه يستولون على الثمار ويجمعونها مع ثمارهم ، وكانوا يضرون بحرية الكنيسة فى العمل.

لما كان السيد/ سانشو ذا سلطان ، فعندما كان يعلم أن شخصًا ما يريد أن يتحدث عن إيرادات غواداليت ، كان يهدده، ولم يكن يراعى ضميره.

ولما فهم أحد قساوسة كنيسة فالنسيا الأضرار التى يسببها مسلك السيد/ سانشو لإيرادات الكنيسة ، وأنه يكون قد استحق عقوبة إعلان كفره ؛ فقد نصحه بترك ذلك، فقال له السيد/ سانشو : إذن ليذهب غيرى لجمع الثمار وسيرون ما يحدث لهم.

لم يشأ السيد/ سانشو أن يؤدى ما عليه من الثمار لأنه شخص لا يهمه انتهاك الحرمات الدينية.

نظرًا لأن السيد/ سانشو لم يكن يعتقد فى ضرورة اعتراف الموريسكيين - متمشيًا مع الأفكار اللوثرية - فقد استمر لمدة عشرين عامًا لا يعترف.

وحتى لا يفهم أحد أن السيد/ سانشو لا يعترف فى الأيام التى تحددها الكنيسة وهى خلال أسبوع القداس - عندما يذهب السادة الآخرون الأتقياء للاعتراف ، مقدمين بذلك القدوة لغيرهم كوجهاء - فقد كان السيد/ سانشو يذهب إلى قرية موريسكية أخرى تابعة له حتى يتجنب الاعتراف ، وكان يعود إلى المدينة ليلة العيد ، ولم يكن يعترف فى أى مكان لأنه كان يسوءه الالتزام بتعاليم الكنيسة.

حيث أنه فى هذه المدينة قد تم نشر إعلانات كنسية ضد الأشخاص الذين لا يعترفون فى الوقت الذى تحدده الكنيسة والجميع يعلم ذلك ، ولما كان الأمر كذلك فإن السيد/ سانشو رغم علمه - ورغم التحذيرات الواردة فى الإعلانات - إلا أنه أصر على عدم الاعتراف؛ وذلك لشعوره بأن أوامر الكنيسة غير ملزمة.

لذلك فإنه بناءً على اعترافات السيد/ سانشو أدميرال أراغون فإننى أطلب منكم اتخاذ الإجراءات ضده ، وإعلان إلحاده، وإعلانه كمناصر للملحدين ولمن يمارسون شعائر محمد، وبناءً عليه يكون قد تورط فى الخروج على تعاليم الكنيسة ؛ ولهذا يستحق أن تُصادر ممتلكاته لصالح صاحب الجلالة ، وأن تُوقع عليه العقوبات المنصوص عليها فى القانون ، وأن يُنفذ كل ذلك فى حقه وفى حق ممتلكاته، وكذلك أطلب منكم أنه – إذا اعتبرتم أن أدلتى ناقصة – أن يتعرض المذكور للتعذيب حتى يقر بالحقيقة.

توقيع الدكتور مويانو

رأى أسقف سيغـوربى فى الموريسكيين

" رأى السيد مارتين دى سالباتيرا أسقف سيغوربى حول وضع الموريسكيين (نسخ مستخرجة)" (١)

من الملاحظ ومما لاشك فيه أن موريسكيي غرناطة عام ١٤٩٢ وموريسكيي فالنسيا عام ١٥٢٤ ، قد علموا من خلال الأوامر التى أصدرها كل من الملكين الكاثوليكيين ، والإمبراطور كارلوس - خالدى الذكر - أنهم إذا كانوا يريدون البقاء فى إسبانيا فعليهم أن يكونوا مسيحيين معمدين ، وأنهم إذا لم يفعلوا ذلك فسيطردون من إسبانيا، وقد هُددوا بالفعل بمصادرة أموالهم التى تعادل حياتهم ، وبالطرد من الأراضى التى عاشوا فيها ومنها هم وأجدادهم ، مع ما يصحب ذلك من عبور البحر المتوسط ، ومعهم النساء الحوامل والشيوخ الكبار والأطفال الصغار . كل ذلك كان يمثل بالنسبة لهم تهديداً يعترفون به اليوم.

وتنفيذاً من الموريسكيين لتعاليم طائفة محمد فقد قاموا بما يلى :

لم يعترف موريسكى واحد - ولا يعترف - بارتكاب أى ذنب كبيراً كان أم صغيراً مع أنهم - كما هو معلوم - أهل معصية ويخالفون الوصية السادسة بشكل خاص تقليداً لمحمد الذى يأمرهم بغسل الأيدى والرأس والأرجل ؛ لأن ذلك يغفر لهم الذنوب الصغيرة ، أما كبائر الذنوب فتغفرها التوبة.

ويستطيع الموريسكيون أن يتزوجوا بأى عدد من النساء يمكنهم إعالته ، ويمكنهم أن يطلقوهن متى شاءوا بدفع صداقهن ، وإذا قتل الموريسكى مسيحيًا فإنه يدخل

(١) Boronat: Los moriscos españoles....,pp. 619-633.

الجنة ، وإذا سبب الموريسكي الأذى لمسيحي فإنه يرتفع قدره في نظر محمد ، وهم يخالفون الوصية السادسة بارتكاب جريمة القتل باستمرار في حق المسلمين والمسيحيين ، ويخالفون الوصية السابعة بارتكاب جرائم السرقة والربا والمعاملات غير المشروعة ، ويخالفون الوصية الثالثة بعدم توقير الأعياد ، وعدم الذهاب لسماع الوعظ إلا بالقوة وخشية العقوبة. كل هذا دليل على أنهم لا يعتبرون ما ذكر ذنوباً . هذا هو نفس شعورهم تجاه تعليمات الكنيسة ، فهم لا يصومون صيامها ، ولا يعتبرون عدم الصيام المسيحي ذنباً ، ولا يعتبرون الزواج من الأقارب دون إذن البابا ذنباً ، ولا يعتبرون مخالفة وصايا الرب والكنيسة ذنباً ؛ فهم يخالفون كل الوصايا ، ولا يعترف أي واحد منهم ، وهذا ما يؤكده القساوسة . وأنا أقول نفس الشيء ؛ فقد اعترف أمامي كثير من الموريسكيين في أراغون وفي فالنسيا ، ولم يعترف أي واحد منهم بارتكاب ذنب كبير ، وهذا دليل على عدم إخلاصهم ، وعلى احتقارهم لقربان التوبة. إن اعترافاتهم كاذبة ، ولا تستحق أن تُمنح الغفران. لهذا السبب ، ولعدم تواجد الإيمان الحقيقي عند الموريسكيين ، فإن القساوسة في مملكتي فالنسيا وأراغون وبقية أنحاء إسبانيا لا يستطيعون تقديم القربان المقدس لهم ، ولا يستطيعون كذلك أن يتركوه لهم في الكنائس الموجودة في قراهم تجنباً لاستهزاء الموريسكيين به ، وقد علمنا بالخبرة أنهم يفعلون ذلك ، ويؤدون شعائر محمد .

هناك أمر لاشك فيه ونراه عادةً في محاكم التفتيش في إسبانيا وهو أن الموريسكيين الذين يودعون السجن – الشباب وكبار السن على السواء – قد تم ختانهم ، هذا ما أمر به محمد تطبيقاً لتعاليم موسى لكي يجذب اليهود إلى دينه . وهم يعترفون بالختان ، ويقول كبار السن إن عملية الختان قد أجريت لهم وهم أطفال ، وإنهم لا يتذكرون منْ الذي أجراها لهم . وأطفالهم مختتنون أيضاً ، وقد وجدت اليوم بعض الأطفال مختتنين ، ولما سألت آباءهم عن ذلك قالوا إنهم وُلدوا هكذا . ورغم أن ذلك قد يحدث كحالة استثنائية ؛ إلا أنه لا يمكن أن يكون أمراً شائعاً . ولعله من الواضح للموريسكيين أن الختان عمل من أعمال الكفر ، وأنه لا يجب إلا التعميد ، ولا يستطيع الموريسكيون التعلل بالجهل ، ولا يستطيعون كذلك الإدعاء بأنهم لم يتعلموا مبادئ العقيدة المسيحية ؛ لهذا فمن الواضح أنهم قد خرجوا بذلك عن عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة وعن الدين المسيحي .

وهذا يتأكد أكثر لأن كل الموريسكيين - رجالاً ونساءً وأطفالاً ، سواء في مملكة فالنسيا أم في مملكة كاستيا وأراغون - يستعملون أسماء المسلمين في بيوتهم وفي اجتماعاتهم السرية ، وهم يتخذون هذه الأسماء بعد أن يتم تعميدهم في الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا ما يلاحظه كل المسيحيين القدامى الذين يتعاملون مع الموريسكيين ، لأنهم إذا سألوا النساء والأطفال بدهاء عن أسمائهم المسيحية يتأكدون أنهم لا يعرفونها .

ولو ركزنا الانتباه سنلاحظ أنهم حين يتنادون فيما بينهم فإنهم يستعملون الأسماء الإسلامية . والأسماء المسيحية هي الموجودة في السجلات ؛ لأن الأسماء المسيحية أطلقت عليهم بعد تعميدهم بعد الولادة مباشرة ، وهذا يعني بالضرورة أنهم بعد تعميدهم قد اتخذوا أسماء المسلمين ، وأنهم لكي يتخذوا هذه الأسماء فإنهم أقاموا شعائر المسلمين ، وأجروا عمليات الختان ، وهكذا سخروا من قربان التعميد . هنا لا يمكن قبول تعلل أحدهم بالجهل ، بل يتضح عصيانهم .

من الواضح كذلك ، ومن المعلوم للكافة بين المسيحيين القُدامى الذين يتعاملون مع الموريسكيين أو يجاورونهم أن الموريسكيين لا يطلبون ولا يتقبلون قربان التأكيد ، ولا قربان التوبة، وهذا ما يؤكده القساوسة والمشرفين المكلفين برعاية الموريسكيين ، وهذا دليل على كفرهم ، وعلى أنهم لا يؤمنون بمقدسات الكنيسة ؛ بل يسخرون منها ، فهم لا يستعملونها ولا يطلبونها ، ولا يؤدون أى عبادة مسيحية يمكن أن تدل على وجود الإيمان والحب في قلوبهم نحو الدين المسيحي أو نحو عقيدتنا الكاثوليكية كما ينبغي أن يكون عليه وضع أى مسيحي مخلص .

وهذا يتضح لأنه من المشهور أنهم لم يصوموا أى صيام مسيحي ، بل يصومون صيام المسلمين ، خاصة ما يُسمى برمضان ؛ فعندما يحل موعد هذا الصوم فإنهم لا يذبحون ماشية في قراهم لأنهم لا يأكلون ، ونعلم أنهم لا يأكلون في بيوتهم لأنهم لا يشعلون موقداً ، ولا يخرج دخان من مداخنهم. ولكي يخفي الموريسكيون ذلك فإنهم يذهبون إلى مزارعهم ، ويقضون وقتهم هناك إلى أن يحل الظلام ، فيعدون عشاءهم وطعامهم في سرية ، ويؤدون بقية شعائرهم كالصلاة والوضوء ؛ وهي شعائر يأمر بها محمد في القرآن .

تُؤدى شعائر الصلاة والوضوء خمس مرات فى اليوم ، ويقولون إنهم يحمدون الله الأكبر الذى لم يلد ولم يولد ، وهذا كفر بعقيدة التثليث . وهكذا يبدو من اعترافاتهم أمام محاكم التفتيش ، وهكذا يأمرهم محمد الذى يريد تقليد اليهود والأريانيين واجتذابهم إليه ؛ وهذا ما يفعله أتباعه .

وهذا يتضح ، كما تتضح سخريتهم من الدين المسيحى ومن الكنيسة ومقدساتها وصلواتها ؛ فلم يرهم أحد – ولن يراهم – يدخلون الكنائس فى أيام العمل أو فى أيام العطلات . إنهم لا يذهبون لسماع الوعظ إلا وهم مضطرون ؛ لأن عقائد شيوخهم وأسلافهم ترى السخرية بالمقدسات المسيحية عملاً طيبًا أمام محمد وتقول إنهم يستطيعون أن يكفروا بمحمد فى الظاهر مع التمسك به فى القلب . وفى مدريد وطليطلة وألكالا ، وأوكانيا ، وتالابيرا ، وأماكن أخرى يكثر فيها الموريسكيون لا تراهم يذهبون إلى الكنيسة ، وهم يعيشون كأغنام بلا راعٍ ؛ وهذا يدعو إلى الحسرة .

وهناك دليل آخر على كفرهم ؛ وهو أنهم لا يحبون أن يدفنوا موتاهم فى الكنيسة ، بل فى الحقول وفى الأراضى البكر، وهم يتجنبون بأى شكل أن يدفن موتاهم فى مدافن قديمة حتى لو لم يُدفن فيها أحد منذ سنوات ، وهذا واقع لدرجة أنه لو كانت هناك أماكن فى المدافن القديمة فإنهم يطلبون مدافن جديدة ؛ وهذه شعيرة من شعائر محمد التى يأمر بها فى القرآن. وهذا واضح وأنا شاهد عليه لأننى رأيته ولسته عند موريسكيى فالنسيا وأراغون عدة مرات ؛ وهذه شعيرة يهودية ، وقد أخذها محمد عن اليهود لكى يجتذبهم إليه ، والمسلمون يحافظون عليها لأنها من تعاليم محمد .

من المعلوم فى إسبانيا كلها أنه لم يوص أى موريسكى بأى شىء للكنيسة ، ولا تصدق فى الكنيسة على موتاه ، ولم يبن أحد منهم شيئًا فى الكنيسة ، ولم يطلب أحد منهم إقامة قداس على روح ميت ، رغم أنهم أثرياء ويرون كيف يؤدى المسيحيون هذه الأعمال ؛ وهذا دليل على أنهم يسخرون من كل ذلك ، ودليل على أنهم لا يعتقدون أن الموتى يذهبون إلى المطهر ، ولا يعتقدون أن الصدقات التى يقدمونها إلى الكنيسة يمكن أن تكون عونًا لهم ؛ ولهذا فهم يكفرون بالمطهر ، ويؤكدون أنه لا وجود بعد الموت إلا للجنة والنار ؛ وهذا ما يقول به محمد .

من المعلوم فى إسبانيا كلها أنه لم تبن فى أية قرية موريسكية صومعة لراهب ، ولم يرفع صليب ، ومن المعلوم كذلك كراهية الموريسكيين للصور والتماثيل ، فهم لا يحتفظون بها فى بيوتهم ، ونفس الشىء يُقال عن الماء المبارك وعن بقية الشعائر المسيحية الأخرى . ومن المعلوم أيضًا أن الموريسكى لا يقيم هذه الشعائر ، وإذا أداها فإنه يفعل ذلك مضطراً أمام المندوب أو الحاجب ، ورغم كثرة عدد الموريسكيين فإنه لم يدخل أحد منهم فى المسيحية رغم طول فترة تعايشهم مع المسيحيين ؛ وهذا دليل على أن الموريسكيين متحدون فى ذلك ، ويتبعون جميعًا دين محمد الذى يخالف شريعة يسوع .

وكل الموريسكيين يجتنبون الخمر ولحم الخنزير ، ومن الواضح أنهم لا يمتنعون عن أكل لحم الخنزير من باب التقشف المصاحب للتوبة عن الذنوب - فهم لا يعترفون أنهم ارتكبوا ذنبًا - بل اتباعًا لشريعة محمد لأنهم أتباعه ؛ وهذا الامتناع عن أكل لحم الخنزير أخذه محمد عن اليهود .

ولم يحدث فى كاستيا أو فى أراغون أن شوهد موريسكى يدرس فى الجامعة علمًا مسيحيًا ، وعزوفهم عن المسيحية يتمثل أيضًا فى الامتناع عن مصاهرة المسيحيين القُدامى ، إنهم حتى لا يطلبون منهم صدقة ، وفى ذلك امتثال لتعاليم القرآن .

يعتقد الموريسكيون - نقلاً عن شيوخهم وأسلافهم - أنهم إذا ألحقوا ضرراً بالمسيحيين فإنهم يدخلون الجنة ، ويعتقدون كذلك أنهم يدخلون الجنة إذا دافعوا عن دينهم بالسلاح ، وأنهم إذا أُجبروا على الكفر فبإمكانهم فعل ذلك فى الظاهر وكتمان الإيمان فى القلب ، وأنهم هكذا يدخلون الجنة .

ورغم أنه من التصرفات الخارجية لبعض الموريسكيين فى أراغون وفالنسيا ، يبدو أن هؤلاء مسيحيون أكثر مما هم مسلمون إلا أنهم عند الوفاة أعلنوا أنهم مسلمون ، وأنهم عاشوا كمسلمين طوال حياتهم. يفعلون ذلك علانيةً حتى يشجعوا أبناءهم ، وأقاربهم على اتباع دين محمد . لقد لوحظ ذلك فى محاكم التفتيش فى فالنسيا وسرقسطة وأماكن أخرى .

يتأكد عداء الموريسكيين للديانة المسيحية ولأتباعها ، فرغم أن الموريسكيين مكثوا ثمانمائة عام فى إسبانيا ، ورغم أنهم تعاملوا مع المسيحيين إلا أنهم بعيدون عن

المسيحية ، ونرى بوضوح كراهيتهم وعداءهم لها : فبالإضافة إلى أنهم قتلوا عدداً كبيراً من المسيحيين خلال عامى ٢٢ ، ٢٣ أثناء ثورتهم فى مملكة فالنسيا ، وبالإضافة إلى العدد الكبير الذى قتلوه فى عام ١٥٧٠ خلال ثورتهم فى مملكة غرناطة ، فإنهم أحضروا عدداً كبيراً من الأتراك ومسلمى البربر ؛ لكى يعيدوا غزو إسبانيا ، وقد أحرقوا عدداً كبيراً من الكنائس ، وانتهكوا الحرمات ، وقتلوا القساوسة ورجال الكنيسة ، وأحدثوا أضراراً بالغة بالعالم المسيحى وبالممالك الإسبانية ، وكان ذلك تحذيراً من الله لصاحب الجلالة لكى يطرد هؤلاء الناس من مملكته ، وهذا ما فعله بعد ثمانين عاماً من التفانى فى تعليم المسيحية من قبل القساوسة ، وبعد كل المجهود الذى بذلته الكنيسة لتنصيرهم . ورغم أن الموريسكيين استحقوا عقاباً كبيراً نظير جرائمهم إلا أن صاحب الجلالة استعمل الرأفة معهم ، وأعطاهم الأراضى الكثيرة فى أندلوثيا وطليطلة ، لكن الموريسكيين استمروا فى جرائمهم ، وقتلوا عدداً كبيراً من المسيحيين وقطعوا الطريق . وقد اجتمع عدد كبير من الموريسكيين فى أشبيلية ، وتدارسوا دين محمد ، كما هو ثابت فى ملفات محكمة التفتيش فى أشبيلية .

وثبت من واقع ملفات محكمة التفتيش فى أراغون خلال عامى ٧٥ ، ٧٦ أن هؤلاء الموريسكيين حاولوا القيام بثورة أخرى كثورة غرناطة ، وأن لهم اتصالات مع الملحدين فى فيرنا ، وهو مكان سعوا إلى الإقامة فيه ، وقد حملوا إلى هناك مبالغ كبيرة .

وفى عام ٨٤ قام موريسكيون من قرى مملكة فالنسيا التابعة للسيد ميغيل دى مونكادا بالاتصال بوالى الجزائر الذى قدم ومعه قوات فحمل معه فى السفينة ألفين وخمسمائة شخص دفعوا ٢٥٠ دوقية قشتالية نقداً .

تتأكد بوضوح هذه الحقيقة الخاصة برغبة هؤلاء الناس فى الإضرار بالديانة المسيحية . يتضح ذلك من خلال ما لوحظ فى مدينة طرويل ، فالموريسكيون يقيمون فيها منذ مائتى عام وحتى الآن – خاصة فى حى سان بيرناردو – وقد اعتنقوا المسيحية وعمدوا . منذ ذلك الحين والجميع يعتقد أنهم مسيحيون مخلصون ، وهذا ما أظهروه فى تصرفاتهم ، فتخلوا عن زى المسلمين ، وهجروا اللغة العربية ؛ بحيث لم يعد هناك فرق بينهم وبين المسيحيين القُدامى .... فلما أمرتم جلالتكم بنزع أسلحة موريسكيى مملكة أراغون أراد البعض تنفيذ الأوامر فى طرويل ، فرفع الموريسكيون شكواهم إلى جلالتكم ، وذكروا أنهم كاثوليك مخلصون ؛ وهذا ما أثبتوه

مـن خـلال تصـرفـاتهم ، وطلبـوا أن تصـدروا جـلالتكم الأوامـر بألا يطبق قـرار نزع الأسلحـة عليـهم ، وأن تتـرك الأسلحـة التى يسـتـعملونـهـا مـثل المسـيحـيين القُدامى فاستجبتم لطلبهم . رغم كل ذلك إلا أنه فى العام الماضـى - عـام ٨٥ - تقدم كثير من الموريسكيين إلى مـحكمـة التفـتيش فى فـالنسـيـا ، واعتـرفـوا بأنهم قـد عاشـوا حيـاة المسلمين دومًـا ، وأنهم اتبعـوا معـتقدات مـحمد ، وأقامـوا الشـعـائر الإسـلامـيـة ، وأن التصـرفـات المسـيحـيـة التى أظهروها كانت كاذبة ، وأنهم فعلوها خوفًا من العقوبة ، وأملاً فى خـداع المسيحيين القُدامى ، ورغبة فى السخــرية من الكنيسة ومقدساتها . لقد اعترف بذلك كل سكان طرويل من الموريسكيين فعاقبتهم محكمة التفتيش . إن هذا يدعونا إلى الاعتـقـاد بـأن كل مـوريسكيى هـذه المملكة ومملكة فـالنسـيـا ، وكـاسـتـيـا يحافظون على تعاليم محمد ويؤدون شعائر المسلمين .

من المعلوم كذلك أن الموريسكيين يتصلون ببلاد البربر والقسطنطينية ، ويفيدونهم بمعلومـات ضـد صـاحب الجـلالة وممـالكه ، ويخـبرونهم بالثـغرات الموجـودة فى القـلاع والحـصـون ، خـاصـة تلك الموجـودة على سـاحل البـحـر المتوسط، ويخـبرونهم بالنقص الموجود فى السـفن الملكيـة ، وبعـدد المسلمين الكبيـر الموجود فى هذه الممـالك والسـلاح المتوافر لديهم. وأنا شـاهد على أنه فى عـام ٨١ اكتشـفت فى منزل لمسلم من خيـا دى البراثـين أسلحة كثيرة ومختلفـة (وقد أخبرتكم بهـا)، كل ذلك من أجل إقنـاع السلطان التـركى وأتبـاعـه بالقـدوم إلى هنا واحـتـلال هذه الممـالك. إنهم يريدون أن تقـوم الحـرب فينتقمـون من المسيحيين ، كمـا فعـلوا أثنـــاء ثوراتهم فى فـالنسـيا وغرناطـــة ، وهذا مـا يسـتطيـعـون القـيـام به حـاليًـا ، فـقـد تضـاعف عـددهـم ، وهـم يقـيـمـون فى أفـضـل مـحافظات إسبـانيا ويعلمـون عنـهـا - كـأعداء داخليين - نقـاط الضـعـف الموجـودة فـيـهـا ويسـتـغلون وظائفهم (خاصـة تلك المتصلة بالمؤن ، فمنهم البسـتـانى والسقّاء ، والخـبـاز ، والنجـــار ، والبنـاء وغـيـــرهـم ، وهـى وظـائـف تتــحـكم فـى أمـــوال البـــلاد ، ويحـــرص الموريسكيون على شـغلها لكى يـحـرمـوا المسـيحـيين القُدامى من الغـذاء وسُبل الحـيـاة فيجبرونهم على الذهاب إلى العالم الجديد وإلى الحروب) . وبالإضـافة إلى كل ذلك فإن التجربة تعلمنا أن بعض الموريسكيين الموجودين فى كاستيا ممن قدموا من غرناطة قد أثروا لدرجة أنه فى غوادالاخارا ، وباسترانا ، وسلمنكا ، وغيرها هناك مسلمون لديهم

ما يزيد عن مائة ألف دوقية ، وإذا لم تقم جلالتكم بوضع حد لذلك ففى بضع سنوات سيتزايد عدد الموريسكيين لدرجة أن يزيدوا عن المسيحيين القُدامى ، سواء من حيث العدد أو من حيث الثروة ، خاصة فى الذهب والفضة : فلقد استولى الموريسكيون على كل الذهب والفضة ، وهم لا ينفقون شيئًا ، إذ لا يأكلون ولا يشربون ولا يلبسون ولا ينتعلون [بشكل لائق] فإذا وجدوا أنفسهم كثيرين فى العدد وفى الأموال - بالإضافة إلى أنهم أذكياء ، وإلى كونهم أعداء للمسيحيين وللديانة المسيحية - فمن الخطر أن يُتركوا يتصرفون كما تصرفوا حتى الآن .

يتضح من كل ما ذُكر أن الكنيسة والمقر البابوى وصاحب الجلالة ، وراعينا الإمبراطور كارلوس ، والملوك الكاثوليك خالدى الذكر ، وكل القساوسة والمبشرين فى إسبانيا على مدى قرون كثيرة - رغبة من الجميع فى طاعة الرب ، وإنقاذ هؤلاء الناس من الضلال - قد علموا الموريسكيين العقيدة المسيحية باللفظ وبالفعل ، خاصة ضرورة الإكثار من تقديم القرابين والتضحيات والأعمال التطوعية والصوم والتوبة وأعمال البر الأخرى التى لا أستطيع ذكرها الآن لكثرة عددها ، وهذا وحده يكفى لتعليم هؤلاء المسلمين عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة والديانة المسيحية ، وهم مجبرون الآن على المحافظة عليها ، وإلا كانت عقوبتهم دخول النار كاليهود والوثنيين الذين سمعوا بالمسيحية التى بشر بها يسوع المسيح ، وعرفوا الحقيقة والديانة المسيحية ، وعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة التى تنسخ شريعة موسى التى حلت محلها شريعة المسيح. إن شريعة المسيح تبطل كافة الشرائع الأخرى ، وخاصة شريعة محمد الضالة الحافلة بالأكاذيب والتزييف الذى يتعارض مع المنطق الطبيعى .

لكل ما ذكر لا يجب أن تقبل الأعذار المقدمة من الموريسكيين وممن يحمونهم ، إذ يقولون إنهم لم يتعلموا الدين المسيحى ؛ فمن الواضح أن هذا يتعارض مع الحقيقة. إنهم يقولون ذلك لأهداف خبيثة يخفيها ثوب مستعار من القداسة بهدف الاستمرار فى شرورهم ، وبهدف الحصول على فترة هدنة يستعملونها - كما هو شأن الخونة - فى مواصلة آثامهم. إن سادة الموريسكيين من المسيحيين - رغم أنهم يقومون بذلك بدافع الحرص على الدين المسيحى - يجهلون هذه الجرائم التى يقترفها الموريسكيون ، وأدعو الله ألا يكون دافعهم فى ذلك هو الحرص على مصالحهم الشخصية ، فهؤلاء

الموريسكيون يؤدون للسادة خدمات كبيرة كعبيد ، بأشخاصهم وبأموالهم وبدوابهم ، ومن المؤسف أن السادة يعلمون أن هؤلاء ملحدون – رغم عدم إعلان كونهم كذلك – ومع ذلك فإنهم يصطحبونهم إلى بيوتهم ، لا لتعليمهم شريعة يسوع المسيح ، بل لقضاء مصالحهم الخاصة. إن الله لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ما تُخفى الصدور ؛ لذلك فعلى السادة أن يحترسوا من استضافة المسلمين فى بيوتهم والتعامل معهم ، فكلهم ملحدون ؛ ولذلك فإن التعامل معهم لا يجوز .

لهذه الأسباب يتضح أنه لتنصير هؤلاء المسلمين ليس من الضرورى حرمانهم من لباسهم ومن لغتهم العربية ، ولا إخراجهم من محال إقامتهم على ساحل البحر، لأن مسلمى أراغون وكاستيا يتحدثون الإسبانية بطلاقة ويلبسون زى المسيحيين القُدامى ، ويعيشون فى أماكن بعيدة عن البحر ، ومع ذلك فإنهم مسلمون كمسلمى بلاد البربر ومسلمى مملكة فالنسيا . لا يكفى كذلك لحل المشكلة توزيع الموريسكيين على قرى المسيحيين القُدامى ؛ لأن الموريسكيين الذين يعيشون فى فالنسيا وسيغوربى وخاتيبا وغانديا وإليسى وأوريغيلا وسرقسطة وطرويل وكالاتايود واربيلا وبايا دوليد وسيغوبيا وأبيلا ومدينا ديل كامبو.... كلهم مسلمون ، بل ويُخشى أن تكون أعدادهم الكبيرة فى هذه المدن والقرى سببًا فى أن يؤدوا شعائر محمد بحرية تفوق حريتهم لو أنهم عاشوا فى قرى صغيرة يمكن فيها بسهولة التعرف على حياتهم .

يتضح ذلك من تجارب إسبانيا مع المسلمين الذين أخرجوا من مملكة غرناطة ؛ فبالرغم من مرور سنوات كثيرة على إقامتهم فى قرى كاستيا التى نُقلوا إليها وسمعوا فيها تعاليم المسيحية إلا أنهم الآن مسلمون كما كانوا فى غرناطة ، سواء من يعيشون فى بيوتهم الخاصة أو من يعيشون كخدم فى بيوت المسيحيين القُدامى. إننا نجد فيهم جميعًا نفس الجرائم: الختان ، وعدم الاعتراف فى الكنيسة ، وعدم فهم عقيدة المسيح وحبها ، وعدم كراهية دين محمد .

يتضح من كل ما نُكر أن هؤلاء المسلمين ملحدون وأعداء لشريعة المسيح ولكل المسيحيين الذين يحافظون عليها. إنهم كل يوم يسخرون من عقيدة التثليث ، ومن كل بنود عقيدتنا الكاثوليكية ، ومن الكنيسة ومقدساتها وطقوسها . إنهم يحافظون على شريعتى موسى ومحمد بكل إصرار .

ثم إنهم جواسيس للسلطان التركى عدونا ، وهم قتلة وقُطاع طُرق ولصوص ومرتكبوا جرائم ومثيرون للبلبلة.

إن كل ما نكرناه صحيح لا يجب الشك فيه. إن مولانا الملك خايمى طيب الذكر كان فقيراً ، ومع ذلك فقد طرد من فالنسيا أكثر من مائة ألف مسلم . كان الملكان الكاثوليكيان فقيرين عندما بدءا فى حكم ممالك إسبانيا ، وكانا مطالبين بنفقات كبيرة من جراء الحروب فى البرتغال ونابارا وغرناطة ، ولما كانت دخولهما لا تكفى لكل هذه النفقات كانا يستعينان بأموال المعابد اليهودية وبأموال يهود هذه الممالك ، إلا أنهما كانا شديدى الحرص على الدين المسيحى لدرجة أنهما ضحيا بمصالحهما الدنيوية ، وطردا من ممالكهما اليهود الذين كانوا يعيشون فيها ؛ لأنهم بعد قرون من بقائهم فى إسبانيا لم يعتنقوا دين المسيح ؛ ولأنهم عن طريق الربا كانوا يسرقون أموال المسيحيين .... كل ذلك رغم أن اليهود لم يكونوا ملحدين ، ولم يكونوا قد عمدوا ، ولم يكونوا نوى عادات سيئة كالموريسكيين ، ولم يكونوا جواسيس للأتراك ، ولا قتلة ولا قطاع طرق كالمسلمين ، ولم يقوموا بثورات فى أى مكان كما فعل هؤلاء المسلمون ، ولم نخش منهم شيئًا كما نخشى المسلمين ، ولم تكن لديهم أسلحة هجومية أو دفاعية معلنة أو مخبأة كما للمسلمين أسلحة. إن الملكين الكاثوليكيين لم يضعا فى حسبانهما العدد الكبير من اليهود الذى كان موجوداً - وهو عدد كان يفوق عدد المسلمين الموجودين حاليًا بكثير - بل قلدا النبى إلياس الذى دعا الله أن يربك الأنبياء الكاذبين الذين كانوا موجودين فى عصره (لكل ذلك لا يجب أن نستمع إلى صوت منْ ينادى بالعفو عن المجرمين) . إن الملكين الكاثوليكيين لم يضعا فى حسبانهما آنذاك الخدمات التى كان يمكن أن يؤديها اليهود بأشخاصهم وأقوالهم ونصائحهم للسلطان التركى ، ولم يضعا فى حسبانهما كذلك الفائدة الدنيوية التى تعود من اليهود عليهما .

إن هذا لا يجب أن يعارضه ما يقوله البعض من أننا نكسب أطفال المسلمين الذين يموتون على المسيحية. إن الآباء ملحدون ولا يطلبون التعميد ، ولا يؤدون شعائر الكنيسة بل يؤدون شعائر محمد ، وإن إخوانهم من الشباب لم يطلبوا التعميد أبداً ، بل يخالفونه كالآباء .... وهذا ما يمكن أن نقوله عن الأطفال من أبناء المسلمين ، فسيكونون مثل آبائهم ؛ لأن لهم نفس الطبيعة ، ولأنهم تلاميذهم. وحتى لو كان الأطفال

سيعتنقون المسيحية فإن هذا ليس سبباً فى أن نسمح بكفر الكبار، ولا يجب أن تعرِّض ممالكك يا صاحب الجلالة للخطر بأن يتواجد فيها عدد كبير من الكفار رغم أنهم متعمدون ، خاصة وأنه من المؤكد أنهم مسلمون وملحدون ؛ لهذا لا يجب أن نضع فى الاعتبار ما يقوله البعض من أنه لو طُرد الموريسكيون إلى البربر فسيتخلون عن المسيحية ، فقد حدث ذلك بالفعل.

لا يجب أن نضع فى الاعتبار كذلك أن السلطان التركى سيقتل أو سيطرد من عنده من المسيحيين لأنه لم يفعل ذلك عندما طرد اليهود من إسبانيا ، رغم أنهم ذهبوا إليه لتقديم الشكوى ؛ ذلك لأن المسيحيين الأحرار الموجودين عند السلطان التركى سيحتفظ بهم السلطان للاستفادة بالضرائب التى يدفعونها ، ولأن هذا الطاغية الكافر سيفضل مصلحته الخاصة على قتل المسيحيين ، الذين لا يعرفهم والذين لا يفيده قتلهم شيئاً .

ولما كان الأمر كذلك ، ولما كانت إرادة الله أن تكونوا يا صاحب الجلالة سيد أكبر مملكة من ممالك المسيحية ؛ فعليكم واجب تطهير هذه الممالك من طائفة محمد ، ومن كل منْ يحافظ على شعائرها . لكل ما ذكرناه من أسباب تتعلق بطاعة الرب ، وتأمين الديانة المسيحية ، وتأمين الممالك الإسبانية ، ولأن المسلمين أكثر ضرراً من اليهود والأريانيين الكفرة ... فإنه يتعين على جلالتكم إبداء الرغبة والحب وطاعة الرب ، كما أظهرتم وتُظهرون دوماً رغبتكم فى الدفاع عن الكاثوليكية ، وملاحقة الملحدين دون نظر إلى مصالح دنيوية عامة أو خاصة ، فإن هذه المصالح هزيلة ، والرب سيعوضكم عنها . ولو أمرتم جلالتكم بذلك فسيتحقق بسهولة بوسائل يمكن لجلالتكم اتخاذها . ورغم أننى أفكر فى بعض الوسائل إلا أننى لا أستطيع ذكرها ، إذ ليس لدىَّ إذن منكم ، ولأن هذه القضية يجب أن تناقش مع المقر البابوى ؛ لذلك فمن المناسب أن تأذن جلالتكم بعقد اجتماع فى طليطلة – أو فى أى مكان آخر ترونه – لمناقشة هذه القضية . ونظراً لأهميتها الروحية والدنيوية ؛ فمن المناسب أن تنظروا فى هذه المبررات التى أسوقها لمعالجة المشكلة التى أدعو الله ألا تزيد حدة... فمن ضمن بنود العقيدة المقدسة أن من يستطيع حل مشكلة واضحة ولا يحلها يثير الشك فى أنه يؤيد منْ قام بها... هذا ما يقوله القديس خيرونيمو . أسأل الرب أن يجزيكم عن كل ذلك خيراً فى الدنيا وفى الآخرة .

كل ذلك كتبته بدافع الرغبة فى طاعة الرب وفى خدمة جلالتكم ، وقد قدمت ذلك على المصالح الدنيوية ومصلحتى الخاصة ؛ لأنكم لو فعلتم ما أراه فسأفقد ثلاثة آلاف دوقية ، وأرى أن نضحى بذلك طاعة للرب وخدمةً لجلالتكم . من أجل ذلك أقول لكم - كخادم مطيع ، وكابن بار للكنيسة المقدسة ، وللمقر البابوى ، ولجلالتكم - إنه لو كنت فى مذكرتى قد تجاوزت حدودى ، أو أخطأت فإن الخطأ لم يكن عن إرادة منى ، وأترك تصويب ما أخطأت فيه لجلالتكم ، وأرجو أن يحفظكم الرب ذُخراً للكنيسة . آمين

أسقف سيغوربى

مدريد فى ٣٠ يوليه ١٥٨٧

قضية نظرتها محكمة التفتيش
ضد السيد/كوسمى بن عامر وهو موريسكى من فالنسيا

نسخة من القضية المرفوعة ضد السيد / كوسمى بن عامر ، وهو مسلم متنصر حديثًا ومن بلدة بناغواثيل .(١)

فى فالنسيا وبتاريخ ٣ مايو ١٥٦٧ وأمام السيد/ خيرونيمو مانريكى عضو محكمة التفتيش حضر السيد/ أوبييدو ممثل النيابة لدى المحكمة وقدم المذكرة بالشكل التالى :

« سادتى :

حضرت أنا أوبييدو (ممثل النيابة لدى محكمة التفتيش هــذه) أمامكم وأقول ما يلى: إن السيد كوسمى بن عامر ، وهو مسلم متنصر حديثًا من بلدة بنى غواثيل ، مسجل فى سجلات هذه المحكمة على أنه قد عاش حياة المسلمين ، وأدى شعائرهم ، وأنه حاول إقناع مسيحى قديم أن يتحول إلى الإسلام ، فشرح له عقيدة محمد التى أتهمه بها. أطلب منكم إصدار الأمر باعتقاله ومصادرة ممتلكاته ؛ وذلك تحقيقًا للعدل .
توقيع أوبييدو "

شهادة انخيلا زوجة خايمى أليمان :

تشهد أنها – وعمرها ستة عشر عامًا – قد أدت شعائر المسلمين ، فصامت رمضان ، وأنها كانت خادمة للسيد/ خيرونيمو بن عامر فى بناغواثيل بعد أن كانت تعمل خادمة فى بيت هاشم فى سيغوربى ، وفى بيت السيد/ خيرونيمو صامت رمضان معه ومع زوجته وأبنائه ، وهم السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ ايرناندو والسيدة/ اغرايدا ، وقد احتفل كل هؤلاء بعيد المسلمين فارتدوا أفضل الثياب لديهم. وهذا ما حدث بالضبط فى بيت هاشم فى سيغوربى – والسيد هاشم متزوج من السيدة/ أغرايدا ابنة السيد/ خيرونيمو – فلم يكونوا يأكلون طوال اليوم حتى حلول

الليل . تعترف الشاهدة بأنها لا تعرف الصلاة ، بل تعرف بعض الدعوات ، وقد رددتها باللغة العربية .

شهادة بيرنات المعلم:

لما كان مسئولاً عن ذهاب الموريسكيين فى بناغواثيل لسماع الوعظ فهو يعلم يقيناً أنهم جميعًا يؤدون شعائر المسلمين ، وقد شاهدهم يصومون رمضان من أول شهر يوليه ، وقد احتفلوا جميعًا بالعيد فى شهر أغسطس بمساعدة السادة الذين كانوا يحمونهم من محكمة التفتيش ، ورغم أنهم قد تنصروا حديثًا إلا أنهم ليسوا مسيحيين، ولا يعيشون كمسيحيين، بل يتعاملون ويعيشون كمسلمين ، وهم الآن فى هذا الوقت بالتحديد أسوأ من أى وقت مضى ، ولا ينقصهم سوى دق الطبول – كما كانوا يفعلون سابقًا – لدعوة الناس إلى الصلاة فى المسجد ؛ لأنهم يمارسون أعمالهم فى أيام الأحد والأعياد وأولادهم مختتنون ، بحيث أنهم مسلمون الآن أكثر من أى وقت مضى.

فى مدينة فالنسيا وبتاريخ ٢٣ مايو عام ١٥٦٥ ، أمام عضو محكمة التفتيش بيرناردينو دى اغييرا ، حضر غاسبار كوسكويا ، وهو تاجر يعيش فى بال دى أوشو فى قرية بنى غافول وقال إنه فى قرية بيو فى سييرا دى بسليدا هناك موريسكى فقيه يدعى آيت ، وفى بسويرا التابعة لسييرا دى سليدا هناك فقيه آخر يدعى بسليمان، وفى قرية فانسارا التابعة لسييرا دى بسيلدا هناك ثلاثة فقهاء هم : عيسى (وينظر إليه الناس على أنه عالم كبير فى الشريعة ، سواء على مستوى القرية أو على مستوى كل مملكة فالنسيا ؛ ولهذا يحضر إليه كثير من الموريسكيين طلبًا للفتوى ، وهو يجيب على أسئلتهم ويحل منازعاتهم ، وهو يعرف اللغة القشتالية قراءة وكتابة ، ويعيش فى كل أموره كمسلم حقيقى) والفقيه الآخر يُدعى سليم ، أما الثالث فاسمه توتايال . وفى بال دوخو يعيش الفقهاء الآتى ذكرهم: فى قرية بنى قاعة يعيش الفقيه صديق، وفى اثانيتا يعيش ابن يوسف خيريت ، وابن فوزى خيريت ، وهما أولاد عم أبواهما أخوان ، وهما شابان ، وفى نفس قرية أثانيتا هناك موريسكى آخر اسمه بيكاثيت يعلم الأطفال اللغة العربية، وفى قرية ثونيخا هناك فقيه شاب اسمه أدال، وهو ابن حميمات أوال، والاثنان – الأب والإبن – يعلّمان اللغة العربية ، وفى مدينة سيغوربى هناك فقيه آخر اسمه تاسين،

وفى بال دى سيغو - فى قرية كوارتيل - هناك فقيه آخر اسمه تاوريت ينظر إليه الناس على أنه عالم كبير فى اللغة العربية ، وفى قرية المديخار هناك فقيه يُدعى سليم ويعتبره الموريسكيون عالمًا كبير . وهناك فى قرية أثوكوا فقيه اسمه يوسف ، وهو ابن فقيه متوفى اسمه محمد ، وفى قرية البلد التابعة للسيد/ خيرونيمو بياراسا هناك فقيه اسمه سعد ، وفى قرية مورو المجاورة لكوثنتاينا هناك فقيه اسمه شويوش يعتبره الموريسكيون عالمًا كبيرًا ، ويراه البعض أحد أعمدة الإسلام فى مملكة فالنسيا ، ويتبع الموريسكيون رأيه. كل الأشخاص المذكورين أعلاه يعرفهم الشاهد ويعلم أنهم فقهاء وأنهم يعيشون وفقا لشريعة المسلمين ، ولا يمارسون أية طقوس مسيحية ، فلا يسمعون الوعظ ولا يعترفون.

وفى كاستيون دى روغات هناك فقيهان اسمهما سعد ومديديت ، وفى قرية كاركرى هناك موريسكى اسمه سليم يراه الموريسكيون عالمًا بالشريعة ، وفى غانديا هناك فقيه اسمه ثوميا يعتبره الموريسكيون عالمًا ويحترمون رأيه، وفى بال دى مارانيين هناك فقيه آخر اسمه تالايا يعتبره الموريسكيون من العلماء. هؤلاء الأشخاص ، وإن كان الشاهد لا يعرفهم بصفة شخصية ، إلا أنه استعلم عنهم من خلال موريسكيين كثيرين ، فقالوا له إن كل هؤلاء الأشخاص فقهاء وعلماء فى الشريعة ودين محمد ، وكلهم يعيشون كمسلمين.

ولما سأل السيد/ خيرونيمو مانريكى عضو محكمة التفتيش الشاهد غاسبار كوسكويا فى (١ فبراير ١٥٦٧) عما إذا كان يعلم أو يتذكر شيئًا آخر ضد الأشخاص المذكورين أعلاه قال:

فيما يتعلق بمحاولة تنصير المسلمين ، أرى أن الشىء الرئيسى الذى ينبغى القيام به هو تنصير سادة الموريسكيين ، لأنهم السبب وهم الذين يحرضون الناس على البقاء كمسلمين ، هكذا يقولون لهم ، وهكذا سمعهم الشاهد ، وقد ذكر الموريسكيون للشاهد أن قرآنهم يأمر بطاعة الملك فإذا ضغط الملك عليهم ودافعوا عن أنفسهم قدر استطاعتهم ومع ذلك استمر ضغط الملك فإنهم لا يستطيعون التخلى عن الإسلام. هكذا يأمرهم القرآن: أن يطيعوا أوامر الملك كما يطيعون الله.

ورغم أن أبناء السيد/ خيروينمو دى ابن عامر وهم السيد / فيرناندو والسيد/ كوسمى والسيد/ خوان وابن أخ لهم اسمه السيد/ خيروينمو ، رغم أن بعضهم تابع لمحكمة التفتيش إلا أنهم أعمدة الإسلام فى هذه المملكة ، فرغم أنهم يقولون إنهم مسيحيون مخلصون إلا أنهم فى داخلهم مسلمون كمحمد. وذات يوم من عام ٥٩-١٥٦٠ قالوا جميعًا - عدا السيد/ ايرناندو - قالوا للشاهد فى بناغواثيل إنهم يعجبون منه ، لأنه رغم علمه بالحقيقة إلا أنه ليس مسلمًا ، وقال لهم الشاهد كلامًا معناه أن دينهم سيئ ، وأن محمد مثل مارتن لوثر. وقد تحدث المذكورون مع الشاهد وقالوا له إن دين محمد أفضل من دين المسيحيين ، والشاهد يعلم أيضًا أن المذكورين قد أرسلوا أبناءهم إلى مكان ما فى الفانديغيا لكى يتعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية ، وذكر أنهم أرسلوا أبناءهم لكى يتعلموا على يد فقيه اسمه عبد الملك يعيش فى مكان ما فى الفانديغينا التابعة لبال دوخو ، وذكر كذلك أن المسلمين يحترمون الأشخاص المذكورين ، وقال إنه من المعلوم بين الموريسكيين أن الأشخاص المذكورين مسلمون.

ولما سُئل الشاهد عما إذا كان يعلم من هم السادة الذين يقفون وراء بقاء الأشخاص المذكورين كمسلمين قال: دوق سيغوربى والأدميرال والسادة الآخرون ، ورغم أنه لا يعلم شيئًا خاصًا عنهم إلا أنه يعلم ذلك من كلام المسلمين ، فهم الذين قالوا له ذلك. يقول المسلمون إن السادة يوافقون على أن يكونوا مسلمين ؛ ولهذا فمن المناسب تنصير السادة أولاً . ويرى هذا الشاهد أن حرص بنى عامر على التعاون مع محكمة التفتيش إنما ينبع من رغبتهم فى تضليل محكمة التفتيش ، لا من الغيرة على الدين المسيحى.

فى فالنسيا بتاريخ ١٣ فبراير ١٥٦٧ ، وأمام انريكى عضو محكمة التفتيش ، حضر القسيس ميغيل خيرونيمو سامبيرى مبشر شيبا وقال: إنه رأى فى قرية شيبا كلاً من السيد/ كوسمى بن عامر ، والسيد/ خوان بن عامر ؛ وهما أخوان مسلمان متنصران حديثًا ، ومن بناغواثيل ، وإن الموريسكيين يحترمونهما إلى حد كبير ، وإن لهما معاملات كثيرة مع الموريسكيين ، وهؤلاء يرحبون بهما ، وإن السيد/ خوان عندما يأتى إلى شيبا فإن الموريسكيين يسمونه عليًا ويقبلون يديه وثوبه ، وهكذا يفعلون مع السيد/ كوسمى الذى يطلقون عليه اسمًا إسلاميًا - لا يدرى هل هو أحمد أم إبراهيم -

وأنه من المعلوم فى شيبا أن المذكورين يعيشان كمسلمين ، وأن أشخاصًا كثيرين يرونهما وهما يحملان أسلحة فيتعجبون(*)

فى فالنسيا بتاريخ ١٣ يونيه عام ١٥٦٧ قدم ممثل الادعاء لدى محكمة التفتيش إلى انريكى عضو محكمة التفتيش المذكرة التالية:

سادتى:

اوبييدو ، ممثل الادعاء لدى محكمة التفتيش هذه ، يمثل أمامكم ويقول ما يلى: إننى خلال الأيام الماضية طلبت منكم أن تأمروا باعتقال السيد/ كوسمى بن عامر (من بناغواثيل) ومصادرة ممتلكاته لارتكابه جرائم ضد عقيدتنا المقدسة ، وقدمت معلومات متوافرة لدى إلى هذه المحكمة ، والآن توفرت لدى أدلة جديدة ضد المذكور أقدمها لنفس السبب ، ونظرًا لأن معظم الشهود على هذه الأدلة سيودعون السجن ؛ فإننى أطلب تأجيل سجنهم حتى تثبت أقوالى ثم بعد ذلك يسجن الشهود فى أقرب وقت . « توقيع أوبييدو » .

القرار:

قال خيرونيمو مانريكى عضو محكمة التفتيش عند تقديم المذكرة السابقة : بما أننا طالبنا أعضاء المحكمة بسجن السيد/ كوسمى ولم يصل ردهم حتى الآن، فلتُرسل هذه المذكرة مصحوبة بالمعلومات المتوافرة عن السيد/ كوسمى إلى السادة أعضاء المحكمة لإبداء الرأى.

فى فالنسيا بتاريخ ٣٠ مايو ١٥٦٧ استدعى مانريكى عضو محكمة التفتيش رجلاً مودعًا بسجن محكمة التفتيش هذه ولما سُئل السجين أجاب أن اسمه المسيحى «خوان باوتستا» وأن اسمه الإسلامى هو أحمد ، وأنه من القاهرة ، ويقيم فى ساينت ، وأن عمره أربعون عامًا ، وأنه مسجون منذ أمس ، وأنه لدى مروره ببناغواثيل تعَرف

(*) من المعلوم أن الموريسكيين كان محظورًا عليهم حمل أسلحة، وذلك بمقتضى قرارات كثيرة صادرة من السلطات المسيحية على اختلاف درجاتها. (المترجم)

على السيد/ كوسمى بن عامر ، وهو ذو بشرة ليست بيضاء جداً وملابسه حسنة ، ويحمل سيفًا ، وتحدث معه عن بلاد البربر ، وذكر له أنها بلاد طيبة ، وأن ثمارها طيبة صيفًا وشتاءً ، وتحدث الاثنان عن القرآن بشكل بدا معه أن السيد/ كوسمى مسلم.

فى فالنسيا بتاريخ ١٢ يونيه ١٥٦٧ أحضر رجل كان مودعًا بالسجون السرية ومثل أمام مانريكى عضو محكمة التفتيش ، ولما سُئل أجاب أن اسمه بدرو ، وهو من ترمسان (تلمسان؟) Tremicen ببلاد البربر ، ويقيم فى بونيول ، وعمره خمسة وعشرون عامًا ، وأنه أودع السجن هذا الصباح ويرى أنه أودع السجن لأنه مسلم ، ولأنه يؤمن بدين محمد ككل أبناء قرية بونيول ، فهم مسلمون ويؤمنون بدين محمد ، ويصومون رمضان، ويؤدون بقية شعائر الإسلام. وفى بناغواثيل يعيش السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ ايرناندو ، وهم من عائلة ابن عامر، كمسلمين ويؤدون نفس الشعائر ، وهم نصحوا الشاهد بأن يكون مسلمًا وأن يترك المسيحية ، وأن السيد/ كوسمى المذكور أرسل إلى بيت مسلمة ساحرة يسميها المسلمون نظّارة كى تبحث عن كنز لآلئ كان جده القائد قد دفنه فى مكان مجهول، وأن السيد/ كوسمى كان يقرأ القرآن لزوجته ولخدمه ، ويعلمهم مبادئ شريعة محمد ، ويقول لهم إنها شريعة طيبة. والسيد/ ايرناندو ابن عامر شقيق كوسمى مسلم جيد أيضًا رآه الشاهد يؤدى الصلاة ويصوم رمضان مثل كل أفراد أسرته ، ورغم أن لديه زوجة على قيد الحياة تعيش فى بنى زنون ، إلا أنه تزوج بأخرى ، هى فيكتوريا فيلومينا ، طبقًا لتعاليم الإسلام ، على يد فقيه من بناغواثيل يعلم الأولاد الصغار مبادئ شريعة محمد . وبالإضافة إلى ذلك فإن عائلة ابن عامر لديها عبيد – أحدهم عربى واثنان من السود – مسلمون أيضًا يصومون رمضان مع سادتهم . وفى كاستيانو المجاورة لسيغوربى رأى الشاهد شابًا يقوم بختان الأطفال الموريسكيين فى شيلبا وفى قرى أخرى ، والشاب يحصل على قمح ونقود مقابل قيامه بختان الأطفال ، والشاب يجرى عملية الختان باستخدام مقص. وفى شيبا هناك فقيه اسمه سيسونيت يعلّم القرآن والشريعة الإسلامية لأولاد الموريسكيين ، ويحدث ذلك فى بوليت وفى قرى أخرى حيث يوجد فقهاء يجهل الشاهد أسماءهم المسيحية ، وكلهم متقدمون فى السن عدا بوليلة ، فعمره يتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وهو يمارس السحر فيحضّر الجان ، ويقوم بعلاج المرضى كطبيب .

فى فالنسيا بتاريخ ٢٨ يونيه ١٥٦٧ مثل بدرو غريغوريو ؛ وهو سجين منذ اليوم السابق ، أمام كل من خيرونيمو مانريكى وخوان دى روخاس عضوى محكمة التفتيش ، ولما سُئل كان جوابه على النحو التالى: إنه من المغرب، ويقيم فى بناغواثيل، وتم تعميده فى لشبونة عندما كان عمره اثنى عشر عاماً. كل سكان بناغواثيل يعيشون كمسلمين ، سواء من حيث العقيدة أو من حيث أداء الشعائر ، فهم يحتفلون بأعياد المسلمين علانيةً ويصومون رمضان ، ويؤدون الصلاة سراً فى بيوتهم ، وهذا يحدث أيضًا فى بنى ثانو وفى قرى أخرى فى هذه المملكة. كما أن الأخوين اللذين ينتميان إلى عائلة ابن عامر فى بناغواثيل مسلمان ، ولهما فى هذا السجن ثلاثة من خدمهم مسجونون ، وكانوا قبل ذلك يفضلون الموت على الإدلاء بشهادة ضد سادتهم. الأخوان هما سادة القرية ويحترمهما الجميع ، وربما كان السادة هم الذين علموا الخدم قبل سجنهم حتى لا يفصحوا عن شىء ولا يقولوا الحقيقة أمام محكمة التفتيش هذه.

فى فالنسيا وبتاريخ ٢١ مايو ١٥٦٧ مثل أمام انريكى عضو محكمة التفتيش فرانثيسكو بيبس وهو مسلم مغاربى متنصر حديثًا ومودع فى سجن محكمة التفتيش وقال: إنه كان مسلماً فى الحقيقة ، وصام رمضان برفقة السيد/ ايرناندو والسيد/ كوسمى والسيد/ خوان ، وهم أخوة من عائلة ابن عامر . وقد رآهم الشاهد يصومون رمضان ، وهم مسلمون وأن السيد/ ايرناندو اسمه الإسلامى إبراهيم ، وأن المسلمين جميعًا يحترمون عائلة ابن عامر ؛ لأنهم أهل شرف ، ولأنهم يعاملونهم معاملة طيبة. وأنه رأى أنهم يحتفلون بأعياد المسلمين عندما يحين وقتها ، وأنهم يذبحون الأضاحى للاحتفال بالعيد ، وقد رآهم يصلون صلاة "الحمد لله" و"قل هو الله"، ويتذكر أنه رأى السيد/ كوسمى وهو يقرأ القرآن ، ويقرأ كتبًا أخرى من كتب المسلمين ، وكان السيد/ كوسمى يطلب من الشاهد أن يكون مسلمًا ، وعندما كان السيد/ كوسمى يقرأ القرآن أمام الشاهد كانت تحضر معه زوجته وابنتاه: الأولى عمرها ١٨ عامًا والثانية ١٥ عامًا ، وهما مسلمتان وتعيشان بشكل إسلامى. والشاهد يتذكر أنه ذهب ذات يوم إلى منزل السيد/ خوان دى ابن عامر فقالت له فتاة موريسكية إنه لا يمكنه الدخول لأن السيد خوان يؤدى الصلاة. ويرى الشاهد أن كل سكان بناغواثيل من أكبرهم إلى أصغرهم مسلمون ، وأن عائلة بن عامر تتسبب فى إلحاق الأذى بالموريسكيين ، فهؤلاء ينظرون

إلى العائلة على أن أفرادها من أهل الشرف والرأى ويأتمرون بأوامرهم. وقد ذهب الشاهد مع السيد/ كوسمى إلى العاصمة ، ورأى أن ميراندا عضو لمحكمة التفتيش عامله معاملة طيبة وعامل الجميع بشكل طيب لكى يحضروا الأسلحة ، بل وجعلهم من المتعاونين مع محكمة التفتيش.

فى فالنسيا وبتاريخ ٢٥ يونيه ١٥٦٧ ، وأمام مانريكى عضو محكمة التفتيش ، حضر انيغو دى مندوثا نزيل سجون محكمة التفتيش وقال: إن أفراد عائلة ابن عامر فى بناغواثيل يعيشون كالمسلمين، بل إنهم يشجعون الموريسكيين لكى يكونوا مسلمين . ولما كان الشاهد فى قرية مورو - وهى قرية موريسكية فى كوثنتيانا يعيش فيها فقيه - مات والد أحد أفراد عائلة ابن عامر واسمه خيرونيمو فاستدعوا الفقيه لكى يقوم بتقسيم الميراث حسب شريعة المسلمين ، وكان الفقيه مسروراً لتوزيع التركة بهذه الطريقة. كانت التركة تتضمن - بين أشياء أخرى - نقوداً تركها السيد/ خيرونيمو بين ذهب وفضة. وقد استمرت عملية إحصاء النقود يومين كاملين ، وقام الفقيه بتوزيع النقود وفق شريعة المسلمين ، وأخرج العُشر لكى ينفقه على تحرير العبيد المسلمين ، وعلى الصدقات لفقراء الموريسكيين . وقد أبدى الورثة بعض التحفظ ، إذ كانوا يخشون أن يؤدى ذلك إلى معرفة أن لديهم ثروة كبيرة فيستولى عليها صاحب الجلالة.

فى فالنسيا وبتاريخ ١٤ مايو ١٥٦٧ كان السيد/ خيرونيمو مانريكى عضو محكمة التفتيش فى صالة السر بالمحكمة ، ولم ينتظر زميله غريغوريو دى ميراندا عضو محكمة التفتيش - الذى ذهب للقيام بزيارة كنسية بناءً على أوامر محكمة التفتيش العامة - فاستدعى أصحاب القداسة السيد/ توماس دى أسيون المرشح لشغل منصب أسقف ساثير وبيرناردينو غوميث دى ميديس قسيس فالنسيا ، والقاضى موربيدرو (كمستشارين فوق العادة)، والسيد ميغيل غوميث دى ميديس ، والسيد كريستوبال رويغ، والسيد خوان دى أغيرى ، والسيد سيمون فريغولا المستشارين العاديين . استدعى الجميع للبحث والتحرى والتفكير فيما يجب عمله إزاء الأدلة المتوافرة لدى محكمة التفتيش هذه ضد السيد/ كوسمى بن عامر المسلم المتنصر حديثًا ، وهو من أبناء هذه المملكة ويقيم فى بناغواثيل. وبعد أن اطلع الجميع على الأدلة وتناقشوا بشأنها كانت آراؤهم كالتالى:

يرى كل من السيد/ توماس دى أسيون المرشح لشغل منصب أسقف ساثير والسيد/ بيرناردينو غوميث دى مييديس تأجيل سجن السيد/ كوسمى لبعض الوقت ، أما كل من السيد/ ميغيل غوميت دى بيديس والسيد/ كريستوبال رويغ . وهو من مجلس صاحب الجلالة ، والسيد/ خوان دى أغيرى ، والسيد سيمون فريغولا فقد قالوا إنه بما أن كلاً من السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ خيرونيمو (الجميع من عائلة ابن عامر) قد تحاوروا مع غاسبار كوسكويا بهدف إقناعه بالدخول فى الإسلام ، وبناءً على الأقوال الواردة بحقهم ، وأنهم كانوا مسلمين ، فيرون أن يسجنوا وأن تصادر أملاكهم ، وذلك لأن أفراد عائلة ابن عامر المذكورين قد اعتنقوا ديننا المقدس وسمعوا الخطب والوعظ، ويبدو أنه لا ينطبق عليهم المبرر الذى ينطبق على الموريسكيين الآخرين الذين يقولون إنه لم يقم أحد بتعليمهم مبادئ العقيدة الكاثوليكية. من المناسب إذن أن يُسجنوا، وأن توقع عليهم العقوبات التى تتناسب مع جرائمهم ، وهى أنهم قاموا بحمل السلاح ، وأنهم من المتعاونين مع محكمة التفتيش ، فكان يتعين عليهم أن يتصرفوا كمسيحيين مخلصين ؛ فهذا هو ما استحقوا عليه ذلك التكريم، لكنهم خدعوا الناس بالمظاهر الخارجية. من المناسب أيضًا بل ومن الضرورى لكى يتعظ الموريسكيون أن تُنتزع عائلة ابن عامر من بينهم ، وما لم نفعل ذلك فلن يجدى أى شىء آخر.

وقال مانريكى عضو محكمة التفتيش إنه يرى سجن السيد/ كوسمى فقط ومصادرة ممتلكاته ، ولكن بما أن هذا الأمر خطير فنرى مناقشته مع السادة أعضاء محكمة التفتيش العامة لكى يبدوا الرأى فيما يجب عمله طاعةً للرب ، وعليه فإنه يرى أن يناقش الأمر مع السادة الأعضاء قبل أن يتم إلقاء القبض عليه.

فى مدينة مدريد وبتاريخ ٢١ يونيه ١٥٦٧ ، وبعد أن اطلع السادة أعضاء محكمة التفتيش العامة على الأدلة المقدمة ضد السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ ايرناندو (الجميع من عائلة ابن عامر) المقيمين ببناغواثيل فى مملكة فالنسيا ، قرروا: يُسجن كل من السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ ايرناندو بن عامر وتُصادر ممتلكاتهم.

فى فالنسيا وبتاريخ ١ يوليه ١٥٦٧ ، وتنفيذًا لأوامر السادة أعضاء محكمة التفتيش العامة ، قرر كل من خيرونيمو مانريكى وخوان دى روخاس عضوا محكمة

التفتيش إلقاء القبض على السيد/ كوسمى والسيد/ خوان والسيد/ ايرناندو بن عامر، وإبداعهم سجن محكمة التفتيش ومصادرة ممتلكاتهم ؛ ولتنفيذ هذا الأمر تم إعلام حاجب محكمة التفتيش .

فى فالنسيا وبتاريخ ٢٨ يوليه وأمام مانريكى عضو محكمة التفتيش حضرت سيدة ، ولما سُئلت كانت إجابتها كالتالى: إن اسمها المسيحى هو فرانثيسكا واسمها الإســلامى فاطمة ، وهى متزوجة من فرانثيسكو بيبيس ، وأنها من ببناغواثيل ، وكانت تقيم بهــا إلى أن قامت عائلة ابن عامر بطردها منها ، لشكهم فى أن زوجها بيباس (هو بيبيس كما ذكرت فى شهادتها) قد وشى بهم إلى محكمة التفتيش ، حينئذٍ ذهبت الشاهدة إلى ريباروخاس ، وهى بلدة قريبة من بناغواثيل ، لكن السيد/ كوسمى طردها منها أيضًا لنفس السبب ، ولأنه مسلم ككل إخوته . ويقال عن السيد/ كوسمى إنه ذهب لمقابلة الملك ، ويقول الآخرون إنه ذهب لمقابلة البابا. ويقول آخرون إنه مختبئ فى السهول هربًا من محكمة التفتيش ، لكن المكان الذى تحدثت الشاهدة فيه مع السيد كوسمى هو ريباروخاس ؛ وهى بلدة له فيها بعض الممتلكات.

فى ٢٣ أغسطس ١٥٦٧ أعد السيد/ فرانثيسكو دى إيرموسا حاجب محكمة التفتيش مذكرة كتبها بنفسه ذكر فيها أنه بحث بنفسه، وبمساعدة أشخاص أخرين فى عدة أماكن ، عن السيد/ كوسمى بن عامر فلم يجده فى ببناغواثيل ولا يعلم أحد مكانه.

فى فالنسيا وبتاريخ ٢ نوفمبر ١٥٦٧ قدم ميغيل سيرانو ، ممثل الادعاء لدى محكمة التفتيش، طلبًا لهيئة المحكمة يقول فيه: حيث أن حاجب محكمة التفتيش، وبعض العاملين بها لم يتمكنوا من العثور على السيد/ كوسمى بن عامر فيجب استدعائه بإعلان لكى يمثل أمام المحكمة ، ويدفع عــن نفسه تهــم الإلحاد والكفر الموجهة إليه ، وقد وافق أعضاء محكمة التفتيش على هذا الطلب ، وتم توجيه الإعلان المطلوب.

فى فالنسيا وبتاريخ ١٢ يناير ١٥٦٨ ، وأمام كل من مانريكى وروخاس عضوى محكمة التفتيش ، مَثُل السيد/ كوسمى بن عامر ، وهو مسلم متنصر حديثًا ومقيم فى ببناغواثيل ، وقال إنه بينما هو منهمك فى أعماله سمع أن محكمة التفتيش تستدعيه لكى يمثل أمامها ، وقد جاء طاعةً للأمر ومثل أمام المحكمة ، وقد أمر السادة أعضاء

المحكمة بإيداع السيد/ كوسمى أحد السجون السرية التابعة لمحكمة التفتيش ، وأن يُسلَّم إلى ميغيل أنخيل أونياتى قائد السجن وقد تولى الأمر بالفعل.

فى فالنسيا وبتاريخ ١٣ يناير ١٥٦٧ وأمام مانريكى عضو محكمة التفتيش مثل السيد/ كوسمى بن عامر بعد إخراجه من السجن السرى ، ولما سُئل كانت إجابته كالتالى:

اسمه هكذا ، وهو من بناغواثيل ، ولا عمل له لأنه يعيش من ماله الخاص ، وعمره ٤٤ عاماً ، وأنه سجين منذ أمس ، أى منذ اليوم الذى حضر فيه ، قرأ على المحكمة « أبانا الذى فى السموات »، لكنه لم يستطع قراءة صلوات Credo ولا Salve بل اكتفى بالإشارة بعلامة الصليب، قال إنه كان صغيراً عندما تم تعميده وإنهم أسموه كوسمى ، لكنه لا يتذكر ذلك ، ولا يرى أنه مسيحى بل هو مسلم كأبناء مملكة فالنسيا ، وقال إنه اعترف عدة مرات ، وإنه كان يتظاهر باتباع المسيحية، لكنه لم يكن مخلصًا إطلاقًا بل كان مسلمًا ، وإنه كان يعترف من باب تنفيذ الأوامر. يجيد القراءة والكتابة باللغة الموريسكية ، لكن ليست لديه كتب إلا دفاتر الحسابات ، كان اسم والده هو السيد/ خيرونيمو بن عامر واسم والدته السيدة/ انخيلا بينتشى دى ابن عامر وهما متوفيان. له أخوان هما ايرنانو وخوان ، وهما من بناغواثيل ، وله أخت اسمها السيدة / غرايدا وهى متزوجة فى سيغوربى من بنيت هاشم. هو متزوج من السيدة/ بياتريث خانكور ابنة خانكور، وهو من الكاتار، منذ عشرين عاماً، وله أربع بنات فى سن الزواج؛ هن السيدة/ انخيلا والسيدة/ خايمى والسيدة/ ماريا والسيدة/ آنا وليس له أولاد آخرون ، ولم يتزوج مرة أخرى. تزوج طبقًا للدين المسيحى ، وليس وفقًا للشريعة الإسلامية. عاش طوال عمره فى بناغواثيل رغم أنه غاب عنها فترات قضاها فى قشتالة وأراغون وفالنسيا وأماكن أخرى داخل الممالك التابعة لصاحب الجلالة. إنه حتى الآن عاش كمسلم ، واعتبر نفسه مسلماً، لكنه منذ الآن يريد أن يتنصر ، ويريد أن يفعل ما يأمر به السادة القضاة. علم أن محكمة التفتيش ستلقى القبض عليه وكره ذلك ، لكنه لم يختبئ عند أحد ، ولم يهمل أعباء بيته ، فى النهاية هو لا يتذكر إلا أنه عاش طوال عمره كمسلم وأنه أدى شعائر المسلمين الدينية.

ممثل الادعاء:

فى فالنسيا وبتاريخ ٢٦ يناير ١٥٦٨ قدم ميغيل سيرانو ممثل الادعاء إلى أعضاء محكمة التفتيش مذكرة اتهام ضد السيد/ كوسمى بن عامر جاء فيها:

السادة المحترمون:

أمثل أنا/ ميغيل سيرانو ، ممثل الادعاء، لدى هذه المحكمة أمامكم، وأوجه الاتهام إلى السيد/ كوسمى بن عامر المسلم المتنصر حديثًا ، والمقيم فى ببناغواثيل، والموجود فى القاعة. فرغم أنه قد عُمد وتمتع بالمزايا والحريات التى يتمتع بها المسيحيون الكاثوليك المخلصون - خاصة حق حمل الأسلحة ، رغم أنه موريسكى ، والموريسكيون الآخرون فى هذه المملكة محظور عليهم حمل السلاح - فقد سمح له بحمل السلاح ثقةً فيه ، ولعل ذلك يساعد على تنصير الموريسكيين الآخرين فى هذه المملكة ، وظنًا منا أنه يخشى ربنا ويحترم أمه السيدة العذراء، لكن المتهم - امتهانًا لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة ، وإيمانا بدين محمد الخاطئ - ارتكب جرائم الإلحاد وإقناع الآخرين بالدين الإسلامى ، وهذه الجرائم يأتى تفصيلها على النحو التالى:

١ - قام السيد/ كوسمى المذكور - لاعتقاده فى صحة الدين الإسلامى وبمشاركة آخرين من المسلمين المتنصرين حديثًا - بأداء الشعائر الإسلامية ؛ فصام رمضان ، واحتفل بأعياد المسلمين ، وذبح الأضاحى ، وارتدى أحسن ثيابه ، وأدى الصلاة ، وردد أدعية المسلمين. استمر ذلك حتى يوم اعتقاله فى محكمة التفتيش ، بل ومن المعتقد أنه حتى الآن لا يزال يظن أن عقيدة المسلمين تنقذه من النار.

٢ - لم يكتف بمعرفة مبادئ عقيدة المسلمين معرفة متوسطة ، بل حاول - بحماس شديد كمسلم - معرفة قراءة وكتابة القرآن الذى لا يجيد قراءته إلا الفقهاء ورجال الدين الإسلامى.

٣ - بعد أن أجاد قراءة القرآن وفهمه لم يكتف بأن يفعل ذلك من أجل نفسه ، بل حاول نشر دين المسلمين ، ورد المسلمين المتنصرين حديثًا إلى الإسلام حتى لا يكونوا مسيحيين ، فكان يقرأ عليهم القرآن ويفسر معناه ، وكان يشجعهم على العيش كمسلمين، وكان يقول إن الإسلام دين طيب، ويطلب منهم أن يصدقوا بكل ما قاله محمد.

٤ – لما كان يحب الإسلام فلم يكتف بمعرفة مبادئ دينه بل حاول معرفة أخبار المسلمين فى بلاد البربر والشرق لكى يفخر بأن الإسلام منتشر وبأن المسلمين أقوياء ، ولما حاول أن يتحدث شخص عن أمور فى القرآن فقد مدح هذا الشخص بحماس.

٥ – لم يكتف بتعليم الدين الإسلامى للموريسكيين وتشجيعهم على التمسك به ، بل حاول – بمشاركة آخرين – إقناع شخص مسيحى ليس من أصل مسلم بالدخول فى الإسلام ، وكان يقول له إنه يعجب كيف لا يدخل فى الإسلام رغم أنه دين أفضل من دين المسيحيين.

٦ – رغم أن ذلك الشخص المسيحى عارضه ونبهه إلى زيف الدين الإسلامى ، إلا أن السيد/ كوسمى صمم على مجادلته ، وحاول أن يساعده رفقاؤه فى استمالة ذلك الشخص إلى دين المسلمين .

٧ – يعتبره الموريسكيون فى مملكة فالنسيا كواحد من أعمدة الإسلام ، ويكنون له احترامًا كبيرًا ، ويعتبرونه المرشد الرئيسى لهم ، ويستمعون إلى نصائحه دون تردد.

٨ – بعد أن توفى والده أرسل فى طلب فقيه وأحضره إلى بناغواثيل لكى يقسم لهم التركة بينه وبين أخوته طبقًا للشريعة الإسلامية ، وقد حضر الفقيه وقسم التركة وأخرج العُشر منها لإنفاقه على تحرير الأسرى المسلمين والتصدق على الموريسكيين ، لكن السيد كوسمى وآخرين – خوفًا من أن يدرك صاحب الجلالة مدى ثرائهم – حاولوا إخفاء القيمة الحقيقية للعشر ، لكن الفقيه انصرف وهو يحمل نقودًا بين يديه.

٩ – لما كان السيد/ كوسمى مولعًا بالسحر والشعوذة ، فقد استدعى امرأة من اللاتى يحضّرن الجان ويسميهن الموريسكيون « النظارة » لكى تستخرج له كنزًا كان القائد الذى هو جد السيد/ كوسمى قد أخفاه تحت الأرض.

١٠ – لما كان السيد/ كوسمى بارعًا فى ارتكاب جرائم الإلحاد ومسجلاً فى دفاتر وسجلات محكمة التفتيش ، فقد أمره الادعاء بالحضور للمثول أمام المحكمة ، لكنه لم يشأ طاعة الأمر ، بل رفضه خوفًا من أن يناله العقاب الذى يستحقه.

١١ – رغم أن هذه المحكمة اتبعت كثيرًا من الوسائل لإلقاء القبض على السيد/ كوسمى إلا أنه لم يمكن العثور عليه ، وإزاء عصيانه كان من الضرورى أن يتم استدعاؤه بإعلان لكى يمثل أمام هيئة المحكمة.

١٢ - بعد استدعائه بإعلان واصل عناده ، وتأخر وقتًا طويلاً لكى يحضر.

١٣ - رغم اعترافه بأنه تم تعميده إلا أنه قال أمامكم إنه لا يعتقد أنه مسيحى.

١٤ - فى أحيان كثيرة اعترف كذبًا لمجرد إرضاء المسيحيين.

١٥ - عند سؤاله أنكر وأخفى أسماء الأماكن التى اختبأ فيها وأسماء الأشخاص الذين اتصل بهم والذين أنفقوا عليه طوال فترة هروبه وغيابه ، ومن المناسب التحرى لمعرفة الحقيقة وحتى يُعرف الذين تورطوا فى هذه الجريمة ؛ لأن هذه المعلومات لو استمرت خافية علينا ، فستكون هناك مشاكل كثيرة.

ولقد ارتكب جرائم أخرى كثيرة كمعلم لمبادئ العقيدة المحمدية وكملحد ، وقد رفض الاعتراف بذلك خلال نظر القضية ؛ ولذلك فإننى أطلب منكم اتخاذ إجراءات ضده ، وإعلان إلحاده ، وإنه - بناء على ذلك - قد وقع تحت طائلة عقوبة مصادرة أمواله ، وإحالة القضية إلى الجهات المدنية لتنفيذ حكم الإعدام ، وأطلب أن يكون تنفيذ النيابة لقرار مصادرة الأموال اعتبارًا من تاريخ ارتكابه لهذه الجرائم...... ، كما أطلب إعلان أن ورثته فاقدو الأهلية، والأهم من كل ذلك أطالب بتطبيق القانون فى حقه تطبيقًا كاملاً.

أطلب كذلك - إذا كانت الأدلة التى قدمتها غير كافية - أن يخضع السيد كوسمى للتعذيب بمعرفتكم حتى تتضح الحقيقة .

ردًا على الاتهامات السابقة قال السيد كوسمى :

إنه بمقتضى هبة ملكية قد سُمح له ولإخوته بحمل السلاح ، صحيح أنه كان من المتعاونين مع محكمة التفتيش ، لكنه قد أوقف هذا التعاون الذى لم يوقع بشأنه اتفاقًا، بل كان بموجب منحة ملكية. صحيح أنه عاش كمسلم منذ أن بلغ سن الرشد وحتى الوقت الحالى ، لكنه منذ الآن يريد أن يكون مسيحيًا طيبًا. صحيح أنه يجيد القراءة والكتابة باللغة العربية ، لكن ما يفهمه من القرآن قليل أو منعدم ؛ ولهذا فهو لم يقم أبدًا بتدريس العقيدة التى يتضمنها القرآن ، ولم يحرض أحدًا على أن يكون مسلمًا. أما بخصوص البنود ٤، ٥، ٦ الواردة فى قرار الاتهام، فيقول إنه ينفيها تمامًا، وبخصوص البند رقم ٧ يعترف بصحة أنه من الوجهاء ، وأن الموريسكيين فى مملكة فالنسيا يعاملونه

كذلك نظراً لأنه قدم خدمات لملوك أراغون وقشتالة ، وحصل من ملوكها على منح ، وبخصوص البندين ٨ . ٩ أنكر مضمونهما. بخصوص البند رقم ١٠ فقد اعترف بصحة أن قسيس بناغواثيل قد أخبره بأن أعضاء محكمة التفتيش قد استدعوه ، لكنه لم يحضر لأنه خاف من إلقاء القبض عليه لقلة معلوماته ؛ ولهذا بقى فى بيته يواصل عمله دون أن يتلقى مساعدة من أحد للاختباء، فلما علم أن أعضاء محكمة التفتيش يلحون فى طلبه عن طريق الإعلان العام اعتقد أنه من المناسب المثول أمامهم ، وبخصوص البنود ١٣ ، ١٤ قال إنه يعتقد أنه تم تعميده ، وأن كل مسلمى المملكة قد تم تعميدهم كذلك ، وقال إنه قد اعترف زيفًا للوفاء بواجبه فى الاعتراف.

أقوال الشهود ضد السيد كوسمى بن عامر:

١ – قال شاهد محلف أدلى بشهادته يوم ١٠ مارس ١٥٥٦: إنه كان فى بعض بيوت بناغواثيل وسيغوربى خلال ثلاث سنوات ، فى تلك البيوت كان يصوم رمضان مع أشخاص ذكر أسماءهم ، وكانوا لا يأكلون طوال النهار حتى يحل الليل ، ورأى كيف يحتفل الناس بأعياد المسلمين بارتداء أحسن ما لديهم من الثياب. يقول الشاهد إن الناس كانوا يؤدون هذه الشعائر ظنًا منهم أن اعتناق دين محمد ينجى من عذاب الآخرة ، ويقول إن من بين هؤلاء الناس كان السيد كوسمى بن عامر.

٢ – يقول شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى أبريل عام ١٥٦٠ إن شخصاً ما كان يتولى عملاً فى بناغواثيل على مدى عشرين عاماً ، وإن هذا الشخص قد شاهد الموريسكيين خلال تلك الفترة فرأى أنهم ليسوا مسيحيين ، ولا يعيشون كمسيحيين بل إنهم يتعاملون ويعيشون كمسلمين ، والآن بالتحديد هم أسوأ مما كانوا ، فلا ينقصهم إلا نقر الدفوف للدعوة إلى الصلاة فى المسجد كما كانوا يفعلون من قبل. يضاف إلى ذلك أن المتهمين كانوا يؤدون أعمالا أثناء الأعياد المسيحية.

٣ – يقول شاهد محلف أخر أدلى بشهادته فى مايو ١٥٦٥ إن السيد كوسمى وآخرين ذكر أسماءهم هم قادة المسلمين فى هذه المملكة ، فبرغم أنهم يقولون فى الظاهر إنهم مسيحيون مخلصون إلا أنهم فى داخلهم مسلمون كمحمد. وذات يوم – نحو عام ١٥٦٠ – قال السيد كوسمى ورفاقه لشخص ما إنهم يعجبون من أنه ليس مسلماً رغم علمه بالحقيقة، وأن ذلك الشخص قد رد عليهم وأفهمهم أن عقيدتهم سيئة ،

وأن محمداً مثل مارتن لوثر ، وقد جادله المذكورون ، وقالوا إن عقيدة محمد أفضل من عقيدة المسيحيين. وقال الشاهد إنه يعلم أن المذكورين قد أرسلوا أولادهم إلى "الفندقية" لكى يتعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية على يد فقيه ذكر اسمه ، وقال إن المسلمين يحترمون الأشخاص المذكورين ، فهم مسلمون كما هو معلوم بين الموريسكيين ، وكانوا يحاولون إقناع الشاهد بأن يكون مسلمًا ، وكانوا يبدون دهشتهم من أنه ليس مسلمًا مع أنه شخص متعلم ، ويرى الشاهد أن السيد كوسمى ورفاقه مرتبطون بمحكمة التفتيش ، وأن هذا الارتباط هدفه السخرية ، وليس الغيرة على الدين.

٤ – وقال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته في فبراير عام ١٥٦٧ إنه رأى أن السيد كوسمى ، ومعه بعض المسلمين المتنصرين ، يتمتعون باحترام الناس ، ويتعاملون مع الموريسكيين ويتبادلون معهم التحية، وإن لهم أسماء إسلامية ، وإنه من المعلوم أنهم يمارسون شعائر طائفة محمد ويحملون السلاح.

٥ – وقال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى يونيه ١٥٦٧ إن شخصاً ما قد مر ببلدة بناغواثيل ، وكان يجلس على أحد المقاعد فى الشارع فرأى رجلاً (السيد كوسمى) يمر وجلس بجواره ، وسأل الشاهد من أين هو وما إذا كانت بلدته طيبة ، كما سأله عن الأماكن التى زارها ، وقد أجاب الشاهد على أسئلة السيد كوسمى بن عامر فقال له إنه زار بلاد البربر ، وإن أراضيها صالحة وثمارها وفيرة فى الصيف وفى الشتاء. كما سأل السيد كوسمى الشاهد عما إذا كان يعرف القرآن ، فرد عليه بالإيجاب وذكر له فقرات منه رأى السيد كوسمى أنها صحيحة.

٦ – وقال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته (فى يونيه ١٥٦٧) إنه يتذكر أن السيد كوسمى ورفاقه يعيشون فى بناغواثيل كمسلمين ، وقد رآهم يصومون رمضان ويؤدون الصلاة ، وقد دعوا الشاهد إلى اعتناق الإسلام، وإلى ترك المسيحية ، وذكر الشاهد أن السيد كوسمى قد استدعى امرأة ساحرة من بال دى إيلدا يطلق عليها المسلمون لقب " نظّارة " وقد استضافها فى بيته لكى تعثر له على كنز وتستخرجه له من باطن الأرض ، وذكر الشاهد كذلك أن السيد كوسمى من كبار المسلمين ، وأنه يتعامل مع بعض الأشخاص الذين يعتنقون دين محمد ، وأنه يقرأ القرآن أمام أشخاص آخرين ويقول لهم إنه كتاب طيب ألفه محمد وخليق بأن يؤمنوا به.

٧ – قال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى يونيه ١٥٦٧ إنه رأى السيد كوسمى بن عامر وآخرين يمارسون شعائر الإسلام علانيةً ، ويحتفلون بأعياد المسلمين، ويأكلون اللحم وهم متوجهون إلى القبلة ، ويتسمّون بأسماء إسلامية ؛ كما لاحظ أن المسلمين يحترمونهم ، ويظن الشاهد أن أشخاصًا معينين كانوا يأتون إلى محكمة التفتيش وقد تدربوا على عدم الإدلاء بأى شىء يمكن أن يضر المذكورين.

٨ – قال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى مايو ١٥٦٧ إن شخصًا ما قد صام رمضان برفقة السيد كوسمى وآخرين وهم مسلمون ، وأن المسلمين يجلون السيد كوسمى ورفاقه ، وإنه قد رآهم يحتفلون بأعياد المسلمين عندما يحين موعدها ورآهم يذبحون الأضاحى احتفالاً بالعيد ، ورآهم يؤدون صلاة "الحمد لله" وصلاة "قل هو" ، ويتذكر الشاهد أنه رأى السيد كوسمى يقرأ فى القرآن ويطالع كتبًا أخرى من كتب المسلمين ، كما رآه يحرّض شخصًا على اعتناق الإسلام ، وأنه كان يقرأ القرآن أمام آخرين يستمعون إليه ، ويرى الشاهد أن السيد كوسمى ورفاقه هم الذين يسببون الأذى للموريسكيين ، فهؤلاء يعتبرونهم من أهل الرأى ، ويطيعونهم فى كل ما يأمرون به ، كما يرى أنهم يخدعون المسيحيين ، وأنهم إذا كانوا من المتعاونين مع محكمة التفتيش فذلك للاحتفاظ بما لديهم.

٩ – وقال شاهد آخر أدلى بشهادته فى يونيه ١٥٦٧ إنه تعرف على السيد كوسمى وآخرين فى بناغواثيل ، وإنهم يعيشون كمسلمين مثل الموريسكيين الآخرين تمامًا بل إنهم يحرضون الموريسكيين على الاحتفاظ بالإسلام كما يُقال علنًا فى البلدة، وقد سمع الشاهد واقعة أنه عندما مات والد السيد كوسمى أرسلوا فى طلب فقيه يقسم لهم الميراث ، وأن الميراث قد قسم وفق شريعة المسلمين وسنة المسلمين، وأن الفقيه قد أخرج عشر التركة لكى ينفقه على تحرير العبيد المسلمين وعلى فقراء الموريسكيين ، لكن الورثة قالوا إنهم لا يوافقون على ذلك حتى لا يعرف أحد حجم الثروة التى يمتلكونها وحتى لا يستولى صاحب الجلالة عليها . عندئذٍ حمل معه بعض المال.

١٠ – وقال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى يوليه ١٥٦٧ إن السيد كوسمى وشخصًا آخر كانا فى بلدة روخاس القريبة من بناغواثيل ، ولما ذهب شخص ما للإقامة هناك طرداه وقالا له إنهما فعلا ذلك لأن شخصًا ما قد وشى بهما لدى محكمة

التفتيش ، وذكر الشاهد أن السيد كوسمى وإخوته مسلمون ، ويعيشون كمسلمين ، وأن المسلمين الآخرين يوقرونهم.

١١ - وقال شاهد محلف آخر أدلى بشهادته فى أغسطس ١٥٦٧ إنه يعلم ما يُقال علنًا من أن السيد كوسمى بن عامر هارب من محكمة التفتيش وتغيب عن المثول أمامها عندما رآهم يلقون القبض على أحد خدمه.

فى فالنسيا وبتاريخ ١٣ يوليه ١٥٦٨ ، وفى قاعة محكمة التفتيش ، وأمام مانريكى عضو محكمة التفتيش ، أُمر بدخول السيد بيثير محامى السيد كوسمى بن عامر فدخل وكان السيد كوسمى حاضراً ، وقد أطلع عضو محكمة التفتيش المحامى على وضع القضية وأمر بأن تُقرأ عليه شهادة الشهود ، فلما سمعها نصح المحامى موكله بأن يقول الحقيقة ، فإن الدفاع الحقيقى يكمن فى قول الحقيقة ، وأنه إذا كانت لديه أقوال أخرى ويريد الدفاع عن نفسه فهو مستعد للدفاع عنه ، وقد رد السيد كوسمى بأنه قد قال الحقيقة ، وأنه ليست لديه أقوال أخرى ، ولا يريد إضافة أية معلومات أخرى ، وأنه لا يريد الدفاع عن نفسه.

فى فالنسيا وبتاريخ ١٥ يوليه ١٥٦٨ - وبناءً على أن قضية السيد كوسمى جاهزة ، ونظراً لأن السجون لا تكفى بسبب الإصلاحات الجارية - ونظراً لأسباب أخرى - أمر السادة أعضاء محكمة التفتيش بأن تتحدد إقامة السيد كوسمى نظير كفالة قدرها ألفى دوقية نظير تكاليف محكمة التفتيش ، وقد أودع المذكور سجن المتعاونين مع المحكمة.

فى نفس اليوم وعد السيد كوسمى بن عامر بأن يكون له سجن فى مدينة فالنسيا لا يخرج منه ، وأن يمثل كلما استدعته محكمة التفتيش ، وأنه إذا تخلف يُعلن خروجه عن المسيحية ويلزم بدفع ألفى دوقية للمحكمة ، ولكى يتم ذلك ؛ فقد ألزم بالتعهد بكل البنود الضرورية ، وقدم أسماء الضامنين له وهما : السيد فرانثيسكو دى بيلاريغ صاحب ثيرات ، والسيد بدرو كاروث شقيقه ، وهما من النبلاء ، وقد حضر الاثنان وقالا إنهما يضمنان السيد كوسمى بن عامر ، وقد أُلزما بالتعهد بالوفاء بالبنود اللازمة.

الأصوات :

في الصالة السرية لمحكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ٢٥ مايو ١٥٧١ وبحضور السيد خوان دى روخاس عضو المحكمة ، والسيد أغستين فريكسا نائب فالنسيا ، والسيد ميغيل غوميث ميدس ، والسيد كريستوبال رويغ ، والسيد فاوست خوان دى أغيرى ، والسيد سيمون فريغولا ، والجميع من دكاترة ومستشارى محكمة التفتيش ، وقد وجهت الدعوة للاجتماع بعد الاطلاع على ملف قضية السيد كوسمى بن عامر . وقد رأى المجتمعون بالإجماع ضرورة استدعاء السيد كوسمى لكى يتحدث بوضوح ويُدلى بشهادته إزاء التهم المنسوبة إليه (٢) .

طلب ممثل النيابة :

بتاريخ ٢٦ يونيه ١٥٧١ ، وأمام خوان دى روخاس عضو محكمة التفتيش ، قدم ممثل النيابة الطلب الآتى:

السادة الموقرون :

الدكتور خايمى بيريث - ممثل النيابة لدى محكمة التفتيش - يقول أمامكم : لما كان السيد فرانثيسكو كاروث دى بيلاريغ صاحب ثيرات وشقيقه السيد بدرو كاروث وهما من فالنسيا قد أخذا على عاتقهما ضمان السيد كوسمى بن عامر وفق القرار المعلن ، ولما كان من واجبى أن يعود السيد كوسمى إلى هذه المحكمة فإننى أطلب منكم إصدار الأمر بأن يعيد كل من السيد فرانثيسكو كاروث والسيد بدرو كاروث - أن يعيدا السيد كوسمى بن عامر فى غضون فترة قصيرة ، وإذا لم يعيداه يُعاقبا بدفع ألفى دوقية ، وهى العقوبة المنصوص عليها فى القرار ، وفوق كل ذلك أطلب تحقيق العدل.

توقيع دكتور بيريث

القـــرار :

اطلع خوان دى روخاس عضو محكمة التفتيش على الطلب السابق ، وأمر بإعلان السيدين فرانثيسكو وبدرو كاروث - ضامنى السيد كوسمى بن عامر - بوجوب تسليم

السيد كوسمى بن عامر إلى هذه المحكمة فى ظرف ستة أيام وإلا عُوقبا بدفع غرامة قدرها ألفى دوقية كنفقات لهذه المحكمة.

رد الضامنين:

السادة الموقرون :

لا يستطيع السيدان الشقيقان فرانثيسكو كاروث دى بيلاريغ وبدرو كاروث تسليم السيد كوسمى بن عامر لأنه – كما هو معلوم – متواجد فى مدريد منذ شهور لإجراء مقابلات مع السيد الكاردينال رئيس محكمة التفتيش العامة ، ومع السادة أعضاء المجلس الأعلى ، وهكذا فإن إعلانه وإحضاره يستغرق وقتًا يزيد عن الثلاثين يومًا؛ لهذا نطلب من حضراتكم سماع الشهود حول صحة ما نقول ، كما نطلب زيادة المهلة المحددة لإحضار السيد كوسمى المذكور.

فالنسيا فى ٨ يونيه ١٥٧١ .

القرار:

فى فالنسيا وبتاريخ ٩ يونيه عام ١٥٧١ علم السيد خوان دى روخاس عضو محكمة التفتيش بأن السيد كوسمى بن عامر متواجد فى بلاط صاحب الجلالة ، ولهذا قرر مد المهلة اثنى عشر يومًا للضامنين لتسليم السيد كوسمى إلى هذه المحكمة .

طلب من المجلس الأعلى:

السيد الموقر:

قدمت شكوى إلينا من قبل السيد كوسمى بن عامر ، وهو من بلدة بناغواثيل ، تقول : رغم أنه قد [وفقَّ أوضاعه] إلا أنكم لا تزالون تلاحقونه وتلاحقون ضامنيه حتى يعود إلى السجن .... عليكم إخبارنا بالسبب الذى تطلبونه من أجله ، ولماذا تطلبون من ضامنيه تسليمه. حفظكم الرب.

مدريد فى ١٨ يونيه ١٥٧١(٣)

مرسل من : السيد رودريغو دى كاسترو

السيد فرانثيسكو دى سوتو

السيد خوان دى أوبانو

السيد إيرنانو دى بيغا فونسيكا

إلى السادة الموقرين أعضاء محكمة التفتيش عن جرائم الإلحاد والكفر بمدينة ومملكة فالنسيا .

طلب آخر من المجلس الأعلى

السادة الموقرون :

اطلعنا على خطابكم الذى أرسلتموه، وفيما يتعلق بقضية السيدين كوسمى بن عامر وخوان بن عامر عليكم الالتزام بأوامر المجلس الأعلى ، وعدم إلقاء القبض عليهما ، أو استدعائهما إلا بعد إرسال القضية إلينا ، وتلقى تعليماتنا بشأن ما يجب عمله.

حفظكم الرب.

مدريد فى ٧ يوليه ١٥٧١

مرسل من السادة: رودريغو دى كاسترو ، فرانثيسكو دى سوتو سالاثار، خوان دى أوبانو، غاسبار دى كيروغا إلى السادة الموقرين أعضاء محكمة التفتيش بمدينة ومملكة فالنسيا.

طلب آخر من المجلس الأعلى:

السادة الموقرون:

اطلعنا على ملف قضية السيد كوسمى بن عامر والسيد خوان بن عامر ، وهما مسلمان متنصران حديثًا من بلدة بناغواثيل ، ونرد عليكم بأنه وفقًا لتصويت أعضاء محكمة التفتيش الذى أجرى بتاريخ ٢٥ مايو ١٥٧١ عليكم استدعاء الشقيقين المذكورين إلى محكمة التفتيش ، واستجوابهما ، وتوجيه الأسئلة اللازمة لمعرفة الحقيقة

حول التهم الموجهة إلى كل منهما . وبناءً على نتائج الاستجواب يتم الاطلاع مرة أخرى على الملفات بحضور المستشارين ، ويجب عدم تنفيذ القرار الذى تتخذونه بل إرساله إلى المجلس الأعلى ، وعليكم إفادتنا هل الشقيقان المذكوران أو أحدهما يحملان لقب المتعاونين مع محكمة التفتيش ، وهل مازالا يحملان هذا اللقب ، ومن الذى أصدر قرار حملهما هذا اللقب فى حينه.

حفظكم الرب.

مدريد فى ٣ سبتمبر ١٥٧٧

مرسل من السادة إيرناندو دى بيغا دى فونسيكا ، كاتيمينو ، خيرونيمو مانريكى ، سالاثار إلى السادة أعضاء محكمة تفتيش فالنسيا .

طلب ممثل الإدعاء:

فى فالنسيا وبتاريخ ٥ نوفمبر ١٥٧٧ وأمام بدرو ثاراتى عضو محكمة التفتيش تقدم خايمى بيريث ممثل الإدعاء بهذا الطلب.

السادة الموقرون:

الدكتور بيريث ممثل الإدعاء لدى هذه المحكمة والماثل أمامكم يقول: "لأسباب تتعلق بعبادة الرب وبخدمة محكمة التفتيش صدر الأمر بأن يمثل أمامكم السيد كوسمى بن عامر المسلم المتنصر حديثًا من بلدة خينوبليس خلال ستة أيام وإلا عوقب بإعلان خروجه عن تعاليم الكنيسة وبغرامة قدرها مائة دوقية. ولم يشأ هو اطاعة الأمر فى خلال المدة المذكورة، كما هو ثابت فى المحاضر التى أقدمها لكم. وأنا أكرر طلبى ضد السيد كوسمى المذكور بأن يعلن خروجه عن تعاليم الكنيسة ، وأنه قد استحق أن تُوقع عليه غرامة قدرها مائة دوقية . ولما كنتم تريدون استعمال الرأفة مع السيد كوسمى ؛ فقد أمرتم باستدعائه من جديد على أن يمثل أمامكم فى غضون أربعة أيام . ولما كان السيد كوسمى متغيبًا ، فقد تم إبلاغ زوجته ووالدتها وزوج أخته بالقرار ، وكانوا متواجدين بمنزله فى ١٢ أكتوبر الماضى. ولما كانت مهلة الأيام الأربعة قد

انقضت ولم يحضر السيد كوسمي فإنني أتهمه بالتمرد ، وأطلب منكم إعلان خروجه عن تعاليم الكنيسة ، وأنه يستحق أن يدفع غرامة قدرها مائة دوقية نظير عصيانه"

القـرار:

في مقر محكمة تفتيش فالنسيا ، وبتاريخ ١٧ ديسمبر ١٥٧٧ ، وبحضور كل من : بدرو دي ثاراتي ، وخوان دي ثونيبغا عضوي المحكمة ، وبعد الاطلاع على الأوامر التي صدرت إلى السيد كوسمي بن عامر لكي يمثل في هذه المحكمة ، وعلى الإعلان الذي سُلم إلى السيد كوسمي نفسه وإلى ذويه ، وبناءً على عصيانه وإصراره على عدم الطاعة ، وعدم تنفيذ ما أُمر به في المهلة المحددة ، وبعد الاطلاع على طلب ممثل النيابة ، تقرر تقديم شكوى ضد السيد كوسمي المذكور وإرسال حاجب يأتي بملابس له تعادل قيمتها مائة دوقية (وهي قيمة الغرامة والنفقات اللازمة) ، كما تقرر تفويض الحاجب في أن يأتي بالسيد كوسمي - إذا وجده - إلى مقر المحكمة.

في فالنسيا ، وبتاريخ (٢٤ ديسمبر ١٥٧٧) اعترف ميغيل أنخيل أونياتي قائد سجون محكمة التفتيش بأنه تسلم شخص السيد/ كوسمي بن عامر من ميغيل سيرانو لكي يودعه أحد السجون السرية . تم التعرف على شخصية السيد كوسمي ، ووجدت بحوزته مائة ريال قشتالية أودعت طرف مسئول الأمانات نظير غذاء السجين .

في مقر محكمة التفتيش ، وبتاريخ ٧ يناير ١٥٧٨ ، وأمام كل من : بدرو دي ثاراتي ، وخوان دي ثونيبغا عضوي محكمة التفتيش ، حضر ميغيل سيرانو ومعه مكتوب يقول فيه إنه نفذ أمر السادة (أعضاء المحكمة) وأحضر السيد كوسمي ، أما المائة دوقية فلم يحضرها ؛ لأن المذكور لم تكن معه ملابس أو أي شيء له قيمة . وقد حدث أن زوج أخت السيد كوسمي - ويدعى بيثنتي بايا وهو تاجر - قد تعهد بإحضار المائة دوقية إلى المسئول في محكمة التفتيش في ٢٣ يناير.

في جلسة ١١ يناير ١٥٧٨ وأمام بدرو ثاراتي عضو محكمة التفتيش أُمر بإخراج السيد كوسمي بن عامر من السجن ، وبعد أن أدى اليمين تم استجوابه فأجاب أنه كان قد تزوج في غانديا وعاش في خينوبيس لأنه أجرً (البيت) وبعد ذلك رحل إلى بني فيرون

فى بال دى بالديغنا حيث تمتلك زوجته بيتًا ، وقد أحضره سيرانو مقبوضًا عليه ليلة عيد الميلاد ، وأنه قد ألقى القبض عليه فى منزله ، وأن عمره يتراوح بين الخامسة والخمسين والستين، وأنه رجل طيب ، ولا يدرى ما هو سبب إلقاء القبض عليه.

فى جلسة أخرى بتاريخ ١٦ يناير ، قال السيد كوسمى إنه خلال السنوات الماضية قد حُوكم أمام محكمة التفتيش وسُجن ، لكنه قد صدر بشأنه عفو عام من قِبل الرئيس العام لمحاكم التفتيش السيد دييغو دى اسبينوسا ، والسادة أعضاء المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش : رودريغو دى كاسترو ، فرانثيسكو دى سوتو سالاثار ، إيرناندو دى بيغا ، خوان دى أوباندو ، وقد سلموه شهادات بذلك أحضرها إلى هذه المحكمة وسلمها إلى خوان دى روخاس عضو المحكمة ؛ لأن سوتو كالديرون عضو المحكمة كان حينذاك فى طرويل يرافق دوق سيغوربى ، وبعد أن اطلع روخاس عضو محكمة التفتيش على الشهادات قال للمتهم ولأخيه خوان بن عامر - رغم أن المكان قد أُعدّ لحرقهما - اذهبا إلى بيتكما فى سلام ؛ فقد عفونا عنكما ، وأننا لا شأن لنا بكما منذ الآن . وقد ذهبا بالفعل إلى بيتهما ، بعد ذلك نفذت محكمة التفتيش عدة أحكام بالإعدام ولم يقل لهما أحد شيئًا.

ولما سُئل الشاهد عن القضية التى بينه وبين ممثل الإدعاء لدى هذه المحكمة ولماذا كان مودعًا سجون محكمة التفتيش أجاب أن ذلك موجود فى ملف القضية، وأنه قد صدر بشأنه عفو عن كل ذلك ، وقد طلب منه أن يقرأ ملف القضية لكى يتذكر ما به ويجيب على الأسئلة، لكنه أجاب أنه قد صدر بشأنه عفو عن كل ما كان قد ارتكبه قبل تاريخ صدور العفو ، وأنه لذلك غير ملزم الآن بما هو موجود فى الملف.

وقيل للمذكور إننا لا نريد أن نمس العفو الصادر بشأنه ، ولا أن نرهقه ، ولا أن ننتقص من الفضل الذى يقول إنه قد أنعم عليه به الرئيس العام لمحاكم التفتيش والسادة أعضاء المجلس الأعلى ، بل إننا سنحافظ على كل ذلك بالنسبة له ، وبالنسبة لكل من يتمتع بهذه الأفضال ، وإننا - بناءً على كل ذلك - سنقرأ عليه الملف ، وإنه يتعين عليه أن يُجيب . وقد قرأنا وقائع الجلسة الأولى المؤرخة فى ١٣ يناير ١٥٦٨ وبقية الملف وقد فهم السيد كوسمى بن عامر ما ورد فيه ، وقال إن كل ما فعله حتى يوم صدور العفو عنه قد صدر عفو عنه ، وعن أخيه السيد خوان بن عامر من قبل جلالة

الملك فيليبى مولانا ، ومن قبل السيد الرئيس العام لحاكم التفتيش والسادة أعضاء المجلس الأعلى لحاكم التفتيش.

وقيل للمذكور إنه فى الجلسة الأولى اعترف بأنه كان مسلمًا طوال حياته ، وإنه أدى شعائر المسلمين ، فليقل الآن وليصف ما هى الشعائر التى كان يؤديها عندما كان مسلمًا ؛ فأجاب بأنه قد صدر بحقه عفو عن كل ما يتضمنه الملف من أنه كان مسلمًا ، وعن كل ما هو مكتوب ، وأنه - بناءً على ذلك - غير ملُزم بالرد.

وقد سُئل هل بعد اعترافه بأنه كان مسلمًا صدر بشأنه عفو عن جريمة الإلحاد التى ارتكبها ؟ وهل تصالحت معه الكنيسة ؟ وهل تبرأ من الخطايا التى ارتكبها ؟ فأجاب بأنه فعل ما أمره به السيد الرئيس العام لحاكم التفتيش والسادة أعضاء المجلس الأعلى والسادة أعضاء محكمة تفتيش فالنسيا وهو إحضار الخطابات التى سلموها إليه فى العاصمة ، وأنه قد سلمها بالفعل إلى السيد خوان دى روخاس عضو المحكمة الذى اطلع عليها وسمح له بالذهاب إلى بيته ، إذ قد صدر عفو عنه وعن أخيه السيد خوان بن عامر.

وقيل للمذكور إن توجيه الأسئلة إليه لا يهدف إلى إلغاء العفو الصادر بشأنه ، بل هو لصالح ضميره ؛ فأجاب بأنه قد نفذ الأوامر الصادرة إليه ، وأنه ليس بإمكانه أن يقول للسادة أعضاء المحكمة ما يجب عليهم عمله فهم مرآة العالم.

وقيل له إننا سنقرأ عليه ما تبقى من ملف القضية والاعترافات التى أدلى بها حتى جلسة ١٥ يوليه ١٥٦٨ حين خرج من السجون السرية التابعة لمحكمة التفتيش ، وبعد أن قرأنا عليه الملف ؛ أجاب بأنه سمع وفهم كل ما قُرئ عليه ، وأن التوقيعين باللغة العربية اللذين عُرضا عليه فى الجلسة هما توقيعاه(*) ، أما ما يتعلق بالأمور الأخرى الواردة فى الملف ؛ فقد قال إنه قد صدر بحقه عفو من قبل صاحب الجلالة ، ومن قبل الرئيس العام لحاكم التفتيش ، والسادة أعضاء المجلس الأعلى ، والسادة أعضاء محكمة تفتيش فالنسيا الموجودين حينذاك.

(*) إن توقيع السيد كوسمى بن عامر باللغة العربية أمام محكمة التفتيش - فى وقت كان يجب فيه أن يتنصّل من كل صلة له بالعربية - يؤكد أن الكتابة بالأخميادية لم تكن إلا لعجز بعض مسلمى الأندلس عن الكتابة بالإسبانية التى كانوا يجيدون التحدث بها . (المترجم) .

وقيل له إنه – وفق ما جاء بالملف – لم تبرأ ساحته بعد من جريمة الخروج على تعاليم الكنيسة ، كما أنه لم يتبرأ من جريمة اتباع ديانة محمد التى ارتكبها قبل العفو عنه، وإن ذلك ضرورى لخلاص روحه ، وإنه لكى يتطهر من كل ذلك يجب أن يعترف بكل جرائمه التى ارتكبها وقت أن كان مسلمًا لأن ذلك فيه الخير لنفسه وراحة لضميره ، وفيه استفادة من العفو الملكى وعفو محكمة التفتيش ، فليس هناك تفكير فى إلغاء هذا العفو ، بل النية هى الاستفادة من هذا العفو إلى أقصى حد ، وأنه إذا لم يفعل ذلك بمحض إرادته ؛ فإن هذا دليل على أنه يريد أن يظل خارجًا عن تعاليم الكنيسة ، وأن يظل على نفس الخطأ ، فأجاب أنه قد صدر بحقه عفو من قبل صاحب الجلالة ، ومن قبل محكمة التفتيش عن كل ما ارتكبه من أخطاء ؛ ولهذا فإنه ليست لديه ذنوب يعترف بها ، ولا يحتاج مجرد محامٍ يدافع عنه فى قضية تم العفو عنها رغم أنه – بناءً على إلحاح أعضاء المحكمة – يرغب فى تعيين محامٍ ينصحه ويدافع عنه.

فى مقر محكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ٣١ يناير ١٥٧٨ ، وأمام بدرو ثاراتى عضو محكمة التفتيش ؛ حضر كل من السيد كوسمى بن عامر المودع فى سجون محكمة التفتيش ، والسيد كريستوبال بييثير المحامى الذى أُبلغ بأن السيد كوسمى يرغب فى أن يدافع عنه ؛ لهذا فسنقرأ عليه ملف القضية لكى ينصح السيد كوسمى بما ينفعه لخلاص روحه ولراحة ضميره. وبعد أن قرأنا على السيد كريستوبال بييثير كل ما قاله السيد كوسمى بن عامر خلال الجلستين المنعقدتين يومى ١١ ، ١٦ من الشهر الجارى ؛ نبه السيد بييثير موكله السيد كوسمى إلى ضرورة الاعتراف بالحقيقة كاملة لمصلحته ، خاصة أمام محكمة تتوخى الحقيقة والعدل ، وقد استعمل المنطق فى إقناعه لأن هدف هذه المحكمة هو مصلحة المذكور والعفو عنه.

فى مقر محكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ٧ فبراير ١٥٧٨ وأمام بدرو ثاراتى عضو المحكمة أُحضر السيد كوسمى بن عامر من السجون السرية ، وأُعلن أنه الآن يعرف الـ Credo والـ Salve Regina والصلوات التى يجب أن يؤديها المسيحى ، وقد رددها كلها باللاتينية وبالإسبانية بما فيها " أبانا الذى فى السماء " ، وقال إنه منذ أن صدر العفو عنه عاش حياته كمسيحى ، وأنه يؤلمه أنه وُلد فى بيت مسلم ولآباء مسلمين ، وكان يتمنى لو أنه وُلِدَ لأبوين من المسيحيين القُدامى، وفى بيت مسيحيين قُدامى ؛ فذلك

أفضل لروحه ولجسده ، وأن أمه هى التى علمته كيف يؤدى الصلاة وصيام رمضان ومعناه الامتناع عن الأكل طوال ثلاثين يومًا إلا فى الليل كل عام ، وأن أمه علمته الإيمان بإله واحد ، وقالت له إن مريم عذراء وطاهرة لكنها ليست أم الله ، وإن ربنا يسوع (ليس) ابن الله ، وإنما هو رسول الله ، وإنه يجب الإيمان بكل ما قاله ، وإن منْ لا يؤمن بما يقوله المسيح يأثم ، وأن أمه قالت له إن محمداً رسول الله قوله حق ، وإن من لا يؤمن بما قاله يأثم ، وإنه لأداء الصلاة يجب تلاوة " الحمد لله" و " قل أعوذ " وإن الصلاة يمكن أن تُؤدى وقتما يشاء ، وإنه إذا لم يؤد الصلاة يدخل النار ، وإن أمه كانت تنصحه ألا يقتل أحداً ، وألا يتطلع إلى زوجة غيره ، وألا يشهد الزور . قال إن أمه علمته العقيدة الإسلامية عندما كان صبيًا فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وإنه هكذا كان اعتقاده دائمًا إلى أن سُجن، وإلى أن أصدرت محكمة التفتيش عفوًا عنه.

يعترف أنه أدى شعائر المسلمين ، وصام رمضان منذ أن علمته والدته ، ومنذ أن عرّفته بشهر رمضان فى كل عام ، وكان يصوم فلا يأكل طوال النهار إلى أن يحين الليل ، وكان عندما يحين الليل يأكل ما يجد ، وقبل أن ينام كان يأكل مرة أخرى إذا رغب فى الأكل ، وهذا ما يسمونه " السحور " . وقد أدى المذكور الصلاة مرات كثيرة خلال العام، وكان أشد حرصاً على الصلاة فى رمضان وفى أيام الجمع لأن أمه كانت تقول له إن يوم الجمعة يوم مبارك. وكان فى شهر رمضان يؤدى خمس صلوات فى اليوم إن استطاع: صلاة الصبح ، وصلاة الظهر ، وصلاة العصر ، وصلاة المغرب ، وصلاة العتمة . وحين كان المذكور يؤدى الصلاة كان يؤديها بهذه الطريقة: كان يتوضأ فيغسل يديه إلى المرفقين ، وقدميه وعورته ووجهه ، وأنفه ، ورأسه ، وما وراء أذنيه : كل جزء ثلاث مرات ، بعد ذلك كان يضع سجادة نظيفة ، ويقف فوقها ، ويتجه ناحية القبلة ، ويرفع يديه ويخفضهما مردداً "الله اكبر" ، وكان يتلو سورة " الحمد لله" وسورة " قل هو الله أحد" (وقد قرأها باللغة العربية) ، وقال إنه لم يتعلم سورا أخرى ، وإن أمه لم تعلمه أكثر من ذلك . وبعد انقضاء شهر رمضان كان يحتفل بالعيد يوما واحدا، وكان يحتفل بعيد الأضحى وهو ثلاثة أيام ، وكان يذبح أضحية احتفالاً بالعيد.

وقال المذكور إنه لا يتذكر فى الوقت الحاضر أنه أدى شعيرة أخرى من شعائر المسلمين ، وقال إنه عندما كان يؤدى هذه الشعائر كان يؤمن بعقيدة المسلمين ، وكان

يظن أنها تنجيه من النار ، وقال إنه ظل يؤمن بهذه العقيدة طوال حياته إلى يوم إيداعه سجن محكمة التفتيش وصدور العفو عنه ، وإنه منذ ذلك اليوم أصبح مسيحياً ، ويرغب في أن يكون أكثر مسيحيةً ، وأن يعيش ويموت على شريعة يسوع كمسيحى كاثوليكى.

وقد سُئل السيد كوسمى بن عامر عن الأشخاص الآخرين الذين علمتهم أمه شعائر المسلمين التى وضعها ، أجاب بأنه لا يدرى لكنه يظن أنه بما أنها علمته هو فلابد أن تكون قد علمت إخوته فهم أبناؤها ، وقال إنها كانت تعلمه بمفرده ، وإنه كان يؤدى الشعائر بمفرده ، وقال إنه ذات مرة أدى الشعائر برفقة أخيه السيد لويس .

وكانت زوجة السيد كوسمى واسمها السيدة بياتريث خنثور تعلم بأنه يصوم رمضان ، ويعزى تعيين السيد كوسمى كمتعاون مع محكمة التفتيش إلى ميراندا عضو المحكمة فهو – كمبعوث لجلالة الملك إلى المسلمين المنصرين فى هذه المملكة – قد تعرَّف على السيد كوسمى وعلى إخوته وأحبهم ، وقد وقع ميراندا هذا التعيين بمفرده وصدَّق عليه نيكولاس بيردون الكاتب الشرعى بهذه المحكمة ، لكن الأعضاء الآخرين لم يوقعوا على التعيين الذى بطل بعد وقت قصير لأن دوق سيغوربى – الذى تعيش أسرة السيد كوسمى فى أراضيه – أسف كثيراً لتعيينهم متعاونين مع المحكمة واستدعاهم ، وقال لهم يتخلوا عن التعيين ؛ فحيث يتواجد هو ليسوا فى حاجة إلى هذا التعيين ، ولو أن الحاكم الإقليمى سبب لهم أذىً فليحضروا إليه وسيزيل عنهم الضرر؛ وعليه فإن السيد كوسمى وأخوته – رغبةً منهم فى عدم إغضاب دوق سيغوربى – قد ردوا التعيين إلى ميراندا عضو محكمة التفتيش .

وفيما يتعلق بالميراث الذى تركه والده قال السيد كوسمى إنه لم يحدث مُطلقًا أن تم توزيعه ، بل إن الميراث لدى أخوته وهو فى نزاع معهم حول نصيبه فى التركة ، لكنه عندما كان فى العاصمة ماتت أخت له تُدعى السيدة ليونور ؛ وهى زوجة خيرونيمو بوثتيا دى بنيثانو ، وقد استدعى زوجها صديقًا له لكى يتفاوض مع إخوة زوجته ، وهم أخوة السيد كوسمى ، حول المال الذى دفعته السيدة ليونور لتكاليف الزواج إذ لم تكن هناك أوراق بذلك ، ولهذا فقد حدده ذلك الصديق آدم سبوش الذى أطلق عليه بعض الشهود لقب " فقيه" عند حديثهم عن تقسيم التركة .

ويضيف السيد كوسمى إنه لم يعش له أولاد ذكور لفترة تزيد عن ستة أشهر ؛ ولهذا فلم يرسل أولادًا إلى الفندقية لكى يتعلموا اللغة العربية .

وقد سُئل عن اسمه الإسلامى وماذا قرأ ، وعم تحدث مع آخرين ، وماذا تعلم من القرآن فأجاب بأنه لم يكن له اسم إسلامى مطلقًا ، وأنه لم يحفظ شيئًا من القرآن ، وأنه لم يتحدث مع أحد عن شيء .

فى صالة السر بمحكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ١٢ فبراير ١٥٧٨ أمر بدرو ثاراتى بإخراج السيد كوسمى بن عامر من السجون السرية ، وقد طلب المتهم استدعاء محاميه ليتحدث معه ، وتوسل إلى السادة أعضاء المحكمة بسرعة الفصل فى القضية ؛ لأنه يشعر بالإرهاق ويخشى إصابته بمرض يودى بحياته ، وكذلك لأن بيته وأولاده يتعرضون للخطر إن ظل هو فى السجن ، وقد أجيب بأنه لأبد أن يخلص ضميره ؛ فهذا هو واجبه ، وبهذا أعيد إلى السجن.

فى صالة السر بمحكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ١٩ فبراير ١٥٧٨ أمر ثاراتى عضو المحكمة بإخراج كوسمى بن عامر من السجون السرية ، وبعد أن حلف اليمين سُئل عما إذا كان يتذكر شيئًا يجب أن يقوله لكى يخلص ضميره فأجاب السجين بأنه ليس لديه ما يقوله إلا ما قاله بالفعل. بعد ذلك أمر عضو المحكمة باستدعاء السيد كريستوبال بييثير المحامى وقرأ عليه محاضر الجلسات التى حضرها موكله كوسمى بن عامر منذ الحادى عشر من يناير الماضى. وقد نبه المحامى موكله كوسمى بن عامر إلى ضرورة أن يقول الحقيقة كاملة ، وأن يخلص ضميره تمامًا لأن ذلك فى مصلحته ، فقال ابن عامر إنه قد قال الحقيقة فعلاً ، وليس لديه ما يضيفه ؛ ولهذا فالقضية منتهية تمامًا . وبهذا أعيد إلى السجن.

فى فالنسيا وبتاريخ ٢١ فبراير ١٥٧٨ أمر كل من بدرو ثاراتى وخوان دى ثونييغا عضوى محكمة التفتيش بإخراج كوسمى بن عامر من السجن بكفالة قدرها خمسمائة دوقية ، وقد حضر السيد كوسمى بناءً على أمر عضوى المحكمة ، وسُئل عما إذا كان يريد الإخطار عن شيء فى السجن فقال إنه ليس لديه ما يقوله ، وأوصى بعدم إذاعة ما حدث فى القضية وما رآه فى هذه المحكمة ، وعليه فقد اقتيد إلى الدور السفلى لدفع الكفالة. بعد ذلك قال كوسمى بن عامر - أمام بدرو بلانكو سكرتير المحكمة - إنه تطبيقًا لأمر عضوى المحكمة سيكون مقر سجنه هذه المدينة ، ولن يخرج منها

إلا بتصريح ، وإلا عُوقب بدفع غرامة قدرها خمسمائة دوقية نظير نفقات المحكمة. وقدم ضامنين له هم : السيد فرانثيسكو بويل صاحب دايا ، والسيد بدرو كاروث ؛ وهما من الفرسان ، والسيد غابرييل البيطار ؛ وهو تاجر ، والجميع من هذه المدينة، وتم ذلك فى حضورهم ، وقد ضمنوا ذلك بأموالهم وبأشخاصهم .

فى فالنسيا وبتاريخ ٢٦ مارس ١٥٧٩ أمر عضوا محكمة التفتيش بدرو دى ثاراتى وخوان دى ثونييغا بأن يتغير سجن كوسمى بن عامر - نظراً لحسن سلوكه - ليكون فى بيته أو فى أى مكان يختاره بحيث يتواجد كلما استدعته محكمة التفتيش وإلا عُوقب بغرامة قدرها خمسمائة دوقية .

فى نفس اليوم تعهد كل من السيد بدرو كاروث دى بيلارغوت ، والسيد فرانثيسكو بويل صاحب دايا بضمان كوسمى بن عامر أمام المحكمة وتسليمه إليها عند الطلب وإلا عُوقبا بإعلان خروجهما عن تعاليم الكنيسة ، وبدفع غرامة قدرها خمسمائة دوقية نظير نفقات المحكمة.

فى مقر محكمة تفتيش وبتاريخ ١٧ يوليه ١٥٧٩ وبحضور كل من بدرو دى ثاراتى ، وخوان دى ثونييغا ، وفيرنان كورتيس أعضاء المحكمة ، والسيد أغستين فريكسا قاضى أسقفية فالنسيا والسادة المستشارين ميديس ، سان خوان دى أغيرى ، فريغولا ، بانياتوس ، فيرير ؛ وبعد الاطلاع على ملف قضية كوسمى بن عامر والتحاور بشأنها كان التصويت كالتالى:

يرى كل من بدرو ثاراتى وخوان دى ثونييغا ، والسيد ميديس أن يتصالح السجين مع الكنيسة بموجب قرار العفو الصادر من المجلس الأعلى.

ويرى كل من فيرنان كورتيس والقاضى أغستين فريكسا ، والسيد سان خوان ، والسيد فريغولا ، والسيد بانياتوس ، والسيد فيرير أن يتعرض السجين للتعذيب.

فى مدينة مدريد وبتاريخ ٢ أكتوبر ١٥٧٩ ، وبعد أن اطلع السادة أعضاء المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش على ملف القضية التى نظرتها محكمة التفتيش فالنسيا ضد السيد كوسمى بن عامر الذى كان مسلماً ، أمروا بأن يتعرض السجين للتعذيب، على أن تترك درجة التعذيب لاختيار أعضاء المحكمة ثم يُعاد عرضه على المستشارين ويطبق العدل.

السادة الموقرون:

اطلعنا على ملفات القضايا التى نُظرت ضد السيدين خوان بن عامر وكوسمى بن عامر ؛ وهما من أصول مسلمة ومن بلدة بناغواثيل ونعيدها إليكم. ما هو ثابت سيتم تنفيذه ، لكننا لأسباب عادلة نرى أن تعقدوا جلسات مع المذكورين تعنفونهما فيها لتخليص ضميريهما ، ويجب إفهامهما أن تخليص ضميريهما أمر هام للتمتع بالعفو الذى صدر بشأنهما عام ١٥٦١ . أما إذا استمرا على موقفهما ؛ فيتم تنفيذ ما قرره المجلس. حفظكم الله.

مدريد فى ٣ أكتوبر ١٥٧٩

توقيع: ايرناندو دى بيغا فونسيكا ، خيرونيمو مانريكى ، سالاثار

إلى أعضاء محكمة تفتيش فالنسيا

فى مقر محكمة تفتيش وبتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٥٧٩ ، وأمام بدرو ثاراتى عضو المحكمة تم استدعاء السيد كوسمى بن عامر ، وأُمر بعدم الخروج من المدينة إلا بتصريح من أعضاء المحكمة ، وأمر بحضور الجلسات ، وقد تعهد بذلك.

فى نفس المقر وبتاريخ ٢٨ من نفس الشهر ، وأمام عضو المحكمة نفسه تم استدعاء السيد كوسمى بن عامر ، وقيل له إنه كثيراً ما نُصح بأن يعترف بالحقيقة ، وإنه قد استدعى الآن لتأنيبه لكى يخلص ضميره من الجرائم التى أتهم بها ، خاصة تلك التى تتعلق بالأشخاص الذين أدوا معه شعائر المسلمين ، والأشخاص الذين رآهم يؤدون شعائر المسلمين، لأن الاعتراف بذلك ضرورى حتى يكون تحوله إلى المسيحية تحولاً صادقًا و هذا ضرورى للتمتع بقرار العفو الذى صدر بحقه عام ١٥٦١ ، فأجاب السيد كوسمى بأن هذه المحكمة محكمة عدل ؛ ولذلك فإنها لا تستطيع أن تأمره بأن يقول إلا ما هو عدل، وكل ما هو عدل قد قاله بالفعل ، وقال إنه يعلم أن أشخاصًا يتمنون له الشر ، رغم أنه لم يسىء إلى أحد ، وقال إنه تمنى من الله لو أنه وُلد فى بيت من بيوت المسيحيين القُدامى حتى يتعلم شريعة يسوع كاملة. وهكذا نصح بأن يفكر جيدًا فى أمره وأُذن له بالانصراف.

في مقر محكمة تفتيش فالنسيا وبتاريخ ٧ ديسمبر ١٥٧٩ ، وأمام بدرو ثاراتى عضو المحكمة تم استدعاء السيد كوسمى بن عامر ، ثم السيد سارثولا الذى عين محاميًا عن السيد كوسمى ، والذى اطلع على تطورات القضية وعلى اعترافات السيد كوسمى بن عامر ، وعلى كل ما أراد الاطلاع عليه ، وقد نصح السيد ساراثولا موكله بأن يقول الحقيقة ليخلص ضميره ؛ فهذا ضرورى لإنقاذ روحه ولانتهاء القضية ، وقد أجاب السيد كوسمى بأنه قد صدر بحقه عفو من الملك ، ومن الرئيس العام لمحاكم التفتيش ، ومن السادة أعضاء المجلس الأعلى ، وذلك نظير سبعة آلاف دوقية دفعها هو وأخوته ، وأنه الآن لن يدفع مرة أخرى ثمن أكاذيب الشهود. ولما كان الوقت متأخراً ، ولم يكن أحد يستطيع الرؤية التى تمكن من القراءة أو الكتابة فقد رُفعت الجلسة ، وغادر المحكمة كل من السيد كوسمى ومحاميه.

في مقر محكمة تفتيش فالنسيا ، وبتاريخ ٩ ديسمبر ١٥٧٩ ، وأمام بدرو دى ثاراتى عضو المحكمة حضر كوسمى بن عامر ومحاميه السيد ساراثولا ، وطلبا الاستماع إلى الشهود لأنهم يتهمون السيد كوسمى كذبًا ، وقد سلم عضو المحكمة إلى السيد سالاثار ورقتين تتضمنان أقوال الشهود، وذلك حتى يستخدمهما فى الدفاع عن موكله.

في نفس مقر المحكمة وبتاريخ ١٥ ديسمبر ، وأمام عضو المحكمة نفسه ، تسلم السيد سالاثار نسخة من عريضة الاتهام ومن الأقوال التى أدلى بها موكله، وذلك حتى يستخدم هذه المعلومات فى الدفاع عن موكله.

أمامى أنا بدرو بلانكو دى سالثيدو.

الهوامش

(١) Apud Boronat: Los moriscos españoles....,pp. 540-569

(٢) من بين أوراق قضية كوسمى بن عامر هناك رسالة إلى محكمة التفتيش صادرة عن المجلس الملكى تتضمن شهادة لصالح بنى عامر.

(٣) وصلت إلى محكمة التفتيش فى الثانى والعشرين من يونية .

شكوك حول الموريسكيين

خلال القرن السادس عشر كانت هناك شكوك مستمرة حول ثورات موريسكية أو اتصالات للموريسكيين مع سلطان المغرب أو مع سلطان تركيا. وهناك وثائق كثيرة جداً يبدو فيها الموريسكيون في نظر معاصريهم كمتآمرين ضد المسيحيين القدامى وضد الأمن الداخلي والخارجي لإسبانيا. نقدم الآن نموذجين:

١- مذكرة لمجلس الدولة رُفعت إلى صاحب الجلالة في ٢٨ يناير ١٦٠١ بشأن تحذير من موريسكيي إسبانيا أرسله الضابط بارتولومي دي يانوس ألاركون من تطوان حيث كان أسيراً. (١)

٢- محضر جلسات نواب قشتالة المحرر في ١٢ سبتمبر عام ١٦٠٧

سيدي :

يكتب إليكم الضابط بارتولومي دي يانوس ألاركون من تطوان رسالة بتاريخ ١٥ نوفمبر من العام الماضي ؛ فقد ذهب في خدمتكم إلى نابولي وهو يحمل أوسمة تفضلتم بها عليه. أسره موراتو الريس وهو يحمل بريدكم ، وقد علم يقيناً أن موريسكيي إسبانيا ينوون التمرد ؛ ولهذا فهم يتصلون بملك المغرب ، والآن هناك في الجزائر موريسكي من قرطبة في سفارة إلى السلطان التركي يغريه بسهولة عملية غزو إسبانيا لأن فيها خمسمائة ألف مسلم. ورغم أنهم رحبوا به في البداية إلا أنهم فيما بعد صرفوه باشمئزاز ، إذ بدت لهم العملية صعبة. إن هذا الموريسكي يقوم برحلات عديدة ، وهذه الاتصالات يشترك فيها أهل أراغون وفالنسيا التي يخرج منها يوميا إلى الجزائر كل من يريد. إنه يطلب منكم تأييد مهمته والأمر بمحاولة فك أسره ، إذ ليس لديه ما يملك إلا أنه خدمكم طوال حياته.

إن التعامل مع قضية الموريسكيين هو أهم ما يمكن عمله من أجل أمن هذه الممالك ، فليس هناك شك في أنهم أعداء ؛ ولهذا فإنهم سوف يستغلون أي فرصة تلوح لهم ،

وخاصة موريسكيى فالنسيا ، فهم مسلمون حقيقيون ، ففى خلال مدة الإعلان لم تحضر سوى امرأة واحدة للتصالح مع الكنيسة ، ولما كانت فترة الإعلان تنتهى فى العاشر من الشهر القادم فيبدو للمجلس أنه من المناسب أن تتعامل اللجنة التى أمر صاحب الجلالة بتشكيلها بحذر شديد وهى تقرر ما يجب عمله مستقبلاً حتى لا يحدث أى خلل (وهو ما يخشى وقوعه) لأن أعضاء محاكم التفتيش سيبدءون محاكمتهم ، ومن الواجب تجنب المشاكل التى قد تحدث.

ولكى يأمر كاردينال غيبارا أعضاء محكمة التفتيش فى قرطبة بمحاولة معرفة موضوع الموريسكى الذى ذهب فى سفارة إلى سلطان تركيا - لكى يأمر الكاردينال بذلك فقد قدمنا له معلومات عن الموريسكى .

وإلى جانب ذلك فإنه يبدو للمجلس أنه يليق بجلالتكم التفضل على الضابط الذى أرسل التحذير وفك أسره ، وقد اقترح الكاردينال أنه فى حالة موافقتكم سيخرج ثلاثمائة أو أربعمائة دوقية مخصصة للقديس بنيتو ، وهو أمر يحدث عادة ، فلتأمروا جلالتكم باستدعائه وإصدار الأمر الذى ترونه.

مدريد فى ٢٨ يناير ١٦٠١

توقيعات

كان يُعتقد دائماً أن الموريسكيين عبارة عن جواسيس لأى عدو قوى[٢] *، ففى مذكرة مجلس الدولة الموقعة فى مدريد بتاريخ ١٠ أغسطس ١٦٠٠* [٣] *عبروا عن مخاوف من حدوث اتصالات* [٤] *بين موريسكيى أراغون وفرنسا .*

... إذا كان لموريسكيى فالنسيا اتصالات مع فرنسا فيقول إنه حاول التحرى عن ذلك باهتمام ؛ لكنه لم يجد شيئاً ذا قيمة رغم أن موريسكيى فالنسيا ساخطون وغاضبون إزاء القرار الذى صدر بشأنهم. لكننا علمنا على وجه اليقين أنهم يُجرون اتصالات مع السلطان التركى ، ويبدو أن هذه الاتصالات وثيقة الآن ، فالآخرون يلحون عليهم. إذا كانت لهم اتصالات مع الفرنسيين ؛ فهذه الاتصالات تتم عبر موريسكيى أراغون، فقد اتصل بهم ملك فرنسا فى الأعوام الماضية ، وهناك عدد كبير من الفرنسيين فى مملكة أراغون ، أما فى مملكة فالنسيا هذه فهناك أربعة عشر أو خمسة

عشر ألفاً . هذه المملكة محط الأنظار وموضع اهتمام ، فلو أن الموريسكيين تلقوا مساعدة – حتى لو لم تكن كبيرة – فسيكون هناك خطر ... يجب أن تكون المملكة مستعدة بالسلاح وبحماية الحصون ، رغم أن ذلك قد يؤدى إلى زيادة غضب الموريسكيين .

لما اطلع المجلس على هذه الرسالة وتحاور بشأن مضمونها ، رأينا من المناسب أن نذكّر جلالتكم بأن هذا هو أهم موضوع ، ويجب النظر فيه على وجه السرعة ؛ لأن هؤلاء الأعداء الداخليين عددهم كبير ، وهم إسبان لا نشك فى أنهم سينفذون مخططاتهم السيئة عندما تحين الفرصة لكى يُحسنوا أوضاعهم ، وهذا ما أثبتته التجربة فى مملكة غرناطة ، فلو كان هناك غزو خارجى للمملكة فإنه سيكون من الخطأ الثقة فى هؤلاء الناس ؛ ولهذا يطلب المجلس من جلالتكم إصدار الأمر بمعالجة الوضع والاطلاع مرة أخرى على المذكرات التى حُررت ؛ والتى هى فى حوزة جلالتكم وإصدار الأوامر المناسبة. ويحذّر المجلس من أن تأخير النظر فى هذا الموضوع سيسبب أضراراً بالغة لأن العقبات تزداد بمرور الوقت ، وقد يصعب العلاج.

"الوثيقة التالية مستخرجة من محاضر جلسات نواب قشتالة المحررة بتاريخ ١٣ سبتمبر عام ١٦٠٧ وهى ذات مغزى ، ليس فقط لأنها تبدى التخوف من الموريسكيين الذين هاجموا المسيحيين القدامى بكل الطرق ؛ بل لأنها تبين كذلك الإحساس بالشرف ، واشتراط نقاء الدم لممارسة بعض المهن. هناك مهن للمسيحيين القُدامى ، وهى بالتالى شريفة ولا تتعارض مع الشرف. ولهذا فإذا سُمح للموريسكيين بممارسة مهنة الطب يتحول الطب إلى مهنة خاصة بالموريسكيين ، ولا يريد أى مسيحى قديم ممارستها"

(اقتراح بإلزام ألا يكون هناك موريسكيون أطباء)

اقترح بدرو دى بيسغا أن يلزم القانون بألا يحمل الموريسكيون أسلحة حتى لا يُصيبوا أحداً ، فهل هناك سلاح أشد خطراً من المداواة التى يمكن أن يقتلوننا بها؟

هناك مهن لا يجب أن يعمل بها الموريسكيون نظراً للتزييف الذى يمكن أن يؤدوا عملهم به ، وبقدر كون مهنة الطب سامية قدر خطورة التزييف الذى يمكن أن يرتكبه الموريسكيون فيها.

إن الثورات التى قاموا بها ومعلومات أخرى ، كلها شواهد تدل على أن الموريسكيين يكرهون المسيحيين القدامى ، ومن ذا الذى يريد أن يعالجه عدو ؟ إن الكثير من الموريسكيين الأطباء الذين حاكمتهم محكمة التفتيش قالوا فى اعترافاتهم إنهم كانوا يعالجون بنى قومهم بإخلاص ، وإنهم كانوا يحتالون لقتل المسيحيين القدامى ، وإنهم كانوا يقدمون أدوية تؤدى إلى إجهاض الحوامل.

وإذا كان الموريسكيون أطباء فسيرتدون ملابس من الحرير، ويركبون البغال ، وقوانين هذه الممالك تحظر على الموريسكيين الأمرين ، وتحظر عليهم أن تكون لهم وظائف محترمة، فلماذا يُسمح لهم بممارسة مهنة الطب وهى مهنة سامية ؟ . إن الموريسكى لو دخل دير الراهبات – وهن صغيرات السن وفضوليات – يمكن أن يعلمهن أموراً تخالف الدين .

واليوم هناك كثير من دارسى الطب الموريسكيين فى جامعة طليطلة وجامعات أخرى. إن الأدوية الكثيرة يمكن أن تُستخدم فى القتل خفيةً وبالحيلة ، ولنا أن نتصور أنهم سيستخدمون الحيلة وسيقتلون بها عدداً يفوق العدد الذى قتله الأتراك والإنجليز والأعداء الآخرين مجتمعين .

إن المسيحيين القدامى لا يريدون أن يعمل أبناؤهم كصيادلة أو كأطباء ، وهكذا فخلال ثمانين عاماً سيكون كل الأطباء والصيادلة موريسكيين ، وسيكون معهم مفاتيح الحياة فى المملكة ، ولن يكون هناك شيئ آمن.

فى مدريد ، وفى أماكن أخرى تم إلقاء القبض على موريسكيين كانوا يسيرون ليلاً ويقتلون المسيحيين القدامى بدافع الكراهية ، وهناك طبيب اسمه " المنتقم " اعترف بأنه قتل ثلاثة آلاف وثمانية وأربعين شخصاً بظفر مسموم ، وقد عاقبت محكمة تفتيش فالنسيا موريسكياً يعمل " مجبرا" اعترف بأنه كان يتعمد إتلاف أيدى المسيحيين القدامى حتى لا يستطيعوا حمل السلاح..............

الهوامش

(١) Apud Janer: *Condicion social.....*,pp. 278-79

(٢) Vease Regla: *La cuestion morisca y la coyentura internacional en tiempos de Felipe II, y Hess: The moriscos. An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain.*

(٣) Apun Janer, *Condicion social...*,p. 278

(٤) هى اتصالات تمت بالفعل . انظر كتاب لوى كارداياك :

Morisques et protesttants.

قــرار محـكـمة تفتيش أراغـون
بحظر حـمل الموريسـكيين الأسـلحة النارية

(نسخة من القرار الذى أصدرته محكمة تفتيش أراغون في الخامس من نوفمبر عام ١٥٥٩ ؛ والذى تحظر فيه على الموريسكيين استعمال أو امتلاك الأسلحة النارية)[١]

نحن أعضاء محكمة التفتيش عن جرائم الكفر والإلحاد في كل أنحاء مملكة أراغون ومدينة وأسقفية ليريدا ، الموكلون عن المقر البابوى ، نُعلم كل المتنصرين حديثًا في مملكة أراغون وأبنائهم أنه طبقًا لما فهمناه ، وبالنظر إلى المهمة المقدسة لمحكمة التفتيش ، خاصة في الوقت الحاضر ، فمن الضرورى التزام المسيحيين الكاثوليك بإزالة أى عائق يحول دون قيام محكمة التفتيش بواجبها بحرية ، فلو كان هناك عائق مهما كان صغيرًا فإن ذلك سيحول دون إنزال العقاب بالملحدين الذين يشككون في عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة..............

لما رأينا العدد الكبير من المسلمين المتنصرين وأبنائهم في هذه المملكة وهم يعيشون كمسلمين علانيةً ، ولما رأينا تكرار مجئ مسلمين أتراك – وهم أعداء لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة – يفدون إلى شواطئ هذه المملكة ، والكثير منكم أيها المتنصرون حديثًا قد سررتم بذلك وتمنيتم – لو أتيح لكم ذلك – الاجتماع بهم بل وما هو أكثر إيلامًا أنكم عندما مات كونت الكاوديتى ومعه مسيحيون كثيرون ، قد أبدى الكثير منكم السعادة ، وكان هناك حديث كثير عن هذا الانتصار (للأتراك)، والثابت لدينا أنكم تعتبرون محكمة التفتيش كعدو لكم ، وكذلك أعضاءها ؛ وهذا ما قلتموه عندما قاومتم أحد مندوبى المحكمة.

(١) Apud Carrasco Urgoiti: El problema morisco en Aragon a comienzos del reinado de Felipe II,pp. 87-89 . Vease tambien Danvila y Collado: "El desarme de los moriscos en 1563" , en BRAH

وبالنظر إلى الحادثة التى ارتكبها موريسكيون ومسلمون متنصرون عندما خرجوا من بلدة بلاثينثيا بالبنادق وبأسلحة أخرى حين كان ثلاثة من المتعاونين مع محكمة التفتيش - بأمر منا - يعتقلون متنصرًا حديثًا. لقد قتل الموريسكيون المتعاونين مع محكمة التفتيش وقتلوا خادمًا لأحد المتعاونين ، وذبحوا نائب إحدى قرى المتنصرين ، وعنفوا سكان القرية لأنهم يعيشون كمسيحيين ، وارتكبوا أفعالاً أخرى تدخل فى نطاق اختصاص محكمة التفتيش . لقد دخل مسلم متنصر حديثًا إلى منزل النائب وقتله ، ورغم أن منزل النائب طلب النجدة إلا أن الموريسكيين لم يقدموا المساعدة. وعندما ألقى القبض على القاتل فى نفس الليلة جاء أشخاص يحملون البنادق وفكوا قيوده وأخرجوه من السجن فى تحدٍ سافر لمحكمة التفتيش.

وبالإضافة إلى ذلك فلدينا معلومات تفيد بأن الموريسكيين يهددون بمقاومة رجال محكمة التفتيش ، بحيث أنه من الآن فصاعدًا لن يجرؤ أحد على الذهاب لاعتقال موريسكى إلا إذا كان فى صُحبة عدد كبير من الناس ، وبتكاليف تعجز المحكمة عن تحملها ، وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون من الممكن إتمام هذه العمليات سرًا ؛ وهكذا سيتمكن المطلوبون من الهرب ، وستظل جرائمهم دون عقوبة.

لقد فهمنا كذلك أن كثيرًا من الموريسكيين وأبنائهم يستعدون للهرب ومغادرة هذه الممالك بأية طريقة ، وكل يوم يغادر أناس ويأتى آخرون للعبور إلى بلاد المسلمين والتخلى عن عقيدتنا المقدسة وهم يحملون البنادق والأسلحة الأخرى للدفاع عن أنفسهم ولمهاجمة أى شخص يحاول منعهم من العبور ، ولقد جرحوا أشخاصًا بالفعل. ونحن على علم بأن لديهم بنادق كثيرة وأسلحة مخبأة ، ونحن على علم كذلك بحرصهم على التدرب على الرقابة واستعمال السلاح ، وهذا دليل على نيتهم السيئة. ولدينا أسباب أخرى لا نذكرها تجنبًا للإسهاب . هذه الأسباب يبدو منها أن محكمة التفتيش لن تتمكن من ممارسة عملها إذا لم تنزع هذه الأسلحة.

لكن حتى لو راعينا سياسة اللين معهم ، ولم ننفذ القانون بشكل صارم فى موضوع نزع الأسلحة ، فمن الواضح أن الطريقة التى يمكنكم بها إيذاءهم هى اتباع الإجراءات التالية:

نأمركم بأنه من الآن فصاعدا ألا يستطيع أى متنصر حديثًا - كبيرًا أو صغيرًا ، رجلاً كان أو امرأة - ممن يعيشون فى هذه المملكة أو يمرون بها ، حمل الأسلحة

النارية أو البارود خفية أو علانية اعتباراً من تاريخ نشر هذا القرار ، ويُعاقب كل من يخالف هذا القرار أو بنداً منه أو من يثبت أن لديه سلاحًا في حوزته ، أو في حوزة آخرين ، بأن يُجلد مائتي جلدة وبمصادرة الأسلحة وبيعها ، واستخدام ثمنها في الإنفاق على أعمال الخير في القرية التي ضُبط فيها السلاح. وإذا ضُبط سلاح مع شخص للمرة الثانية فإنه يعاقب بالحبس لمدة أربع سنوات ، وبالجلد مائتي جلدة ، وفي المرة الثالثة تُضاعف العقوبة.

كما نأمر بأنه من الآن فصاعداً لا يمكن للموريسكي أو لأبنائه أن يبيع سلاحًا أو أن يلمسه وإلا عُوقب بدفع غرامة قدرها خمسمائة دوقية أو بالجلد مائة جلدة كيفما يتراءى لنا. وحتى يتم تنفيذ هذا الأمر الذي أصدرناه فإننا نأمر سادة الموريسكيين ومعاونيهم بأنهم إذا رأوا أو علموا أن أحداً من الموريسكيين أو أبنائهم خالفوا مضمون هذا الأمر ، أو إذا علموا مكان إخفاء الأسلحة ، أو الشخص الذي يخفيها عنده ؛ فليعتقلوا المخالف وليرسلوه مقيداً إلى محكمة التفتيش لمعاقبته. عليهم فعل ذلك وإلا عُوقبوا بإعلان خروجهم عن تعاليم الكنيسة ، وبدفع غرامة قدرها مائتا دوقية.

ولكي يتم تنفيذ هذا الأمر على الوجه الأكمل نأمر كل الأشخاص على اختلاف درجاتهم بالإبلاغ عن أي موريسكي يخالف مضمون الأمر من الآن فصاعداً. عليهم إبلاغ محكمة التفتيش ، وإذا كان المخالف خارج هذه المدينة ؛ فيتم إبلاغ ممثلينا. ولتشجيع الناس على ذلك فإننا نمنحهم ثلث قيمة السلاح المضبوط لدى الموريسكي. على جميع الناس الالتزام بذلك وإلا عُوقبوا بإعلان خروجهم على تعاليم الكنيسة. وعلى الحُجاب اعتقال المخالفين وإيداعهم السجون ، وإبلاغنا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات .

وحتى لا يخسر المتنصرون حديثًا قيمة الأسلحة ؛ فإننا نعطي مهلة قدرها ثلاثون يومًا يمكن خلالها إحضار الأسلحة ملفوفة كمتاع مُعد للبيع ، وتبدأ المهلة اعتباراً من تاريخ نشر هذا القرار.

قصر الجعفرية الملكي في ٥ نوفمبر ١٥٥٩ .

أوضاع ومعاملات وأزياء ومأكولات الموريسكيين ووظائفهم وأمراضهم المعدية

طبقاً لما يرويه مؤلف أراغونى فى القرن السابع عشر

وضع الأب أثنار كاردونا كتاباً بعنوان " الطرد العادل لموريسكيي إسبانيا وجملة الفضائل المسيحية لمليكنا فيليبى ، الثالث بهذا الاسم" ، ونشره فى أواسط عام ١٦١٢ بهدف إقناع معارضى طرد الموريسكيين بصواب وحكمة هذا الإجراء. ويتضمن الكتاب أكثر الفقرات وحشية مما كُتب ضد الموريسكيين . إن ملاحظات المؤلف – وهى صبيانية غالباً – ذات مغزى ، إذ ترسم لنا عقلية " مسيحى قديم " . والحجج التى يسوقها بالغة الأهمية من وجهة النظر الاجتماعية . إنه يعيب على الموريسكيين تقشفهم فى المأكل والمشرب ، ويأخذ عليهم نوع المأكولات ، والوظائف التى يمارسونها ، ويُبدى احتقاره لآلاتهم ولطريقتهم فى رى المحاصيل ؛ كما يُبدى احتقاره لأعيادهم واحتفالاتهم ولأمور أخرى تافهة مثل : السير جماعة فى الطرقات.

الكتاب يستند إلى أسباب دينية، وبالإضافة إلى ذلك يُبدى كراهية لنمط من أنماط الحياة [عادات خاصة بالأطعمة ، والملابس ، وشكل من أشكال العمل والتسلى وشُغل وقت الفراغ] يختلف عن نمط الحياة الذى يسير عليه مجتمع المسيحيين القُدامى . والمؤلف لا يكتفى برفض الخط الموريسكى ؛ بل يعتبره خطراً.(١)

(١) هناك مؤلفون كثيرون درسوا كتاب أثنار ونقلوا عنه. انظر على سبيل المثال خوليو كارو باروخا "Los moriscos aragoneses segun un autor del siglo XVII" en Razas, pueblos y linajes

أوضاع ومعاملات وأزياء ومأكولات الموريسكيين ووظائفهم وأمراضهم المعدية

(الصفحات ٢٣ - ٦٣)

كنا قد تحدثنا عن طبيعتهم ، ويبقى أن نتحدث الآن عن أوضاعهم ومعاملاتهم . كان الموريسكيون من أحط الناس وضعاً ، كانوا مهملين ، وأعداءً للآداب والعلوم الراقية التى تُصاحب الفضيلة ، ومن ثم بعيدين عن أشكال التعامُل المدنى واللياقة والذوق. كانوا يربون أولادهم كالحيوانات دون تعليم عقلانى ، ودون توعية صحية ، إلا تلك التى تحتمها الضرورة القصوى التى كان رؤساؤهم يشترطونها عليهم بعد أن تم تعميدهم.

كانوا حمقى عند عرض حججهم ، وكانوا كالحيوانات ، وكانوا همجيين فى لغتهم ، وكانت أزياؤهم مزرية ؛ فكانوا فى معظم الوقت يرتدون سراويل من نسيج خفيف ، أو يرتدون لِباساً آخر شبيهاً بزى منْ يعملون فى البحر ، وكانت ملابسهم رخيصة ، وكانوا يتعمدون أن تكون غير متناسقة ، وكانت أزياء نسائهم على نفس الوضع ، فكنَّ على نفس الوضع .

كانوا همجيين فى مأكلهم ؛ فكانوا يأكلون دائماً على الأرض دون استعمال موائد ولا شىء آخر يدل على أنهم آدميون ، وكانوا ينامون على نفس الهيئة ، على الأرض ، على شىء يسمونه " المضربة" فى أركان مطابخهم أو فى أماكن قريبة منها لكى يكونوا مستعدين لحماقاتهم ، والقيام للسحور.

كانوا يأكلون أصنافاً دنيئة (لقد حقت عليهم العقوبة فى الحياة الدنيا بحكم من السماء) ؛ مثل عجائن من دقيق أنوا ع البقول والعدس والفول و الجرس وخبز من نفس الدقيق. كانوا - إذا استطاعوا - يأكلون مع هذا الخبز زبيباً وعسلاً ومربى ولبناً وفاكهة كالشمام - حتى لو كان لم ينضج بعد ، ولا يزيد حجمه على قبضة اليد - وفلفلاً ، وثمارا أخرى حتى لو كانت لم تنضج بعد . وبعد الأكل كانوا يتشوقون إلى الطعام ، وكانوا لا يتركون نبتا على قيد الحياة . ولما كانوا على مدار العام يحفظون أصنافاً شتى بين خضراء وجافة (يحتفظون بها حتى تفسد) ويأكلون خبزاً ويشربون ماء قراحا (لأنهم لا يشربون الخمر) ، ولا يشترون لحم الفريسة التى اصطادها كلب أو قُتلت برمح أو بندقية ، ولا يأكلونه ؛ بل يأكلون ذبائحهم هم التى ذبحوها طبقاً

لشريعة محمد ، فكانوا لا ينفقون إلا القليل ، سواء فى المأكل أو فى الملبس، رغم أنهم كان يتعين عليهم دفع الكثير من الضرائب إلى سادتهم.

كانت لحوم الحيوانات المذبوحة على طريقة تخالف شريعتهم تسمى " محرمة ". وإذا سألتهم لماذا لا يشربون الخمر ، ولا يأكلون لحم الخنزير ؟ كانوا يُجيبون " ليس لكل الأكلات مذاق واحد ، وليست كل البطون تتحمل نفس الأكلات " . وهكذا كانوا يخفون تطبيقهم لشريعتهم ؛ وهذا هو سبب امتناعهم عن الأكلات والمشروبات المذكورة ، وهذا ما ذكرته لموريسكى فقيه من إبيلا يُدعى خوان دى خوانا ، كان يعترض على طرده من إسبانيا دون سبب ، وطلب منى ألا يطردوهم من إسبانيا لأنهم سيأكلون لحم الخنزير ، وسيشربون الخمر، وقد أجبته قائلاً : " إن عدم شُرب الخمر ، وعدم أكل لحم الخنزير ليسا هما سبب الطرد من إسبانيا ؛ بل إن سبب الطرد هو الامتناع عنهما امتثالاً لتعاليم شريعتكم الضالة. إن هذا إلحاد يعرضكم للعقوبة. وأنت كلب حقير، فلو أنك امتنعت عنهما لمجرد التقشف لكان ذلك أمراً محموداً – كما هو الحال عند بعض القديسين – لكنك تمتنع تنفيذاً لأوامر محمد كما نعلم ؛ بل إننا نراكم تعاقبون أولادكم الصغار إذا علمتهم أنهم أكلوا لحم الخنزير فى بيت مسيحى قديم. إننى أتساءل : هل عندما يأكل ابنكم الصغير لحم الخنزير يؤدى ذلك إلى مغص فى معداتكم ؟ لا، لكنكم تُبدون امتعاضكم علانية إذا أكل طفل من أطفالكم عمره بين الرابعة والخامسة لحم الخنزير. صدقنى إنكم لا تستطيعون إخفاء ذلك».

كان الموريسكيون يحبون السخرية والحكايات والرقص والغناء والتجول فى الحدائق وكل أنواع التسلية الهمجية حيث الصخب والضجيج ، وكان الشباب منهم يسيرون عبر الشوارع. كانوا يتفاخرون بإجادتهم للرقص ولعب الكرة ، وقذف الكرة والغناء والجرى خلف الثيران وأشياء أخرى مشابهة. كانوا مولعين بالمهن التى لا تتطلب جهداً ، فكان منهم النساج والخياط ، والإسكافى ، والبيطرى ، والبستانى ، والدباغ ، وتاجر الزيوت ، وبائع السمك ، والعسل ، والزبيب ، والسكر ، والقماش ، والبيض ، ومن يبيع ملابس من الصوف للأطفال. وكانوا يحبون تلك المهن التى تستدعى تواجدهم فى المنازل ، وكانوا يفتعلون الأسباب لكى يتجولوا بين القرى ، وهكذا يتسمعون أخبار السلم والحرب؛ ولهذا فقد كانوا بصفة عامة كسالى ومتسكعين ، يحبون الجلوس فى الشمس شتاءً ، والجلوس فى الظل صيفًا ، إذا استثنينا الساعات القليلة التى كانوا

ينفقونها فى القيام بأعمالهم أو فى رعاية بساتينهم طمعاً فى جنى الثمار. لكن القليلين – بل القليلين جداً – منهم كانوا يحبون الصناعات المعدنية وصناعة الحديد والأثاث والحجر؛ لكنهم فيما بينهم كان منهم بعض الحدادين ، وكان ذلك من أجل تجنب الاضطرار إلى التعامل مع المسيحيين ، فقد كانوا يكرهونهم .

أما عن صناعة السلاح فلم يكونوا مهرة ، لأن الأسلحة كانت محرمة عليهم ، وقلة الاستعمال تُفقد المهارة كما يقول أوفيد ، ولأنهم كانوا جُبناء ومخنثين من حيث النشأة. ولهذا كان هؤلاء الجبناء يتجنبون السير فرادى فى الطرقات وفى أطراف القرى التى كانوا يعيشون فيها ، فكانوا يسيرون جماعات.

كانوا يزيدون مشاجراتهم اشتعالاً بالصراخ ، حتى لو كانت تلك المشاجرات وقتية، وذلك امتثالاً لأوامر محمد ، وكانوا يحبون النساء لدرجة أن كل أحاديثهم ومؤامراتهم ومشاكلهم تدور حولهنّ ، وكانوا فى هذا الشأن غير أوفياء فيما بينهم ، ولا يحترمون أقاربهم ، وكانوا يخالفون القوانين الطبيعية والإلهية فى هذا الأمر ، ولم تكن تفيد معهم الوسائل ، كما أوضحنا ذلك فى الفصل الخاص بتعدد الزوجات. من كل ذلك نشأت المساوئ ، ونشأ الإصرار على ارتكاب المعاصى بين المسيحيين القُدامى ، ومن هنا نشأت المشاكل بالنسبة للنساء المسيحيات ، فقد رأين أزواجهن وأخوتهن على صلة بالموريسكيات المنحرفات اللاتى يرين أن علاقتهن بالرجال مباحة.

" فى كتاب أثنار ترد بعض الحُجج الأكثر شيوعاً حول خطورة الموريسكيين ، السبب الأول هو ارتفاع نسبة الخصوبة عندهم ، وهو سلاح يهدد مجتمع المسيحيين القُدامى الذى يحد من تزايده رهبانية الرجال ، وذهاب الرجال الآخرين للقيام بحملات عسكرية "

كانوا يزوجون أبناءهم وهم صغار السن ؛ فكانوا يعتقدون أن السن المناسبة للزواج هى عشرة أعوام للبنت ، واثنا عشر للولد، وكانوا لا يرهقون أنفسهم فى مسألة المهر (إلا الأغنياء منهم) ، إذ كان يكفيهم سرير وعشرة جنيهات. كان غرضهم التكاثر وزيادة العدد كالحشائش الضارة ، وكانت قراهم وأحياؤهم لا تتسع لهم. كانوا قبل ذلك يقطنون فى البيوت التى تزيد عن حاجة أصحابها ، ثم كانوا ينتشرون ويريدون تنفيذ ما جاء فى أغنية لهم يطلبون فيها من محمد أن يزيد من نسلهم.

يزداد المسلمون والمسلمات

كنبات الأسل

وشجر الصفصاف

كانوا يتكاثرون بشكل يزيد عن الحد المعقول، فلم يكن أحد منهم يعزف عن الزواج ، ولم يكن أحد من رجالهم أو نسائهم يجنح إلى الرهبانية، ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين التناسل ؛ وهذا دليل على رفضهم لحياة العفاف والشرف. كانوا جميعاً يتزوجون ؛ الفقراء منهم والأغنياء ، الأصحاء والمرضى ، وكانوا لا يتعلمون من المسيحيين القُدامى الذين كان الرجل منهم ينجب خمسة أو ستة أبناء فإذا زوّج الابن الأكبر أو البنت الكبرى كان يحاول أن يتجه بقية الأبناء إلى التفرغ للكنيسة والرهبانية أو للجندية. والأسوأ من كل ذلك هو أن بعض المسيحيين القُدامى – ممن يتباهون بأنهم من طبقة النبلاء – كانوا يتزوجون من موريسكيات ويدنسون شرف عائلاتهم ، وكان الواحد منهم يدعو الله ألا يصل الدنس إلى روحه.

"هناك أيضاً شكوك فى استعداد الموريسكيين للثورة المسلحة وهو شىء نجده فى هذه الصفحات التى تروى فيها حكايات كثيرة مثل هذه"

لقد تعرفت فى إبيلا على موريسكية عجوز أرملة اسمها العمة بلانكا أو كاستيانا. ذات يوم ذهب إلى بيتها واحد ممن يجمعون المال للجيش. ولما كانت عجوزا فلم تعد تتذكر سبب جمع المال ؛ لكن الرجل قال لها إن هذا المال من أجل القيام بعمل ضد المسيحيين (وكان هذا ادعاء من جانبه) فأجابت " لهذا أدفع رغم أننى لا أملك إلا ريالين احتفظ بهما لشراء زوج من الأحذية ينقصنى ؛ لكننى أتحمل حاجتى من أجل عمل طيب كهذا". سمع الحوار مسيحيون قُدامى – لم يفطن الموريسكيون إلى وجودهم – وأذاعوا ما حدث فى القرية كلها ، ولم تجرؤ المرأة العجوز على النفى ، ولا على الاعتراف ؛ بل كانت تختبئ من الناس وهى مترددة حتى لا يواجهها الناس بما قالت (الصفحات ٤٢ ، ٤٣)

" ننقل هنا بعض من الفقرات التى يصف أثنار فيها خروج موريسكيى أراغون إلى منفاهم" :

خرج الموريسكيون التعساء فى الأيام التى حددها المفوضون الملكيون ، واختلط المشاة منهم بالركبان، ساروا مفعمين بالألم ، تتساقط دموعهم ، يتصايحون وهم يحملون أبناءهم وزوجاتهم ومرضاهم وشيوخهم وأطفالهم ؛ يعلوهم التراب جميعاً ، تتساقط منهم حبات العرق . كان بعضهم يركب عربة يتزاحم فيها الأشخاص ومعهم أمتعتهم وأدواتهم ، وكان البعض الآخر يمتطى الدواب ويحملون فوقها السلال ، والملابس ، والمفارش والأمتعة الأخرى. وكان البعض الآخر يمضى ماشياً على قدميه، ملابسه ممزقة ، ويضع فى قدمه فردة حذاء واحدة .... وكانوا كلهم يلقون التحية إلى منْ ينظر إليهم قائلين " حفظكم الله" . كانت العربات والدواب مؤجرة ؛ لأنه لم يُسمح لهم إلا بحمل أمتعتهم الشخصية كالملابس والنقود التي باعوا بها أثاثهم ؛ وبين من كانوا يرحلون كانت هناك نسوة (من الأغنياء) يضعن حُليهن الفضية الملونة على صدورهن يخفين بها ما يعتصر قلوبهن من ألم. أما الباقى – وهم الأغلبية – فكانوا يمضون سيراً على الأقدام مُرهقين ، تائهين ، مفعمين بالحزن ، عطشى وجوعى لدرجة أن خبز القرى لم يكن يُشبع جوعهم ، ولا ماء العيون كان يروى ظمأهم مع أن الخبز الذى اشتروه بنقودهم كان وفيراً.

رسالة السيد مانويل بونثى دى ليون إلى صاحب الجلالة
مدريد فى ٢٨ أغسطس عام ١٦٠٩[١]

(يعرض فى الرسالة الأضرار التى ستترتب على طرد الموريسكيين أملاً فى تجنبها ، ويقترح حلولاً أخرى ، على غرار تلك الوسائل التى يستعملها الأتراك مع رعاياهم المسيحيين)

سيدى :

علمت أنه نظراً لوجود اتصالات سرية لموريسكيى فالنسيا وأراغون مع الثوار وأمراء المسلمين ، فقد اقترح بعض الغيورين على الدين على جلالتكم عدة اقتراحات لمعالجة الوضع.

واعتقد أننى ليس لدى إلا القليل الذى يمكن أن أضيفه نظراً لقلة معلوماتى ، ونظرا لأن المجالس الملكية قد أعلمتكم بما هو ضرورى. لكن رغبتى فى خدمة جلالتكم تلزمنى بإبلاغكم بما يدور فى ذهنى حول الموضوع ، وهذا لن يكون عديم الفائدة بالكامل ، نظراً لأننى أستند فيما أقول إلى رغبتى فى خدمتكم ، وإلى خبرتى فى شئون الحرب والسياسة على مدى سنوات طويلة.

أظن - قبل كل شىء - أنه حتي لو كانت هذه الشكوك لها ما يبررها فإن الأمر يتطلب إما عقوبة شديدة أو علاجًا لينًا . إذا كان الأمر يتطلب توقيع عقوبة بمن أجرى هذه الاتصالات ؛ فلتكن الوسيلة مريحة ومناسبة لجلالتكم ، فلا يجب أن نعتقد - رغم ميل هؤلاء الناس إلى الإجرام - أن كل الموريسكيين شاركوا فى هذه الاتصالات. وحتى لو شارك الجميع فى هذه الاتصالات فيجب عدم الإسراع فى تطبيق العقوبة

(١) Apud Janer: Condicion social....,pp. 285-291

طالما أنهم لم يعترفوا بذلك صراحة. ومن المعتاد فى مثل أحداث التمرد هذه أن تكون قلة مـــن الأشخاص هى التى تحركها ، وأن تكون الغالبيـة هى التى تسير وراءهم ، وأن يكون الدافع وراء ذلك هـو الفضـول أو العنف أو الخـوف أو الطـاعة. بهـذا الشكل لا يكون من المناسب اتباع الشدة مع الكافة - رغم أن الشكوك تشملهم جميعًا - طالما أن الشر لم يقع بعد، وليس من المناسب كذلك اتباع العفو مع أشد الناس تورطًا. فإذا كنا نريد معالجة الوضع فلتكن المعالجة سريعة وناجحة ، تأخذ بعين الاعتبار الوضع الحالى ، كما تخطط للمستقبل ، وتراعى توقير الدين المسيحى وأمن الممالك والصالح العام، فلا تكون المعالجة مبالغًا فيها ولا عنيفة ولا عقيمة.

على هذا الأساس اقترح على جلالتكم ما أراه مناسبًا، فالخطر الذى يشكله تزايد الموريسكيين فى هذه الممالك خطر واضح بحكم موقعهم ، فالمملكة الأولى (مملكة فالنسيا) قريبة جداً من بلاد البربر التى ترجع إليها أصول هؤلاء الناس ، وهم يقيمون فى قرى قريبة من البحر ، ومستعدون لاستقبال جيوش العدو، خاصة وهم لا يزالون يتحدثون اللغة الهمجية ، ويمارسون نفس العادات والشعائر. المملكة الأخرى(أراغون) قريبة من فرنسا ، ومن غير الضرورى أن أتحدث عن هذا الخطر الأكبر ، وكم يجب الاحتياط منه. وهنا أصل إلى ما أريد الحديث عنه.

إننى أقسم إجراءات الحل إلى قسمين: أحدهما له نهاية ويختص بالحاضر ، والثانى يتعلق بالمستقبل ، مع أنه من المؤكد أن كلا القسمين لا يعالجان الوضع ، فهما يحتاجان إلى وقت بينما الحل لا يحتاج إلى تأخير.

أعود إلى طريقة العلاج فأقول إننى أرى أن تبتعدوا جلالتكم عن طريق الشدة الذى اقترحه أولئك الذين لا يحترمون مبدأ الرحمة المسيحى ، ولا يحترمون الأخلاق الحميدة والسياسة الرشيدة ، وهو ما يثير حفيظة الرعايا ، ويؤدى إلى استياء الأقاليم المجاورة. إن الرعايا الذين لم يشتركوا فى هذه الجرائم سيرون أن الاجراءات الصارمة ظلم واضح. وسأضرب مثلاً: إن إخراج هؤلاء الموريسكيين من إسبانيا ، وطردهم إلى إفريقيا - كما يرى البعض - أمر لا يُتصور ، ثم إن إبعادهم إلى أقاصى كاستيا وغاليثيا ليس بالأمر المناسب ، بالإضافة إلى أنه صعب التنفيذ. إن رفع سن الزواج يمثل علاجًا طويل الأمد ، وبطيئًا ، ثم إنه إجراء ضد انتشار الإنسان . إن بتر بعض الأعضاء السليمة علاج بعيد عن روح الكاثوليكية ، وغير إنسانى وهمجى. إن تحديد إقامتهم

داخل حدود ضيقة يغريهم بارتكاب مزيد من المعاصى ، أما منعهم من التجارة فهو أمر صعب. وفى النهاية فإن جلالتكم وسادة الرعايا ستخسرون مبلغًا كبيراً من المال فى حالة تطبيق أى وسيلة من الوسائل المذكورة. كيف نسمح بالرحيل إلى إفريقيا لعدد كبير دخل فى تعداد الكنيسة وتقبل التعميد ؟ ما هو المقابل الذى يمكن أن يعوّض الأضرار التى تلحق بالسادة، من الذى سيملأ الفراغ ؟ ماذا ستكون سمعتنا فى الخارج إذا لم نجد علاجًا أفضل ؟ ثم (بالنظر إلى مصلحة الدولة) كيف يمكن التخلى عن مواطنين بهذا العدد من العاملين ونرسلهم فسيستفيد منهم الأعداء؟ ما هو السبب الذى سنعلنه للكنيسة إذا طردنا (لا عدداً هائلا بل مجرد شخص واحد) إلى مكان سيفقد فيه الإيمان ؟ ما الذى سيُقدم عليه ملوك المسلمين إذا تعضدت جيوشهم بعدد هائل من الجنود الذين وُلدوا فى إسبانيا ، وقد اتخذتهم إسبانيا كأعداء ، وقد خسروا أموالهم ودينهم ؟ هل هناك عُذر أكبر لدى هؤلاء الرعايا يدفعهم إلى طلب المساعدة الخارجية ؟ متى سيكون لدى منافسى جلالتكم فرصة كبيرة كهذه لإثارة البلبلة فى الممالك وتعجيزكم عن نجدتها ، خاصة فى هذا الوقت الذى سيتعين فيه على الخزانة مواجهة نفقات كبيرة ؟ أرى نفس الشىء بالنسبة لبتر عضو غير تقى، فهو إجراء لم يُتخذ مطلقًا حتى فى البلاد غير المتحضرة........ إن هدف الموريسكيين ليس الرحيل إلى بلاد البربر ؛ بل التخلص من الذل بمساعدة إخوانهم فى الدين ، وإدخالهم الأعداء إلى إسبانيا ، وإثارة القلاقل ، والتضامن مع موريسكى قشتالة ، وإحياء شعائر دينهم. أصل الآن إلى العلاج الذى أراه سريعًا وأكيداً.

هذا العلاج هو أن تأمروا جلالتكم بالنظر إلى الحصون الموجودة فى كارتاخينا ومملكة فالنسيا ، وأن تشيدوا ثلاثة حصون مثلها فى مواقع مطلة على البحر المتوسط، ويكون الهدف من هذه الحصون هو الحد من حركة الموريسكيين ، بحيث لا يستطيعون الآن أو فيما بعد إثارة القلاقل ، وبحيث لا يستطيع أحد مساعدتهم لأن هذه الحصون - التى سيكون بها عدد كاف من الرجال - ستُؤَمِّن جميع أنحاء المملكة وهى صغيرة ، وستؤمن الحصون المملكة عندما تتسع رقعتها ، لأن الهدف من تشييد هذه الحصون هو منع الغزو الخارجى ، والحد من حركة الرعايا الداخليين كما هو الحال بالنسبة لحصون ميلان وأمبيريس وجانتى وسان تلمو ، وسان جيان وغيرها ؛ فهى تقضى على التمرد فى مهده ، وتجعل السادة أكثر احترامًا ، وتحمى الصديق ، وتشكل مستودعًا للأسلحة ، وموقعًا لفرق الحراسة لكى تحمى جيوش من شيدوها.

أظن أن هذا العلاج هو أفضل علاج ممكن للمشكلة ، فهو ليس بالصعب ، إذ لن تُشيد الحصون على نفقة جلالتكم ، بل على نفقة الموريسكيين ، وسيكون لتشييد الحصون فائدة عظيمة بالنسبة لهذا الموضوع ، وستجدون جلالتكم أمثلة لذلك فى إسبانيا وخارجها مثل (ألبانيا وقبرص ، واليونان) حيث لا يكتفى المسيحيون فى هذه البلاد من رعايا السلطان التركى بدفع الضرائب العادية بل يدفعون كذلك أجر المحاربين ؛ لأن هذا الطاغية – لأسباب خاصة بإدارة شئون الحكم – يريد أن يظل المسيحيون هكذا فقراء وضعفاء ومضطهدين حتى لا تتوق أنفسهم إلى الثورات.

وإذا تركنا نماذج الطغاة جانبًا ؛ فمن المعلوم أنه فى البلاد الحرة تفرض هذه الرسوم لحماية البلاد، وهو ما يحدث فى ألمانيا وإيطاليا ، ولن يشعر رعايا بلادنا بامتعاض ، فنظرًا لجرائمهم التى ارتكبوها سينظرون إلى الضرائب المفروضة على أنها أمر هين. تستطيعون جلالتكم استعمال هذا العقاب العادل مع رعاياكم الذين تشكون فى صدق إيمانهم وولائهم ، والذين أشعلوا ثورات فى مدن معينة كما حدث فى غانتى أيام حكم الإمبراطور ، وفى ميثينا عندما كان يحكم صقلية السيد غارثيا دى توليدو.

يمكن لجلالتكم الاستفادة من كل ذلك ، وسيستفيد منها أيضًا سادة الرعايا ، لأن هذه الحصون ستؤمنهم دون تكاليف ودون مشقة ودون أن يخسروا رعاياهم ؛ بل إن السادة سيحصلون على مزايا من هذا الاقتراح . ويمكن لجلالتكم فى وقت الاضطرابات أن تلزموا سادة الرعايا بإخماد الفتن وتأمين المدن على نفقتهم أو حرمانهم من رعاياهم إذا لم يعملوا على تأكيد ولاء الرعايا لملوكهم الطبيعيين .

ومواطنو هذه الممالك لن يغضبهم تشييد الحصون ؛ لأن سبب تشييدها واضح، وواضح أيضًا أنه من الواجب حمايتهم. إننى لا أقتنع بضرورة الانتظار إلى حين انعقاد المجلس ، نظرًا لأن البدء فى التشييد لا يتطلب وقتًا طويلاً ؛ خاصة وقد شاع خبر (لا أدرى ما إذا كان صحيحًا) أن هناك شيئًا يُعد بخصوص الموريسكيين .

أعود إلى موضوع الحصون وإلى مكان تشييدها وما شكلها وحجمها وتكاليفها فأقول إن كل ذلك من اختصاص مجلس الحرب الذى تعقدونه جلالتكم .... رغم أننى أرى أنه يكفى لحماية الحصون ١٥٠٠ من المشاة بمن فيهم الرماة والضباط ؛ أى أن التكلفة الإجمالية لن تزيد على ٩٠ تسعين ألف دوقية فى العام ؛ وهو مبلغ بسيط إذا وزع على رعايا كثيرين ، إذ سيدفع كل بيت دوقيتين فى العام.

أرى أيضـاً أن تكاليف المدافع والعتـاد...........الخ يجب أن تكون على نفقة الموريسكيين ، وأن يعلن المجلس الاجراءات التى تنظم ذلك ، وأن تُبلغ هذه الإجراءات إلى القائد العام للمدفعية فى إسبانيا.

أوجز فأقول إن هذه الوسيلة هى أنسب الوسائل المتاحة للقضاء على كل مشاكل الموريسكيين الداخلية والخارجية ، إذ يمكن البدء فى تنفيذها بتقدير التكاليف. وإذا اتضح أن أحد الموريسكيين يستحق العقوبة فيمكن لجلالتكم مصادرة أمواله وتوجيهها لتشييد الحصون، وعندما لا تجدون مصادر للتمويل من هذه الناحية فبإمكانكم توزيع التكاليف على الموريسكيين وفقاً لمستوى ثرواتهم ، بحيث لا يُعفى الأغنياء من المساهمة ولا يزيد الضغط على الفقراء. وبعد توزيع التكاليف على الموريسكيين يجب أن تبدأ عملية تصنيع المواد اللازمة واستدعاء المواطنين القريبين للعمل ، على أن تدفع لهم الأجور المعتادة ، ثم يُعين للحصون العدد الذى اقترحته ، أو العدد الذى يراه المجلس ضرورياً ، على أن تحدد للجنود الرواتب الدائمة ، فإذا بلغت جملتها الرقم الذى ذكرته آنفاً فلن يكون من العسير توفير المبلغ.

علمت أن موريسكيى أراغون أقل عدداً ، وبما أن هذه المملكة بها حصون فالشكوك حولهم أقل ، خاصة المقيمين منهم فى خاكا ، وإذا افترضنا أن الحصون البحرية فى كاراتاخينا وفالنسيا سترتبط بالحصون التى سيتم تشييدها ، وهذه الحصون الأخيرة سترتبط بحصون أراغون ، فأعتقد أن كل الحصون ستكون آمنة.

وبما أننا سنحتاج إلى شركات وسيأتى أفراد من إيطاليا ، فمن المناسب أن تأمروا جلالتكم بتسكين القوات القادمة فى مملكة فالنسيا لتأمين المملكة ، ولإعطاء دفعة لتشييد الحصون. وإذا تعين على السفن الإسبانية أن تظل راسية فى الشتاء فليكن رسوها فى كارتاخينا ...... فحيث أنه قد شاعت أخبار عن محاكمة المتورطين فى القلاقل فيجب عدم التأخير فى تأمين الأماكن.

إن ما ذكرته يكفى لإثبات أن تنفيذ الفكرة سيكون من شأنه تأمين الوضع الحالى ، بل والمستقبلى ، لكننى حتى لا يفوتنى شىء سأقترح بعض النقاط التى فكر فيها آخرون ربما أكثر حصافة منى :

- أولاً : يجب ألا يُسمح للموريسكيين بممارسة أية أعمال إلا أعمال الزراعة .
- ألا يُسمح لهم بالانتقال من مكان إلى آخر.

- يجب ألا يُمنع من الزواج من يريد الزواج منهم عند بلوغ السن المناسبة، لكن يجب أن تُفرض عليهم ضريبة باهظة بحيث تكون ، إما صعبة التنفيذ بالنسبة لهم ، وإما - إذا دُفعت - تكون مفيدة لجلالتكم ، ويجب ألا يبدو هذا الأمر مستغربًا ، ففى فلورنسا وسيناربيسا ومودينا وريجيو - على ما أعتقد- قد تعوّدوا على ذلك.

- يجب أن نطلب من قداسة البابا ألا يسمح لهم بزواج الأقارب .

- يجب ألا يقوم سادة الرعايا بالتدخل عند ارتكاب الموريسكيين لجرائم بدفع نقود عنهم ، ويجب أن تُنفذ العقوبات المفروضة عليهم (كالجلد والنفى) إذا كان الأمر يتطلب ذلك . وإذا كانت العقوبات غير معمول بها فى الممالك فليطلب من مجالس الممالك الأخذ بها.

- يجب أن يحظر عليهم استعمال اللغة العربية حتى فيما بينهم فى منازلهم ، على أن يُمنحوا مدة عامين لكى يتعلموا لغة إسبانيا، ويجب أن يُفرض عليهم مدرسون من المسيحيين القُدامى لتعليمهم القراءة والكتابة والعقيدة المسيحية ، وبعد مرور عامين يُعاقب منْ لا يتحدث الإسبانية عقاب المجرمين.

- أن يأمر الأساقفة مرؤوسيهم بإجبار الموريسكيين على أداء واجباتهم الدينية كمسيحيين وتعليمهم العقيدة المسيحية.

- أن يُعاقب بالسجن كل موريسكى يوجد بحوزته أو فى بيته أسلحة هجومية أو دفاعية.

- أن يرسل عدد من الموريسكيين للعمل فى تجديف السفن الحربية ، كما هو الجارى فى مملكة فالنسيا.

- يجب إجبارهم على العمل فى مناجم المادين والومبريس بأجور مناسبة عند الضرورة ، ويجب توزيع العمل على الأشخاص بالترتيب حتى لا يظلم أحد منهم.

- نظرًا لعدم توقيع الجزاء على مثيرى الاضطرابات منهم كرأفة من جلالتكم ، وعقابًا على اتصالهم بسفن القراصنة والكفار والأعداء ، أقترح أن يدفع الموريسكيون ضريبة تكفى لشراء عشر سفن لمراقبة سواحل الممالك.

– بالنسبة لكل الأمور الأخرى أرى أن تستمروا جلالتكم والسادة فى تطبيق سياسة الرأفة واللين المتبعة مع الموريسكيين ، والالتزام بالاتفاقيات الموقعة معهم ومع أسلافهم عندما دخلوا فى ديننا واختاروا البقاء فى هذه الممالك. وأرى أن تأمروا جلالتكم سادة الرعايا باتباع اللين مع الموريسكيين حتى لا تكون لديهم ذريعة للتمرد، على ألا يُسمح لهم بممارسة أعمال إلا أعمال الحقل. لقد أطلت وأسهبت ؛ ولهذا فإننى أنهى حديثى بأن أطلب من جلالتكم بقبول رغبتى فى خدمتكم. حفظكم الرب لنا أعواماً طويلة لأننا – رعاياكم – فى حاجة إليكم .

مدريد فى ٢٨ أغسطس ١٦٠٩

خادمكم السيد مانويل بونثى دى ليون

على المظروف:

إلى مولانا الملك . مرسل مع دوق ليرما عضو مجلس الدولة وكبير الياوران .

مذكرة حول طرد الموريسكيين والوسائل اللازمة معالجة الوضع فى المملكة

أرسلها إلى البلاط الملكى الأب سوبرينو فى سبتمبر ١٦٠٩[1]

باسم الرب

سيدى :

أمس أطلعنى السيد كونت كاستيار على مذكرة يرسلها إلى جلالتكم ؛ وفحواها أن طرد الموريسكيين سيكون سببًا فى خراب المملكة ، وقد أسس رأيه على أن الحياة فى الممالك تقوم على الخدمات التى يؤديها الموريسكيون ، فإذا طُردوا فستتوقف إيرادات السادة والقساوسة والتجار ، ولن تكون هناك تبرعات للفقراء والمستشفيات والكنائس ، وستتوقف الحرف الميكانيكية ، وبناءً على هذا فإن الحياة فى جميع أنحاء المملكة ستتوقف. تفترض المذكرة أن جلالتكم لم تكونوا على علم بكل ذلك حين اتخذتم قراركم ، وتخلص المذكرة إلى القول بأنه ليس من المناسب تنفيذ قرار طرد الموريسكيين تجنبًا لكل هذه الأضرار.

وعلى العكس فإنه يقول إن القرار الذى اتخذه صاحب الجلالة قرار حتمى ، ورغم أن القرار يستند إلى مصلحة الدولة العليا ، فإننى أرى (كما كتبت بالأمس إلى سيادتكم) أنه قرار السماء التى يرتفع إليها دعاء من المملكة يطلب الانتقام ، والعناية الإلهية بدلاً من أن تمطر غضبًا تمطر رحمة ، وتكتفى بأن نتوب عن ذنوبنا ، ونتخلص من أذى قبيح سمح به صبرها ؛ الذى تسامح إزاء شرور الموريسكيين ؛ الذين كانوا يتمتعون بحماية سادتهم والذين يبدو لهم أن السادة لن يستطيعوا العيش بدونهم ،

(١) Boronat, Los moriscos españoles.....,t. I.pp.184-86.

وأن الملك والبابا لن يستطيعوا المساس بهم. ويبدو أنهم يستندون إلى شيء ما ، فإذا تحدثنا عن إخلاص النبلاء المحمود للملك فسنرى ما يرون و(ستتفهم) محاولتهم الاحتفاظ برعاياهم.

من المؤكد أنه لو تحول الموريسكيون حقيقة إلى المسيحية فى ظروف صعبة كهذه فإن ذلك سيكون غاية ما نتمناه ؛ لكنهم حتى لو تحولوا إلى المسيحية حقيقة فإننا لن نكون متأكدين من أنهم لن يتراجعوا إذا ما طلب الأعداء الخارجيون مساعدتهم ؛ بل سيتمردون إشباعًا لرغبتهم فى السيطرة على إسبانيا . ونظرًا لحبهم المتأصل فى العيش كمسلمين فهم مغرمون بشريعتهم ، ولهذا فأنا اعتقد أنهم لا يريدون أن يكونوا مسيحيين ، ولا جلالة الملك سيقبل عرضهم إذا تقدموا به. ولذلك فإن قرار الطرد حتمى لا رجعة فيه. ولكى تهدأ النفوس الحزينة فى هذه المملكة ؛ فقد أمرتم يا جلالة الملك بمنحهم الأمن والفرح والسلوى ، وأنا على يقين من أنكم ستستخرجون من صفاء ذهنكم ومن حكمتكم المنطق الذى تطمئنون به قلوب أبنائهم ، بل وتملأونها بالسلوى .

إننى أرى أن الحديث عن خراب المملكة بعد طرد الموريسكيين حديث منطقى لو أنهم سيحملون معهم أشجار الزيتون والكروم والأراضى والمزارع. أما وإن أراضى المملكة التى وهبتنا السماء إياها ستبقى فلن نموت. يقولون إنه حتى لو أقام فى المملكة أناس آخرون فسيحل الخراب أيضًا . ولملء الفراغ فمن المناسب جلب مواطنين من قشتالة ، وأراغون ، ونابارا ، وإغرائهم بالحديث عن خصوبة الأراضى واعتدال المناخ وجمال الحياة. وإننى أرى أنه لن يأتى الفقراء المحتاجون فقط ، بل سيأتى أيضًا أولئك الذين يرغبون فى تحسين جودة أراضيهم ، أو التخلص من أعباء الضرائب. والله سيجلب الناس إلينا، وسيملأ هؤلاء المسيحيون القدامى جزءًا كبيرًا من الفراغ. وسيرى السادة أن قُراهم قد امتلأت بالرعايا المخلصين ، وهكذا سيجعلهم الله أكثر سعادة وثراءً ، وسنسير فى المملكة دون أن نخشى هجوم المسلمين برًا وبحرًا (فعندما لا يكون للأعداء أعوان هنا فلن يأتوا) وسنعبد الله ، وسيرى أعداء إسبانيا الذين يأملون فى وضع أقدامهم هنا بمعاونة هؤلاء اللصوص أن الأمر ليس له علاج ، هذا بالإضافة إلى خيرات كثيرة ، رغم أننا قد نخسر شيئًا. ألا تزال مملكة غرناطة قائمةً وقد حدث فيها نفس الشيء بالأمس ؟ لم يمت السادة ، ولا الرعايا ، ولا القساوسة ، ولا رجال الدين ، ولا التجار ، ولم تهلك المزارع.

يقـولون إن منْ أنفـقـوا أمـوالهم على الجـمـاعـات ، ويعـيـشـون على إيرادها سيخسرون برحيل الموريسكيين. أقول إن كل منْ يطلبون تعويضاً مقابل هذا الضرر ، سيعوضـهم مندوب الملك عن خسارتهم من نقود وأثاث الموريسكيين ، ومن العدل كذلك أن يُعوَّض السادة عن جزء من خسارتهم من أمتعة الموريسكيين بحيث يشترون الدواب ريثما يصل السكان الجدد ويشتغلون فى الأراضى ويحفظونها ، والأهم من ذلك كله – كما أقر المجلس الملكى – أن تظل هيبة السادة وشرفهم محفوظين. ولكى يحدث ذلك فهناك أمران :

أولهما: ألا يغضب الله كما كان يحدث مع هؤلاء الرعاع.

ثانيهما: أن يُطاع الله وتُحترم قوانينه فى كل هذه الممالك.

هكذا نفوز بشىء آخر هو العناية الإلهية لمن يحبون الله ويطيعونه ، أما منْ يعصونه فسيرسل عليهم النكبات والعقاب................ إن كل الكتاب المقدس يحفل بالإشارة إلى أن الذنوب والمعاصى تجلب الخراب والضياع ، وأن السعادة الحقيقية إنما هى مع حب الله وطاعته. إن منْ يقولون إنهم يخشون أن ينتقم الله من عملية الطرد يجب أن يخشوا شيئًا أكبر لو بقى الموريسكيون . عسى الرب أن تمضى العملية كما نتمنى ، وأن يحفظكم لنا.

خادمكم الراهب أنطونيو سوبرينو.

٢١ سبتمبر ١٦٠٩

قرار طرد موريسكيى فالنسيا
أعلن فى فالنسيا فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩[١]

من صاحب الجلالة الملك

وباسمه السيد لويس كاريو دى توليدو ماركيز كاراثينا وسيد مدن بنتو وانيس ...... والقائد العام لهذه المدينة ومملكة فالنسيا والنائب عن جلالة الملك.

إلى السادة والأساقفة ، والقضاة ، وممثلى المدن والقرى ، والحكام ، ومندوبى جلالة الملك والمواطنين ، خاصة مواطنى هذه المملكة .

جاء فى رسالة ملكية من صاحب الجلالة مؤرخة فى ٤ أغسطس الماضى من هذا العام ، موقعة من سكرتيره أندريس دى برادا:

إلى ابن عمى : ماركيز كاراثينا والقائد العام لملكة فالنسيا.

قد علمتَ أننى على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير موريسكيى هذه المملكة ومملكة قشتالة، كما علمتَ بقرارات العفو التى صدرت لصالحهم والإجراءات التى اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس ، وقلة الفائدة الناتجة من كل ذلك ، فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد ، بل زاد عنادهم. ورغم الخطر والأضرار التى تترتب على استعمال السياسة معهم إلا أنه منذ أيام التقيت بكثير من العلماء والمتدينين ، وقد رجونى أن أعالج موضوع الموريسكيين بما يرضى ربنا - الذى اشتد غضبه على الموريسكيين - وأكدوا لى أنه يمكن معاقبة الموريسكيين فى أموالهم وأشخاصهم، لأن الاستمرار فى ارتكاب الجرائم يؤكد أنهم ملحدون ؛ لا يحترمون الله ولا الإنسان. ورغم أنه كان

(١) Boronat, Los moriscos españoles......,pp. 190-193

بالإمكان معاقبتهم كما تستحق جرائمهم إلا أننى إزاء الرغبة فى اتباع اللين معهم أمرت بعقد اجتماع اللجنة فى هذه المدينة ؛ والتى حضرتموها أنتم والبطريرك وقساوسة آخرون وأشخاص مثقفون ، للنظر فيما إذا كان من الممكن تجنب طرد الموريسكيين من هذه الممالك. لكننى علمت أن أهل قشتالة مستمرون فى محاولتهم الضارة . فهمت من مصادر مؤكدة أنهم حاولوا – ويحاولون – من خلال سفرائهم ، ومن خلال طرق أخرى الإضرار ببلادنا . ورغبةً منى فى القيام بواجبى نحو الحفاظ على أمن البلاد – خاصة مملكة فالنسيا – ونحو رعاياها المخلصين لأن الخطر أقرب إليهم ...... فقد قررت طرد كل موريسكيى هذه المملكة ، ونفيهم إلى بلاد البربر.

ولكى يتم تنفيذ هذا القرار ، وأوامر صاحب الجلالة فقد أمرنا بنشر القرار التالى:

١ – يخرج كل موريسكيى هذه المملكة ، رجالاً ونساءً ، وأبناؤهم كذلك ، من فالنسيا فى خلال ثلاثة أيام اعتباراً من نشر هذا القرار فى الأماكن التى يعيشون فيها ، ويذهب الجميع إلى حيث يستقلون السفينة فى الميناء الذى يحدده المفوض ، ويحمل كل موريسكى كل ما يستطيع من أمتعة شخصية ، ويستقل المركب أو السفينة التى تحمله إلى بلاد البربر فينزل منها دون أن يتعرض لسوء المعاملة أو المضايقات، وننبه إلى أننا سنوفر لكل منهم ما يحتاجه من ملابس خلال الرحلة ، وبإمكان كل واحد منهم أن يحمل ما يستطيع ، ومنْ لا ينفذ هذا البند ويخالف هذا القرار يتعرض لعقوبة الإعدام التى ستنفذ لا محالة.

٢ – أى موريسكى – بعد نشر القرار ومرور ثلاثة أيام على نشره – يتواجد خارج محل إقامته أو فى الطرقات قبل إبحار السفينة ، يستطيع أى شخص إلقاء القبض عليه ، وتجريده من متاعه ، وتسليمه إلى العدالة فى أقرب مكان ، وإذا دافع الموريسكى عن نفسه فبإمكان المواطن أن يقتله دون أن يتعرض لعقوبة.

٣ – بعد نشر القرار يُحظر على الموريسكى مغادرة محل إقامته إلى مكان آخر ؛ بل يظل فى مكانه حتى يصل إلى القرية المفوض الذى يقتادهم إلى السفينة .

٤ – أى موريسكى يدفن متاعًا له ، أو يخفيه – لأنه لا يستطيع أن يحمله معه – أو يضرم فيه النار أو يتلف الزرع أو الأشجار أو البيوت توقع عليه عقوبة الإعدام ، ويقوم بتنفيذها المواطنون المقيمون فى موقع ارتكاب الجريمة. نأمر بذلك لأن صاحب الجلالة قد تفضل بمنح سادة الموريسكيين الأمتعة التى لا يستطيع الموريسكيون حملها معهم .

٥ – من أجل الحفاظ على البيوت وعلى محصول الأرز ، وإبلاغ ذلك إلى السكان الجدد ، استجاب صاحب الجلالة لطلبنا وقرر بقاء ستة أفراد بعائلاتهم فى كل قرية بها مائة بيت ، على أن يقوم سادة الرعايا باختيار الأفراد الذين سيبقون ، ويلزم سادة الرعايا بإخبارنا بأسماء الأشخاص الذين تم اختيارهم ، أما الأشخاص الذين سيبقون فى القرى التابعة لصاحب الجلالة فسنقوم نحن باختيارهم. وننبه إلى أنه يفضل أن يكون الأشخاص الذين سيبقون من كبار السن ، وأن تكون حرفتهم الوحيدة هى الزراعة ، وأن يكونوا قد أبدوا ميلاً إلى اتباع المسيحية .

٦ – لا يقوم أحد المسيحيين القدامى أو الجنود بإساءة معاملة الموريسكيين أو إيذائهم باللفظ ، أو الإضرار بممتلكاتهم أو بزوجاتهم وأبنائهم.

٧ – يجب ألا يخفى أحد فى بيته موريسكيًا ، ولا يساعده على الاختفاء وإلا عُوقب من يفعل ذلك بالسجن لمدة ست سنوات ، وبعقوبات أخرى نراها.

٨ – لكى يفهم الموريسكيون أن رغبة جلالة الملك هى طردهم من البلاد ، وأنه لن يقع عليهم إيذاء أثناء السفر ، وأنهم سُينقلون إلى بلاد البربر؛ فإننا نسمح بعودة عشرة أشخاص من الذين سافروا مع الفوج الأول لكى يخبروا الآخرين بذلك ، ونسمح بأن يتم ذلك مع كل فوج ، ونأمر بأن يبلغ ذلك إلى قباطنة السفن لكى يأمروا به ، ولكى يحولوا دون أن يقوم الجنود والبحارة بإيذاء الموريسكيين باللفظ أو بالفعل.

٩ – الصبية دون الرابعة عشرة الذين يفضلون البقاء ، ويوافق أولياء أمورهم على ذلك ، لا يُطردون .

١٠ – الأطفال دون السادسة من أبناء المسيحيين القدامى يبقون فى إسبانيا ، وتبقى أمهاتهم معهم حتى لو كن موريسكيات ؛ أما إذا كان الأب موريسكى والأم مسيحية قديمة فسيُطرد الأب ، ويبقى الأطفال دون السادسة مع أمهم.

١١ – يبقى أيضًا الأشخاص الذين عاشوا مدة عامين بين مسيحيين قدامى ، ولم يحضروا اجتماعات موريسكية .

١٢ - يبقى أيضاً من تلقوا القربان المقدس ، وهؤلاء يتم التعرف عليهم من خلال مسئولى القرى التى يعيشون فيها.

١٣ - يوافق صاحب الجلالة على طلب الموريسكى الذى يفضل الرحيل إلى بلاد أخرى (عدا ممالك إسبانيا) .

هذه هى الرغبة الملكية ، وتنفذ العقوبات الواردة فيها دون رجعة ، ولكى يتم إبلاغ الجميع بها يتم نشر القرار بالطرق المعتادة.

فالنسيا فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩ .

ماركيز كاراثينا وعنه مانويل دى اسبينوسا

رسالة ماركيز كاراثينا إلى صاحب الجلالة
فالنسيا فى ٣ أكتوبر ١٦٠٩

سيدى :

إن أعمال السرقة والأذى التى يرتكبها المسيحيون القدامى ضد الموريسكيين فى هذه المملكة تتزايد لدرجة أن كل الاحتياطات التى اتخذناها لا تكفى ؛ بل يجب اتخاذ تدابير جديدة ، وذلك لعدم وجود طرق آمنة ؛ فلقد مات خمسة عشر أو عشرون موريسكيًا فى يومين أو ثلاثة ، وقد سُلِبَ من الموريسكيين نقود كثيرة ، إذ يرى المواطنون أن هؤلاء يحملون معهم كل ممتلكاتهم فيستغلون الفرصة. ونظرًا لطبيعة هؤلاء الناس فإننى أدرك أن هذا بمثابة إجبار الموريسكيين على الثورة رغما عنهم .

عدد المفوضين الموجودين معى حوالى ثلاثين ، بالإضافة إلى الدكتور رودريغيث والرئيس العام. واعتبارًا من اليوم سأرسل آخرين على أن يقوموا بتنفيذ القانون بصرامة حسبما يتطلب الوضع. وجلالتكم ستتخذون القرارات المناسبة.

حفظكم الله

فالنسيا فى ٣ أكتوبر عام ١٦٠٩

" بعد ذلك بأيام وبتاريخ ٦ أكتوبر ١٦٠٩ أرسل ماركيز كاراثينا رسالة أخرى إلى الملك جاء فيها ما يلى" :

إن عمليات الاعتداء التى يقوم بها المسيحيون القدامى فى القرى ضد الموريسكيين لتعساء كانت من الكثرة لدرجة أننى أعجب أن الموريسكيين لم يقابلوا ذلك حتى

بمجرد توجيه السباب. لقد سُرق من موريسكيي الكوى وغورغا أغنام ودواب كثيرة. لقد أرسلت الحُجاب وأمرت بإعادة المسروقات ، رغم أنه لم يمكن إعادة المسروقات كلها ، وقد أمرت بنشر قرار يعاقب بالإعدام كل منْ يتعرض لحياة أو أمتعة الموريسكيين .

هناك فرقة لصوص تنطلق من قرية دوق غانديا ، وتسرق أغنام الموريسكيين وتُلحق بهم الأذى ، ويرأس هذه الفرقة حاجب كان يستعمله الدوق واسمه خافير. سأحاول إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم بشدة. (١)

Janer, Condicion social.....,pp. 307 y sigs. (١)

نسخة من الرسالة الأصلية التى وجهتها بلدية مدينة مرسيه إلى جلالة الملك بتاريخ ١٧ أكتوبر عام ١٦٠٩[١]

" لم يكن سادة الموريسكيين فى فالنسيا وأراغون فقط هم الذين يعارضون عملية الطرد ، وحاولوا حماية رعاياهم. حدث ذلك فى قشتالة أيضًا ، ففى قرى كان الموريسكيون فيها لا غنى عنهم تدخلت السلطات المدنية والدينية لمنع طردهم ، وذكرت فى تقاريرها أنهم مسيحيون متدينون ، وكان عددهم - وفقًا للتقارير التى قدمت - لا يشكل خطرًا . راجع حالة بلدية مرسيه. فى هذا الإقليم ، وبالتحديد فى وادى ريكوتى استثنى الموريسكيون - بفضل مهارتهم فى صناعة الحرير ، وشهرتهم كمسيحيين متدينين - من قرار الطرد إلى أن تم طردهم فى النهاية عام ١٦١٤ ، وقد اشتكى كونت سالاثار إلى الملك عدة مرات من العدد الكبير من الموريسكيين الذين يعودون ومن ترحيب المواطنين بهم"

سيدى :

بعد أن قررتم جلالتكم - لأسباب عادلة وبدافع من الغيرة على الدين - طرد موريسكيى فالنسيا لحماية المملكة من الأضرار التى قد تنتج عن عدم إخلاصهم ، وعن صلاتهم - هم وموريسكيى قشتالة - بالكفار ، اتخذ بعض الأشخاص ذلك ذريعة لتهديد موريسكيى غرناطة باتخاذ نفس الإجراء ، وقد بلغت المخاوف حدًا جعلنا مضطرين إلى إحاطة جلالتكم علمًا بما يجرى فى هذه المدينة والقرى التابعة لها . هناك ٩٦٨ تسعمائة وثمانية وستين بيتًا ؛ وهو عدد - نظرًا لعدد المسيحيين القدامى - ضرورى لأداء أعمال معينة ، ولا يؤدى إلى أى خطر . منذ وصولهم إلى المدينة تعلموا الدين المسيحى لدرجة أنه لم يتبق فيهم أى شىء يثير الشك. معظم هؤلاء الناس ولدوا

(١) Janer, *Condicion social....*,pp. 310-311

وعاشوا فى هذه المدينة ، ويخجلون من أنهم أبناء مسيحيين جدد. منذ سنوات طويلة لم تُعاقب محكمة التفتيش أحدًا منهم. إننا نعتقد أنهم مخلصون للملك ، ويبدو أن السلطات أسكنت فى هذه المدينة أكثر الموريسكيين ثقة وإخلاصًا للملك. وفيما يتعلق بمصلحة هذه البلاد فهؤلاء الناس ضروريون لها ، وللإيرادات الملكية ، بالإضافة إلى الخدمات الخاصة التى يؤدونها إلى جلالة الملك – رغم أن هذه الخدمات ليست هى التى تدفعنا إلى الإبقاء عليهم ، بل يدفعنا إلى ذلك رأينا فيهم ، فلولا ذلك لضحينا بمصلحتنا الشخصية فى سبيل الصالح العام.

أننا نتوسل إلى جلالتكم النظر إلى تقريرنا ، والأمر بما يحقق مصلحة جلالتكم بحيث يظل هؤلاء الناس فى هدوء وسكينة ، وعدم السماح بأى إجراء يجعل الناس تلحق بهم الأذى. إننا نرى أن ذلك فى مصلحة جلالتكم ، ونراه كذلك تفضلاً من جلالتكم.

حفظكم الله

مرسيه فى ١٧ أكتوبر ١٦٠٩

أرتياغا

فرانثيسكو .... توماس

خيرونيمو .... فرانثيسكو الموبوبار

عن بلدية مرسيه: ألونسو انريكيث

رسالة من موريسكى غرناطى أرسلها من الجزائر إلى مواطن من تروخيو

" رسالة من السيد مولينا ؛ وهو موريسكى غرناطى، كتبها من الجزائر إلى السيد خيرونيمو دى لوايسا ، فارس من تروخيو، فى يوليه عام ١٦١١ يحكى فيها تنقلات الموريسكيين المطرودين ومشاكلهم إلى أن وصلوا إلى المدينة التى استقروا فيها بشكل نهائى" (١)

كونى لم أكتب إليكم رسالة طويلة قبل ذلك لم يكن بسبب أننى نسيت الأفضال الكثيرة التى تلقيتها منكم ، لأن هذه الأفضال كانت وستظل موجودة فى ذاكرتى ما حييت . ورغم أننى أرسلت إليكم رسالة من ليورنا حينما كنت فيها إلا أنها كانت رسالة سريعة . أما الآن فلدى فرصة أن أقص عليكم ما حدث بعد أن خرجنا من كارتاخينا ، فقد وصلت إلى هذا الحد فى رسائلى .

وصلنا إلى مرسيليا حيث استُقبلنا بحفاوة ، ووُعدنا بجميع أشكال الرعاية ، لكن بعد أيام قليلة سارت الأمور على نحو يخالف ما وُعدنا به ، فقد مات الملك انريكى الرابع . كنا فى مرسيليا ذات يوم على وشك أن يطردونا ، وقالوا إن قدومنا تم بناء على تخطيط من ملك إسبانيا ، وإننا جواسيس لملك إسبانيا ، وإننا جئنا بهدف احتلال أرضهم . حاصرونا ، وطيلة خمسة عشر يومًا كانت المدينة على أهبة الاستعداد للحرب ، وفى النهاية سلبوا منا جزءًا كبيرًا من أموالنا ، وكان ذلك بحكم قضائى. ورغم أن الملكة حاولت معالجة الأمر بإرسال قاضٍ ، إلا أن القاضى جاء متطلعًا إلى المال لدرجة أن صديقًا لى من بايثا أعطاه مائة عملة ذهبية فأخذها ، وغيّرها بعملة واحدة متعللاً بأن عُملات صديقى وزنها ناقص قليلاً.

(١) Janer, *Condicion social de los moriscos españoles*, pp. 350-351.

حول رحيل الموريسكيين إلى فرنسا انظر:

Cardaillac,"Le passage des Morisques en Languedoc", en *Annales du Midi (Toulouse)*

Cardaillac,"Morisques en Provence" en *Les Languages Romanes (Montpellier)*

لما رأينا المعاملة السيئة ، وكنا حوالى ألف شخص ، قررنا الخروج من المملكة والتوجه إلى مكان آخر أكثر أمنًا.

ذهبنا إلى ليورنا ، وحدث لنا ما حدث فى مرسيليا. ولما رأينا أن هنا وفى أقاليم إيطاليا الأخرى لا يريدوننا إلا للاستفادة منا فى زراعة الأراضى وفى ممارسة بعض الحرف الدنيا - وكان معنا أشخاص لا يجيدون هذه المهن ؛ بل كان معظمهم من التجار- ولم تكن هناك أوامر بعودتنا إلى إسبانيا ، فمن بقوا فى اكستريمادورا صدر قرار بطردهم عنوةً ، وكل من نُفذ فيه قرار الطرد سرق البحارة نقوده ، واغتصبوا نساءه وبناته... لذلك رأينا من الأفضل أن نغادر قبل أن يحدث لنا ما حدث لهؤلاء .

لذلك قررنا مغادرة البلد ، والتوجه إلى حيث أراد الملك أن يرسلنا ، ولهذا جاء كل موريسكيى تروخيو إلى مدينة الجزائر هذه حيث استقر معظم أبناء اكستريمادورا ومانشا وأراغون.

لا تظن أن طردنا من البلاد كان أمرًا بيد ملك إسبانيا ؛ بل كان ذلك وحيًا إلهيًا ، فقد رأيتُ هنا آثارًا يرجع تاريخها إلى ألف عام تحكى ما حدث لنا وما سيحدث. علمت أن الله سيُخرجنا من هذه الأرض ، وأن الله سيُلهم الملك ومستشاريه فعل ذلك ، وأنه سيموت منا كثيرون فى البحر وفى البر...... أى كل ما حدث . ذلك لأن أقل معصية يحاسبنا الله عليها ، ويُرسل ملكًا يحكم العالم كله بشريعة الله وحدها ، ولا يُجدى فى مواجهته حصار ، ولا مدافع . قرأت أشياء أخرى لا أذكرها لدواعى الإيجاز .

رأيت طالعًا آخر عند عراف من فالنسيا أحضروه من إسبانيا هذا العام. كانت معجزة أن تُطرد الحملان الوديعة ، وأن تبقى الذئاب المفترسة .

صدقنى إننى لا أكتب ذلك بدافع العاطفة والكراهية ، بل كما لو كنت أعيش فى إسبانيا ، فهنا لم يجبرنا أحد على أى شعيرة دينية(*) ، ولا على أى عمل بدنى يجعلنا نكذب ، ويكفينى أن ترى نبوءات... حول ذلك.

الجزائر فى ٢٥ يوليه عام ١٦١١

(*) إقرار الموريسكى بأنه لم يُجبر على ممارسة شعائر الإسلام يدحض أقوال الباحثين الذين يزعمون أن الموريسكيين قد تعرّضوا لحملات تهدف إلى تعليمهم الإسلام بالقوة . إن المنطق يقول إن هؤلاء الموريسكيين لولا تمسكهم بالإسلام لما تركوا إسبانيا وهاجروا إلى بلاد إسلامية . هذه الوثيقة تؤكد ما نقول : انظر مقالنا «نص حول الجنس لموريسكى من تونس» المجلة التاريخية المغاربية، العدد ٧٧-٧٨، زغوان ، ١٩٩٥ ، ص ٣٤٩-٣٥٣ . ص ٣٤٩-٣٥٣ . (المترجم)

رسائل من كونت سالاثار إلى الملك يعرب فيها عن قلقه إزاء أعداد الموريسكيين الكبيرة التى تعود إلى مواطنها بعد أن تم طردهم منها

" فى عام ١٦١٠ عين الملك كونت سالاثار للإشراف على علميات طرد موريسكيى قشتالة ، وقد قام الكونت بالمهمة بحماس شديد. بعد خمسة أعوام من قرارات طرد موريسكيى قشتالة – وبعد أن انتهت مهمتة – وجه سالاثار عدة نداءات إلى الملك وإلى دوق ليرما يحذر فيها من كثرة عدد الموريسكيين الذين يعودون إلى مواطنهم الأصلية"

رسالة من كونت سالاثار إلى جلالة الملك
بتاريخ ٨ أغسطس عام ١٦١٥

سيدى :

فى رسالة بعث بها إلىّ دوق ليرما فى ٣١ من الشهر الماضى كلفتمونى جلالتكم بإخباركم عن سير عملية طرد الموريسكيين حتى يتم تنفيذها على أكمل وجه. ورغم أن سلطاتى فى هذا الأمر تقل كثيراً عن تلك التى أمرت بها جلالتكم إلا أننى أخبرت جلالتكم بما حدث ، ولم أتلق رداً ، ففهمت أن جلالتكم لديكم أخباراً عن طرق أخرى .

فى مملكة مرسية – التى عاد إليها كل الموريسكيين الذين غادروها عن طيب خاطر– يستقبلهم المواطنون بحفاوة ويخفونهم . حاولت أن أرسل السيد خيرونيمو دى أبيانيدا الذى كان مساعداً لى ، كما حدث عندما أمرتم جلالتكم بأن يحمل تعليماتى حول ما يجب عليه عمله، نظراً لمشاغلى فى هذه المملكة ؛ لم يقبل المجلس هذه التعليمات ،

وأصدر تعليمات أخرى لم تُفد فى شىء ؛ فقد عاد كل منْ طردهم ، أما الذين أمر بسجنهم فهم يتقدمون إلى المجلس بالشكوى فى جميع أنحاء أندلوثيا عبر رسائل إلى دوق مدينا سيدونيا. ومن خلال أشخاص آخرين أعلم بأن الذين لم يعودوا إلى مواطنهم الأصلية فى كاستيا الجديدة ولامانشا واكستريمادورا هم فقط الذين ماتوا. وفى المقاطعات بصفة خاصة من المعلوم أنه فى كل يوم يعود كثيرون ورجال الشرطة يخفون ذلك.

هناك شىء مؤكد هو أنه عندما أمرتم جلالتكم بطرد الموريسكيين لم تقم الشرطة باعتقال موريسكى واحد ، ولم أتلق أنا رسالة من أحدهم. هناك فى جزر مايوركا ومينوركا وكناriاس موريسكيون كثيرون من مواطنى الجزر ، ومن الموريسكيين الذين تم طردهم من أماكن أخرى. ومن المعلوم أنه فى أراغون – بالإضافة إلى الموريسكيين الذين عادوا أو من الذين قدموا من كاستيا – هناك موريسكيون كثيرون مصرح لهم بالإقامة ، وهناك موريسكيون يقيمون بتصاريح مزيفة ؛ وعليه فإن الموريسكيين المقيمين فى إسبانيا بلغوا من الكثرة بحيث يُخشى عودة المشاكل التى جعلتكم تتخذون قرار الطرد، وعلى الأقل فإن مشكلة العبادة – وهى المشكلة الرئيسية – لم تتحسن إلا قليلاً ، لأن تدين هؤلاء الذين ذكرتهم مشكوك فيه .

الرأى الذى انتهيت إليه هو الشك فى تقارير رجال الشرطة . وحتى الآن لم يرسلوا إلىَّ تقريراً واحداً ، فهم مستريحون إلى ترك الموريسكيين يقيمون فى مواطنهم.

وفقًا لذلك ستأمرون جلالتكم بما ترونه صالحًا ، والرأى الذى أستطيع أن أقدمه لكم هو ما ذكرت.

حفظكم الله سيدنا كما نرغب ونتمنى نحن رعاياكم.

مدريد فى ٨ أغسطس ١٦١٥

كونت سالاثار

نسخة من الرسالة الأصلية التى بعث بها كونت سالاثار
إلى سيادته [سكرتير الملك ؟] بتاريخ ٨ أغسطس ١٦١٥

إن أوامر صاحب الجلالة بأن أرد على موريسكيى طنجة قد اضطررت معها إلى إخباره عن الوضع السئ الذى تسير عليه عملية طرد الموريسكيين ، نظراً لأن الكثيرين منهم يعودون كل يوم ونظراً لوجود أعداد من الذين لم تتم عملية طردهم بعد ، فهؤلاء جميعاً يشكلون عدداً لا بأس به.

إننى بذلك قد قمت بواجبى ، وبتنفيذ ما أمر به صاحب الجلالة ، ويسرنى أن يتخذ جلالته القرار الذى يراه مناسباً. هناك شيء أؤكده لكم وهو ما يلى : إذا كان من المناسب طرد الموريسكيين من إسبانيا ، فليس من المناسب أن نتركهم يعودون إليها ، وبعودتهم نمحو الإنجاز الذى تحقق ، ولا يُعبد الرب الذى لا يعرفه هؤلاء الناس.

حفظكم الله كما أتمنى

مدريد فى ٨ أغسطس ١٦١٥

كونت سالاثار

" هناك أيضًا منْ يشكو من كثرة أعداد الموريسكيين الذين يعودون ، وهو بدرو دى أريولا المشرف على طرد الموريسكيين من أندلوثيا . ترد الشكوى فى رسالة بعث بها من ملقة إلى الملك فى ٢٢ نوفمبر عام ١٦١٠ "

سيدى :

كثير من الموريسكيين الذين طُردوا من أندلوثيا ومملكة غرناطة يعودون من بلاد البربر فى سفن فرنسية تنزلهم فى سواحلنا ، ثم يتوجهون إلى داخل البلاد. وقد علمت أن معظمهم لا يعودون إلى موطنهم الأصلى حتى لا يتعرف عليهم أحد ، ويبلغ عنهم. وبما أنهم يجيدون لغة البلاد فهم يقيمون فى أى مكان لا يعرفهم فيه أحد، كما لو كانوا

مسيحيين قدامى. وقد وصل إلى هذه المدينة قليلون ، ربما لأنهم خافوا من شدتى معهم فى تنفيذ أوامر جلالتكم. لكن برغم ذلك فقد وصل إلى هنا بعض الذين ألقيت القبض عليهم ، وقالوا لى إن معظم الموريسكيين الموجودين فى بلاد البربر سيعودون إلى هنا لأن المسلمين يسرقونهم ويسيئون معاملتهم ، وما أراه يا سيدى - كشخص تمت على يديه عملية ترحيل موريسكيى أندلوثيا - هو أنهم مسلمون إلى أقصى حد ، لأننى حين فحصت أمتعتهم الشخصية وقت رحيلهم لم أجد مجرد قطعة صغيرة من لحم الخنزير ، ولم أجد مجرد كوب نبيذ ، مع أنهم كانوا يحملون معهم لحوم الخراف ، والماعز، ورغم كون الخنزير والنبيذ افضل المؤن أثناء السفر. يُضاف إلى ذلك شىء أخر على قدر كبير من الأهمية ؛ فقبل وصول أوامر جلالتكم باحتجاز الأطفال من الأسر المتوجهة إلى بلاد البربر لم يتوجه شخص واحد إلى بلاد مسيحية ، ولمجرد الهروب كانوا يتوجهون إلى مارسيليا ، وقد حملوا معهم (أطفالاً) كثيرين إلى تونس ، وإلى غوليتا وإلى أماكن أخرى من بلاد الكفار ، ومنْ يبقى منهم يعود إلى إسبانيا . ولدى خمسة مساجين تجرأوا على العودة إلى هذه المدينة ، وهم يقولون لى إن كل الموريسكيين يعودون ، وإذا نفذوا ما عزموا عليه فستتحول عملية الطرد بأكملها إلى مجرد وهم ، وستحدق بنا الأخطار التى من أجل تجنبها اتخذنا إجراءات .

بناءً على أنه لا يمكن تنفيذ عقوبة الإعدام التى يستحقونها نظراً لكثرة عددهم ؛ فيمكن اعتبار الرجال الذين جاءوا من بلاد البربر أو من مارسيليا كأسرى حرب يخدمون جلالتكم فى السفن، كما يمكن اعتبار النساء أسيرات ، ويشكلن جزءاً من متاع جلالتكم ، ويجب تحويل البعض إلى القاضى لكى ينفذ ما يراه مناسباً . فيما يتعلق بالأطفال دون السابعة يمكن أن يعهد بهم - خلال مدة تحددونها جلالتكم - إلى بيوت النبلاء والرجال الصالحين لكى يتلقوا على أيديهم التربية الحسنة . جلالتكم ستصدرون إلىَّ الأوامر التى ترونها مناسبة بشأن الحالات التى تصل إلىَّ ، وإذا رأيتم أن أخرج أيضًا إلى أماكن أخرى فى هذا الإقليم فسأفعل ، رغبةً منى فى تنفيذ أوامركم.

حفظكم الله ذُخراً للمسيحية .

ملقة فى ٢٢ نوفمبر ١٦١٠

موجز ومقتطفات من القضية التى نظرتها محكمة التفتيش ضد دييغو دياث ، وهو موريسكى قشتالى حوكم فى كوينكا عام ١٦٣٠ لأنه عاد مرتين إلى إسبانيا بعد أن طُرد منها

" *دييغو دياث جزار ، وزوجته ماريا ديل كاستيو موريسكيان من بيلمونتي*" (١)

مثل دييغو دياث أمام المحكمة بعد أن اتهمه أنطونيو مالو ، وزوجته ، وخادمته ، وشاهد آخر بما يلى :

- عدم وضع لحم أو دهن الخنزير فى الحلة ، بل كان يستعمل الزيت .
- تناول اللحم فى أيام صيام المسيحيين وأيام الجمع ، دون أن يكون مريضًا ، لأنه يتناول السمك والتونة والسردين والجبن ؛ وهى أشياء لا يتناولها المرضى .
- الاغتسال ، وارتداء ملابس نظيفة يوم الجمعة ، والنوم وهو عريان .
- استضافة موريسكيين من بايى دى ريكوتى فى بيته.

" وتعلم هذه الشاهدة أن دييغو دياث المذكور كان يستضيف فى بيته موريسكيين كثيرين من بايى دى ريكوتى ، وأنه كان هو وزوجته يدخلان البيت مع الموريسكيين المذكورين ، وكانوا يتحدثون باللغة العربية التى لا تفهمها الشاهدة ، وكانوا يغلقون الباب لمدة ثلاث أو أربع ساعات"

عندما سُئل دييغو دياث أمام المحكمة عما إذا كان له أعداء ذكر خادمةً سابقةً له، كان قد طردها من خدمته لأنها كانت تشرب الخمر ، وذكر اسميّ أنطونيو مالو وزوجته ، وهما أصحاب خان مثله. يدافع عن المتهم الموجهة إليه (يقول مثلاً إنه لم يكن يتحدث بالعربية مع من كان يستضيفهم فى بيته ؛ بل كان يحدثهم باللهجة الفالنسية لأنه كان قد عاش فترة طويلة فى تلك البلاد ويتحدث لغتها وله أصدقاء فيها) ، ومن خلال الإجابات على الأسئلة يحكى قصة حياته. دييغو دياث من دايمييل التابعة لكالاترابا؛ وهو من الموريسكيين القدامى الذين كانوا يقيمون فى قشتاله منذ ثلاثمائة عام حيث

كانوا يعملون فى خدمة ملوكها ، وبعد طرد موريسكيى غرناطة أرادوا أن يطردوهم ، وطردوهم بالفعل ثم عادوا بعد ذلك وأقاموا فى القرى المذكورة"

كان عمر دييغو عند الطرد سبعة عشر عامًا ، وحتى ذلك الحين كان يشتغل بالزراعة، "وبعد أن غادر مملكة قشتالة دخل مملكة فرنسا فى بايونا ، وسان خوان دى لوث عام ١٦٠٩ ، أمضى هناك ما يقرب من خمسة عشر يومًا ، وكان ضمن أناس كثيرين ممنْ شملهم قرار الطرد". عاد دييغو إلى دايمييل من فرنسا ، لكنهم اعتقلوه ، وبعد أن سجن لمدة شهرين حملوه إلى قرطاج مع موريسكيين آخرين ، ومنها إلى الجزائر. يتحدث دييغو عن فترة إقامته فى تلك المدينة ويعترف بأنه مختن.

" أنزلوهم بالقرب من الجزائر ، وجاء الأتراك من المدينة واقتادوهم إليها وأدخلوهم الترسانات ؛ وهى بيوت كبيرة بها الأسلحة وطلقات المدافع ، وهناك كانوا يفحصون الذكور ، وكانوا يختنونهم" ، كان منْ يقوم بإجراء الختان حلاقين... بعد ذلك أقام لهم الأتراك مأدبة عظيمة " مثل التى تُقام فى إسبانيا عند الزفاف . أكلوا وهم يجلسون على الأرض على حصيرة فوقها مفرش" . بعد ذلك صنعوا له من عباءته جلباب مسلم.

" ذهب دييغو إلى السفن لكى يعمل ويستخرج حجارة لبناء سور عند الميناء" . كانوا يدفعون له ريالاً ونصف ، وكان يصحب موريسكيين آخرين من طليطلة ومن مملكة غرناطة ، ومسيحيين أيضًا. وذات مرة اعترف أمام قسيس أسير ، وكان – من باب التخفى – يمثل أنه يلعب الكوتشينة . ظل يؤدى شعائر المسيحيين دون أن يقول ذلك لأحد. لم يدخل إلى المسجد الكبير فى الجزائر إلا مرة واحدة ، وحدث ذلك فى ساعة لم تكن وقت صلاة ، ودخل المسجد لأنه كان لديه فضول لمعرفة ما بداخله.

يقص الأشياء التى صدمته فى عادات الأتراك ، وحتى لو أنه ذات مرة شعر بميل نحو شريعة محمد فإن الصدام قد جعله يفقد ذلك الميل. يقول إنهم يفعلون كل شىء بشكل مخالف لما يحدث فى إسبانيا . يتبولون وهم يرفعون القميص ، وينزلون السروال كالنساء. [٢] يمشون فى أحذية بسيطة ، ويبدو أنهم يفعلون كل شىء بشكل مخالف لما يحدث فى إسبانيا . تسير النساء وهنَّ يغطين وجوههن ، بحيث لا يستطيع أحد أن

يراهنَّ . يأكلون وهم جالسون على الأرض ، لكن أكثر ما أثار اشمئزازه هو أنهم يشترون الغلمان لكى يناموا معهم..."

" هناك فى الجزائر أكثر من ستة آلاف غرناطى ، وهم مسيحيون ، لكن موريسكيى أراغون وفالنسيا لم يعتنقوا المسيحية أبدًا [٣] . ولو أن أحد الغرناطيين الموجودين فى الجزائر وُلد له ولد فإنه لا يتركه يغيب عن عينه أبدًا خوفًا من أن يسرقه المسلمون ويستغلونه كما ذكرت" [٤] .

بعد أن أمضى عدة شهور فى الجزائر أبحر دييغو فى سفينة صيادين من بينهم موريسكيون من أراغون ، وذات يوم رأى أن سواحل إسبانيا قريبة ؛ فألقى بنفسه فى الماء، وظل يسبح حتى طرطوسة، ومنها توجه إلى سرقسطة ثم إلى فرنسا لكى يبحث عن والده أو أحد إخوته. لم يجد أحدًا (فمنهم منْ مات ، ومنهم منْ عاد إلى إسبانيا) فتوجه إلى أبينيون ، وعاد إلى إسبانيا . عاش فى فالنسيا حيث تعلم حرفة الجزارة ، ومارسها بعد ذلك فى أوريويلا ومانثاناريس وموتا ديل كويربو وبيلمونتى التى كان يقيم فيها عندما ألقى القبض عليه. يقول فى دفاعه إنه لو لم يكن مسيحيًا مخلصًا ما عاد إلى إسبانيا بعد أن طرد منها مرتين ، فلو كان يؤدى شعائر محمد لاستقر فى الجزائر ، وهى الأرض التى تؤدى فيها هذه الشعائر .

على مدى نظر القضية كانت النقطة الرئيسية للمناقشة هى ما إذا كانت عملية الختان التى أجريت له قد أجريت بشكل إجبارى أم لا ؛ فإذا كانت قد تمت بشكل إرادى يكون قد رفض العقيدة الكاثوليكية ، ويكون قد اختار الإعدام ، ومن ناحية أخرى فإن أعضاء محكمة التفتيش لا يصدقون أن المسلمين يجبرون أحدًا على اعتناق دينهم ، أو يجرون عملية الختان لأحد بشكل إجبارى.

فقرات من ملف قضية دييغو دياث

" ذكر ممثل النيابة أننى أطلعت على قضية دييغو دياث ، ويبدو لى أنها لم تكتمل بعد، إذ لم يتم الاستماع إلى ثلاثة شهود رئيسيين هم أنطونيو مالو ، وماريا لاغونا زوجته (وبالنسبة لهذين الشخصين يقدم المفوض دليلاً على أن العثور عليهما غير ممكن ،

وهو سؤال الشخص الوحيد فى بلمونتى الذى ربما يعرف مكانهما ؛ وهذا الشخص محام) وأرى أنه يجب سؤال الأشخاص العاديين من جيران وأصدقاء عن المختفين ؛ فليس من المعقول أن يختفى رجل وزوجته تماماً.

كما يجب السؤال عن ماريا ايرنانديث ؛ وهى وثيقة الصلة بالمذكورين ، وكانت تعمل معهما.

عند العثور على الشهود أقول إنه بافتراض أن المتهم ينحدر من أصول إسلامية أو من أسرة كانت تؤدى شعائر محمد ، ومن ثم طرد من إسبانيا ، بافتراض ذلك ، وضد الشهود الخمسة الذين يقولون إن المتهم كان يأكل اللحم فى الأيام المحظورة ، خاصة فى صيام عام ١٦٣٢ ؛ وكان يأكل معه السمك والجبن وأطعمة أخرى ضارة بالصحة...

ولدحض هذا الدليل فإن كثيراً من الشهود الذين قدمهم دييغو دياث قالوا إنه إذا كان قد أكل هذه الأطعمة فإن ذلك كان بسبب نوبات مرض تصيبه ، وإن ذلك كان بتصريح من الطبيب . ويقول الدكتور باثكيث الطبيب إنه أعطاه تصريحاً بأكل اللحم ، لكن الطبيب يقول أمام المحكمة إنه لم يعط المتهم تصريحاً بأكل اللحم عام ١٦٣٢ ، وإن التصريح فى زمن ما لا يجب أن يُفهم على أنه تصريح أبدى.

هناك شاهدان يقول المتهم إنهما خصمان له ؛ وهما أنطونيو مالو ، وزوجته . العداء مفهوم ، فهم يمارسون مهنة واحدة ؛ وهم جيران، وهذا – بين الطبقات الدنيا – يؤدى إلى التحاسد وإلى رغبة كل منهما فى إبعاد الآخر عن المكان.

عن اتهامه للشهود بأنهم لصوص وسكارى ، لا أرى تصديق هذا الادعاء لنقص الدليل ، ولأن السُكر يُعرف بما يترتب عليه من أفعال ، ولا يُعرف بمجرد النظر إلى العينين ، هـذا بالإضافة إلى أنه فى أمـور الدين لا يجب أن ترفض شهادة شاهد إلا بسبب الخصومة.

يقولون إنه لا يحضر لسماع الوعظ فى الأعياد ، وهذا اتهام مرفوض لأنه سلبى ، ولأن شاهداً واحداً فقط هو الذى يقول به ، لذلك فهو اتهام غير ثابت ؛ خاصة وأن هناك شاهدين آخرين يقولون إنهم رأوه يسمع الوعظ مرات عديدة.

يقولون إنه لا يأكل لحم الخنزير ، وفى هذا الصدد تقول خادمة إنها ظلت تعمل فى بيت المتهم لمدة سبعة شهور ؛ فلم تره يضع لحم خنزير فى الحلة ، ولو كان هناك شاهد آخر مع الخادمة لربما كان دليلاً دامغًا ؛ بالنظر إلى أن المتهم ينحدر من أصول إسلامية، لكن الشاهدة وحيدة ، ورغم أننى - كما ذكرت - لا أرى واقعة السُكر ثابتة فى حقها ، إلا أن شهادتها تنم عن موقف عاطفى ينبع من كره المتهم ؛ فقد قالت إنها لم تره يعلم أبناءه الصلوات المسيحية ، وقد ثبت أن له طفلة عمرها سبع سنوات تعرف الصلوات المسيحية ، ومن المعتقد أن أبويها هما اللذان علماها. هذا بالإضافة إلى أن كثيرين من الشهود الذين قدمهم المتهم يقولون إنهم شاهدوه يأكل لحم الخنزير ، وعلى ضوء هذا كله أرى أن التهمة غير ثابتة.

يقولون إنه وأهل بيته يرتدون ثيابًا نظيفة يوم الجمعة ، لكن بالنظر إلى أن هذا المتهم جزار فإن يوم إجازته ويوم ارتدائه الثياب النظيفة هو يوم الجمعة ؛ لكن لنا مأخذ هو أن المتهم ليس هو الوحيد فى البيت الذى يرتدى ثيابًا نظيفة يوم الجمعة ؛ لكن هناك شاهدًا واحدًا على ذلك وهى الخادمة المذكورة.

الأمر الذى أراه ضد المتهم هو أنه قد اعترف بأنه قد أجريت له عملية الختان، وهى أهم شعيرة عند المسلمين ، وقد اعترف بأنه قد أجريت له العملية فى الجزائر عندما نزل بها مع موريسكيين آخرين إبان الطرد. ورغم أن المتهم يقول إنه قد أجبر على الختان إلا أنه من المعلوم جدًا أن المسلمين لا يجبرون أحدًا على الدخول فى دينهم ، ومن البديهى ألا يجبروا على إجراء الختان منْ لم يدخل فى دينهم، وعليه فإننى أفهم أن هذا المتهم والأشخاص الآخرين الذين أجريت لهم عملية الختان قد خرجوا عن دين يسوع ، سواء من حيث الختان أو من حيث الملبس. إن دخوله إلى المساجد يعنى أنه اعتنق دين محمد ، وقد اعترف المتهم بأنه دخل المسجد ، ولا يسمح المسلمون لغير المسلمين بدخول المسجد. وقد اعترف المتهم كذلك بأنهم صنعوا له جلبابًا إسلاميًا من العباءة ، وحاول أن يُفهمنا أن ذلك تم دون رغبته ، لكن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقيًا بل يدل على أنه خرج عن ديننا ، وكان يعتقد - كالعادة - أنه لو ذهب إلى روما سيعفى من العقوبة ، ولما كان فى ابنيون اعترف وتلقى العفو ، وقد اعترف بذلك فى ١٢ يوليه عام ١٦٣٢ . كل ذلك يؤكد أن المتهم إذا كان قد اعتنق الكاثوليكية يومًا ما فقد خرج منها عندما كان فى الجزائر.

" الشهود الذين يدلون بأقوال لصالحه - رغم أنهم لا يقولون شيئًا يزيل هذا الشك - يقولون ذلك بدافع العاطفة، لدرجة أن أحدهم يقول إنه شاهده يمضى ساعات يعلم أبناءه الصلوات المسيحية ، مع أن المتهم لا يجيد القراءة . وهناك شهود آخرون يقولون إنهم رأوه يرتدى ملابس نظيفة يوم الأحد ، مع أن ذلك شيء لا يمكن أن يراه إلا الخدم. وهناك جرَّاح ذكر أن المتهمين لم يبلغوه إطلاقًا بإصابتهم بنوبات ، ولا يعلم أنهم مصابون بها حتى يسمح لهم بأكل اللحم. ثم عندما قدموه للشهادة قال إنه يعلم بإصابتهم بنوبات ، وإنه رآهم ، وإنه يصرح للمتهم بأكل اللحم، ومن المعلوم أنه فى السابق تم جلد شهود مثل هؤلاء مائتى جلدة ، ومثل هذا الجرَّاح.....(وهناك شهود آخرون أدلوا بأقوال متناقضة كهذه).

ومن يقولون فى صالح المتهم إنه يعطى الصدقات ويقوم بأعمال يؤديها الأشخاص الصالحون عادة ، سواء كانوا مسلمين أم ملاحدة أم يهود. هناك عمل واحد من شيم المسيحيين ، وهو إعطاء الصدقات من أجل إقامة قداس ، وهذا معناه - ما لم يكن نفاقًا - أنه يؤمن الآن بما كفر به فى الجزائر ، وعليه فإننى أرى أن يتعرض للتعذيب وأطلب التصريح بذلك.

ألونسو دى بابيخو

أقول أيضًا إن اعترافه فى أبنيون قد حدث بعد مرور سبعة أو ثمانية أعوام على مغادرة الجزائر ، ولو أن الختان كان تم بشكل إجبارى ، وكذلك دخوله فى الإسلام ، لما تأخر كل هذه المدة فى التوبة.

فى مدينة كوينكا ، وفى مقر محكمة التفتيش ، وبتاريخ ٢٠ ديسمبر عام ١٦٣٣ ، وبحضور السيد سباستيان دى خرياس ، والسيد انريكى دى بيرالتا كارديناس ، والسيد راموس رودريغيث دى مونروى أعضاء محكمة التفتيش استُدعى من السجن "دييغو دياث" وسُئِل ما الذى قرر أن يقوله لكى يخلص ضميره فأجاب بأنه ليس عليه أن يقول إلا ما قاله بالفعل.

"وسُئِل عن أنه قد اعترف بأنه عندما وصل إلى الجزائر قد أجريت له - ولموريسكيين آخرين - عملية الختان ، وأنه رفض لأنه كان مسيحيًا ، وأنه كان يعترف أمام راهب مسيحى أسير، سُئِل متى كان ذلك ، وماذا قال الراهب ، وهل اعترف أمامه

بالختان ؟ فقال إنه لا يتذكر الوقت أو العام الذى حدث فيه الطرد لكنه يبدو له أنه بعد عامين من خروج الموريسكيين الغرناطيين من إسبانيا . حملوه أولاً إلى بيوبيا حيث بقى مدة قصيرة فى سان خوان دى لوث ، ومنها عاد إلى إسبانيا ، وفى بيا دى أرو اعتقلوه هو وفرانثيسكو مورينو - المتوفى - وهو من دايمييل . وقد سجنهما قاض وسلمهما إلى الشرطة فسجنوا ثلاثة أشهر. بعد ذلك سلموهما إلى بيوبيا ، ومنها توجه إلى سان خوان دى لوث ، حيث كان يقيم والده ، وظل هناك ستة أشهر ثم عاد إلى إسبانيا ، وذهب إلى مدريد ، وعاد إلى دايمييل وبقى مع مخبر محكمة التفتيش الذى يُدعى أورشكو ، وظل معه مدة ثمانية أو عشر شهور ثم اعتقله العمدة فى القرية مع فتيان آخرين ، وأرسلهم جميعًا إلى كارتاخينا حيث مكثوا عدة أيام حتى أحضر العمدة كابريرا مجموعة أخرى من الموريسكيين ، فأركبوهم سفينة حملتهم إلى بلاد البربر ، وأنزلوهم فى مكان يُسمى سرجيل على بُعد ثلاثة أو أربعة أميال من الجزائر. ساروا جميعًا فى اتجاه الجزائر ، ولما ساروا مسافة نصف ميل قابلتهم فرقة من مائة جندى من الجزائر حملتهم إلى المدينة على خيول ، وخلف كل منهم زوجته ، وأحسنوا معاملتهم ؛ وبعد مرور يومين أو ثلاثة أجروا لهم عملية الختان ؛ فكانوا يأخذون الرجل ويضعونه بين رجلين من الجزائر يمسكانه من ذراعيه ويجرون له عملية الختان دون كلام. يقول المتهم إنه كان يعترف أمام الراهب عندما كانا يلعبان الكوتشينة ، وكان يقول له إنه يحزنه البقاء هنا كما يحزنه الختان".

" وقد سُئِل كم من الوقت مر بين إجراء الختان ، والذهاب إلى الراهب للاعتراف"

" أجاب أنه يبدو له أنه مر شهران أو ثلاثة على الختان لأن بعض الموريسكيين الغرناطيين الذين كانوا يصنعون الكراسى - ولا يتذكر أسماءهم - قالوا له إن هناك قسيسًا أسيرًا ، وإنهم قد اعترفوا أمامه فإذا كان يريد الاعتراف فليذهب ، وقد انتظروا فى مكان قريب وهو يعترف".

" طُلب منه أن يقول كم من الوقت مر بين الاعتراف ومغادرة الجزائر ، وإلى أى مكان توجه أولاً ، فقال إن القسيس الذى اعترف أمامه نصحه بالذهاب إلى وهران إذا كان يعرف العربية ، ثم يتوجه إلى إسبانيا ، وإذا لم يكن يعرف العربية فليصادق موريسكيين من أراغون ؛ فهم قباطنة يبحرون فى سفن من أجل السرقة. وهكذا تمكن من ركوب سفينة لقبطان موريسكى من أراغون وقطالونيا ، وألقى بنفسه فى الماء ،

وذهب إلى القرية ، ومنها إلى سرقسطة حيث كان مريضًا يعالج فى المستشفى ، واعترف قبل دخول المستشفى . ومن سرقسطة توجه إلى فرنسا إلى قرية سان خوان دى لوث بحثًا عن والده وإخوته فعلم أن بعضهم مات وأن البعض الآخر عاد إلى إسبانيا. ثم توجه إلى ابنيون حيث اعترف"

" طلب منه أن يحدد من الذى نصحه بالذهاب إلى ابنيون ، ومن الذى قال له إن فيها أشخاصا يمنحونه الغفران"

" أجاب أنه اقترح أن يذهب إلى روما لكى يعترف ، فلما مر بأبنيون التقى بقسيسين فرنسيين قبل أن يدخل المدينة ؛ فذكر لهما ذلك فقالا له إن فيها أسقفا يمكن أن يمنحه الغفران ، وقد أعطياه عباءة لكى يدخل بها ، ومكث بضعة أيام هناك ثم توجه لمقابلة الأسقف ، فلم يفهم منه كلمة ، فأرسله إلى الرهبان ليبحثوا له عن قسيس يفهم لغته فأرسلوه إلى راهب قضى فى طليطلة ثلاثة عشر عامًا ، فاعترف أمامه ومنحه الغفران ، ثم توجه بعد ذلك إلى بيربينيان ثم إلى خيرونا ، وبالقرب من سرقسطة ذهب إلى فالنسيا واليكانتى واوريويلا حيث استقر به المقام مع جزار فتعلم الحرفة وكل ما قاله صدق" .

طلب ممثل النيابة بعد ذلك استدعاء السيد بيرناردينو ميدرانو الذى كان أسيرًا فى الجزائر، وطلب أن يُسأل عن حقيقة أن الموريسكيين الذين كانوا يصلون إلى هناك كانوا يُجبرون على إجراء عملية الختان ، وعلى الدخول فى الإسلام وارتداء ثياب المسلمين.

" فى مدينة كوينكا ، وفى مقر محكمة التفتيش ، وبتاريخ ١٠ يناير عام ١٦٣٤ ، وبحضور السيد سباستيان دى فرياس عضو المحكمة الذى أمر بدخول رجل حلف أن يقول الحق ، وأن يحفظ السر ، وقال إن اسمه : " بيرناردينو دى ميدرانو ، شريف ، وإنه من هذه المدينة ، وإن عمره سبعة وأربعون عامًا تقريبًا "

" طُلب منه أن يقول هل عندما كان أسيرًا فى الجزائر رأى أن المسلمين يجرون عمليات الختان لأشخاص ممن يذهبون من هنا دون رغبتهم لكى يحولوهم إلى مسلمين أو هل يجبرونهم على الدخول فى الإسلام ؟ "

" قال إنه فى الوقت الذى طرد فيه المسلمون من إسبانيا كان أسيراً فى الجزائر ، وقد أمضى هناك فترة ثلاث سنوات ، وشهرين ورأى بعينيه أن موظفين يسيرون فى الشوارع العامة ، ولما كانوا يجدون موريسكيًا من إسبانيا كانوا يأخذونه ، وكانوا يدخلونه عنوة فى أول بيت ، وكانوا يفحصونه فإذا وجدوا أنه غير مختن كانوا يجرون له عملية الختان حتى دون رغبته، وإن كثيراً من الموريسكيين ماتوا أثناء العملية ، وإن الكثيرين منهم كانوا يشكون أمرهم إلى الأسرى ورجال الدين المسيحيين لأنهم كانوا كاثوليك ، وكانوا لا يستطيعون الإفصاح عن ذلك أمام المسلمين ؛ لكنهم كانوا يعترفون بذلك للمسيحيين لأنهم يثقون فيهم . إن عمليات الختان كانت تجرى بعد إصدار قرارات تقضى بذلك ، سواء رضى الموريسكيون أم أبوا. وذكر الشاهد أن كل موريسكيى مملكة فالنسيا كانوا مختتنين وهم فى إسبانيا ، وأن نصف موريسكيى أراغون كانوا مختتنين ، أما موريسكيو أندلوثيا وقشتالة فلم يكن أحد منهم مختتنًا ، وذلك وفق معلومات الأسرى ورجال الدين . ويعلم الشاهد أن الراهب برناردو دى مونروى كان لديه تصريح من قداسة البابا بمنح الغفران للموريسكيين الكاثوليك الذين أجريت لهم عملية الختان ، ويقول إنه رأى بعينيه بعض موريسكيى إسبانيا يذهبون للاعتراف أمام الراهب مونروى ، وكان يقدم لهم القربان المقدس".

" وسُئل الشاهد هل لاحظ وهو أسير فى الجزائر أن المسلمين يسمحون للمسيحيين بالدخول فى مساجدهم؟ "

" فقال : عندما يكون المسلمون فى مساجدهم يؤدون الصلاة لا يسمحون بدخول المسيحيين ، ولا يسمحون بدخول النساء. أما إذا لم يكونوا بالمسجد فالحارس يسمح عادة بدخول شخص مسيحى بسرعة ليرى المسجد على ألا يتأخر ؛ إما إذا كانوا يؤدون الصلاة ؛ فمن العادة وجود حراس على الأبواب لا يسمحون بدخول المسيحيين ولا زوجات المسلمين".

" سُئل الشاهد عما إذا كان لباس المسيحيين هناك شبيه بلباس المسلمين ، أم يختلف ، وهل يجبرون الأسرى على الدخول فى الإسلام؟".

" أجاب أن الأسرى الكاثوليك يسمعون عن كل أنواع الملابس ، لكن المسلمين لا يتركونهم يرتدون الزى الإسبانى لأنهم ينزعونه عنهم ، ويلبسونهم زى العبيد ،

وهو عبارة عن سروال أبيض أو أزرق وقميص يصل إلى نصف الفخذ ، وإذا كان الأسير صبياً أو امرأة فإن المسلمين يحاولون أن يلبسونهم زيهم لكى يقنعوهم بدينهم ؛ بل يجبرونهم على ذلك بإيداعهم السجن ويضربهم بالعصى وبوسائل أخرى. أما الرجال فإنهم لا يحاولون إقناعهم بالدخول فى الإسلام ، ولا بارتداء أزيائهم".

" سُئل الشاهد هل هناك فى هذه المدينة أو بالقرب منها شخص آخر يمكن أن تكون لديه معلومات عن الأمور التى تحدث فيها؟"

" أجاب بأنه ليس لديه علم بوجود أحد يمكن أن تكون لديه معلومات سوى خادم له يُدعى فرانثيسكو أورتادو تركه منذ حوالى أربعة أعوام ، ولا يعرف أين هو ، وهل هو على قيد الحياة أم لا ، وأن كل ما ذكره حقيقة........."

السيد بيرناردينو دى كويار إى ميدرانو

" بعد هذا العرض الذى قدمه السيد بيرناردينو دى ميدرانو يبدو لى أن شهادته فى صالح المتهم حين يقول إن الختان إجبارى رغم أنه شاهد واحد ، وشهادته بمفرده ليست دليلاً دامغاً ، خاصة فى أمر غير مؤكد ، طبقاً لما وضحت رغم أنهم – بما أنهم همجيون – ربما اقتنعوا بإجراء الختان عنوة لكل من ينحدر من أصول إسلامية... رغم ذلك – يقول ممثل النيابة – إن المتهم لا يزال محل شكوك لعدم وجود سوى شاهد واحد ، ويجب تعريضه للتعذيب . ومع ذلك أجريت عملية تصويت ، ورأى القاضى أن دييغو دياث برئ ويجب إطلاق سراحه ، لكن بعد تعنيف شديد وتوبة علنية لأنه تركهم يجرون له عملية الختان.

وبهذا تنتهى القضية.

الهوامش

(١) Archivo Diocesano de Cuenca, Leg. 437,num. 6169

(٢)- انظر أيضًا :

Fr. Diego de Haedo,*Topografia e historia de Argel,t. I,p.151*

(٣) حول أصناف الموريسكيين انظرالمصدر السابق ، الجزء الأول ، ص. ٥٠-٥١

(٤) حول هذا الاستخدام السئ انظر أيضا المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص. ١٧٦

المؤلفة فى سطور :

- مرثيديس غارثيا أرينال (مدريد ١٩٥٠) .

- أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بإسبانيا ، ورئيسة قسم الدراسات العربية به لعدة دورات .

- من أبرز المتخصصين فى مجال الدراسات الموريسكية .

- لها العديدمن الكتب والمقالات المنشورة فى إسبانيا وغيرها حول العلاقة بين المغرب وإسبانيا .

- أشرفت على العديد من رسائل الدكتوراه المقدمة إلى جامعة مدريد المركزية .

المترجم فى سطور :

- الاسم : جمال عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط) .

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف من كلية اللغات والترجمة (١٩٧٩) .

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد .

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مديريد المركزية (١٩٨٩) .

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة .

- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليبناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ - القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ - المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ - اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ - الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ - المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ - ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ - حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ - أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ - تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ - هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ - مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ - دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ - الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ - الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ - فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ - آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ - السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ - نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ - سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ - كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ - مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ - الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ - هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ - تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ - إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ - الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى

٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ - خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ . أ . رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاووس حتى فرح	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الشاليش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ - باندراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكياڤلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ - موت المرابى	صدر الدين عينى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نرستيغ	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت : محمد محمد يونس

العنوان	المؤلف	المترجم
٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت : جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت : محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليوم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٥٧٣ / ٢٠٠٢